لجنة النشر للعاملين في

المسيح عيسى بن مريم

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى صديقي محمد محمد فرج . . .

الذي دفعني إلى إخراج هذا الكتاب

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحیم

« ذٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فيه يَمْتَرُونْ » .

(قرآن کریم)

obeikandl.com

١

« إذ قالت الملائكة يا مريم ، إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى ، واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون »
(قرآن كريم)

تنفس الفجر ، فانبثق فى الأفق الشرقى نبع من الضوء ، راح يبعث أشعته الفضية لتبدد ظلام الليل .. وصاح الديك إيذانا بمولد نهار جديد ، فهبت الشمس تقطع رحلتها الأبدية ، وأرسلت أشعتها الأولى إلى الناصرة ، فانقشعت الغشاوة عن التلال ، وعن أشجار السرو العتيقة التى حنت يد الزمن أطرافها ، وسقط الضوء على أشجار التين والزيتون ، وراح ينسل إلى البيوت الصغيرة المبعثرة فى الوادى الخاشع عند أقدام التلال .

وتألق زهر البرتقال الأبيض كالزنابق ، وتفتح نوار الرمان الأحمر ، وبدا كأنما يبتسم لنور الصباح ، ورجع الحمام على الأشجار ، تسبيحا لخالق الكون والجمال ، وراح الأخيل الأزرق ينتقل فى مراح بين الحقول ، ويحط على الأشجار ، فتلوح كأنما أثمرت ثمارا من الفيروز .

وأريق النور من كوات المنازل ، فقام عمران من نومه ، واعتدل فى فراشه ، ومد يده ، وتناول التوراة ، ففتح سفر دانيال ، وراح يقرأ ويفكر فيما يقرأ ، فيهيم فى دنيا من الأحلام . إنه ليجد فيما يقرأ غذاء لروحه ، ومادة لتأملاته . إن أسعد أوقات حياته لهى تلك السويعات التى يمضيها فى قراءة التوراة فى الصباح ، وتلك السويعات التى يمضيها مع جيرانه فى المساء ، يتحدث عن الأنبياء وعما فعلوه لبنى إسرائيل ، وعن النبوءات التى تحققت ، وعن النبوءة الكبرى التى يترقبها الجميع : نبوءة مجىء المسيح ملك اليهود ، الذى سيرسله الله إلى بنى إسرائيل .

كان يستشعر الزهو يملأ جوانحه إذا قرأ قصة راعوث أو قصة داود ، فهو من نسل ذلك البيت العريق ، إنه سليل الملك داود ؛ وكذلك زوجه من نفس ذلك البيت الكريم ، فما كان لإسرائيلي أن يتزوج إلا من طبقته . إنه من نسل الأنبياء ، وقد تزوج من امرأة يجرى فى عروقها دم النبوة الكريم .

وكانت حنة زوجه ، تقدم له طعام الفطور ، وتجلس تشاركه فى طعامه ، فيدور الحديث عن الدين والأنبياء ، فما كان هناك حديث فى الناصرة إلا عن الأنبياء والدين ، فأهلها جميعا من نسل هارون وداود .

وكانت الناصرة تتكون من أسرات قليلة فقيرة ، ولو أنها أسرات تنحدر من أصلاب الأنبياء . وكانت كل أسرة تحترف حرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء ؛ فقد احترف فرع داود النجارة ، واحترف فرع هارون تجارة الأخشاب ويجلبونها من التلال ، واحترفت الفروع الأخرى صناعة النعال أو تجفيف التين .

وكان عمران يخرج إلى عمله ، وينطلق فى شوارع الناصرة الضيقة ، يلقى السلام على كل من يقابله ، فالرجال يعرف بعضهم بعضا ، ويرجع ذلك التعارف إلى أجيال ، فالزواج محصور فى تلك الأسر الهابطة من الأنبياء ، حتى لا يضيع الدم الزكى بين الناس .

كان عمران يمارس عمله ، فإذا نزل بحانوته زائر أو صاحب عمل ، طفق يحدثه عن قصص التوراة ، ويردد مزامير داود فى صوت أخاذ يهز المشاعر ، وينزل الخشوع بالقلوب ، فترتيلاته تنبعث من قلب نقى ، مفعم بالإيمان العميق .

وأقبل يوم السبت ، فارتدى عمران أفخر ثيابه ، وارتدت حنة ثياب الخروج ، وانطلقا إلى الكنيس ، وذهب عمران إلى مكان الرجال ، وذهبت حنة إلى الشرفة العالية المعدة للنساء المحجبات ، وراح الجميع يصلون ، فانبعثت الأصوات ملائكية تأخذ بالألباب ، فأحس عمران كأنما يهيم فى السموات ، وما انتهت الصلاة حتى عادت تراوده الفكرة التى طالما راودته فى يقظته ، وطافت به فى منامه ؛ فكرة الذهاب إلى أورشليم ، لخدمة المعبد العظيم ، فقد رأى فى منامه أنه يقوم بسدانته وطهوره وتجميره ، وتقديم الذبائح إلى إله إسرائيل .

إن زكريا ، زوج اليصابات أخت حنة ، هناك فى معبد الرب ، يقوم بخدمته

ويكرس حياته للعبادة ، فلماذا لا ينطلق هو من إساره ، ويتحرر من قيود الدنيا . ويهب نفسه خالصة لله رب العالمين ؟

عاد عمران إلى بيته ، وقد ملىء عزما على الخروج إلى أورشليم ، ليكون من خدام المعبد المخلصين ، وأفضى إلى حنة بما قر عليه رأيه ، فجعلا يتأهبان للخروج ، حتى إذا تم لهما ما أراد انطلقا فى الطريق المنساب بين التلال ، مخلفين وراءهما بيوت الناصرة الناصعة ، وهبطا إلى السهل الأخضر اليانع ، وراحا يطويان الأرض ، حتى أشرفا على السامرة فأخذا يتقدمان تقدما فى حذر ، فالسامريون يبغضون اليهود ، فهم يعتقدون أنهم أبناء إسرائيل الحقيقيون ، ولا يعترفون إلا بكتب موسى الخمسة ، دون باقى التوراة ، ويعتزون بنسخة من هذه الكتب دونت على جلد الماعز ، ويقولون إن هارون كتبها بخط يده .

تأصلت العداوة بين السامريين واليهود ، فكان حجاج الناصرة والبلاد الشمالية يتجنبون المرور بالسامرة فى عيد الفصح ، فى طريقهم إلى أورشليم ، خشية أن يقع بينهما ما يكدر صفو الجميع ، وما كان السامريون يذهبون إلى أورشليم لذبح قرابينهم ، بل كانوا يتركون فى الجبل ، يسوقون ذبائحهم ، حتى إذا كان القمر بدرا ، أمر الكاهن بالذبائح فتنحر ، وتلطخ أبواب الخيم بالدم ، كانت لهم تقاليدهم ومعتقداتهم وشريعتهم ، وكانوا يعتقدون أنهم وحدهم الذين يعرفون الله .

ونام عمران وحنة ليلتهما ، ما تكاد تغمض عيونهما حتى يفر النوم خوفا ، وأشرقت الشمس وقاما يستأنفان سفرهما . كان النهار رائعا ، والحقول مخضرة ، والتلال أقل وحشة ، والرعاة ينطلقون أمام الأغنام يرسلون أصواتهم العذبة بالغناء القوى فيعبث بأوتار القلوب ، والفلاحون يعملون : هذا يبذر الحب ، وذاك يحرث الأرض ، وثالث ينتظر الثمار من الرب ، والفتيات يحملن الجرار فى طريقهن إلى الدور ؛ وطويت الأرض ، وإذا بأشجار قليلة على جانبى الطريق ، وبينها بئر يعقوب ، فذهبت حنة تملأ الماء ، واستلقى عمران فى ظل شجرة ، فالبئر مكان اجتماع النساء ، فى الصباح وفى المساء ، وما كان ليذهب إليها رجل .

وعادت حنة وجلست إلى جوار زوجها ، وجعلا يتحدثان عن البئر التى

حفرها أبوهم إسرائيل . ثم استأنفا سفرهما وفى قلبيهما أمل ، أمل الوصول إلى أورشليم ، لخدمة المعبد العظيم .

وفيما هما منطلقان إذا بغلمان يلعبون ، فهز مشهدهم أوتار قلبيهما ، وهفت روحاهما إليهم ، فما رزقهما الله أولادا ، وبلغا بئر راعوث ، فنزلا عندها وقد سرت فيهما بهجة ، وطاف برأسيهما ما ورد فى التوراة عن هذا المكان الذى عاشت فيه جدتهما الكريمة التى انحدر من نسلها الملك داود .

وناما ليلتهما عند البئر الحبيبة ، وإنهما ليستنشقان عبير الماضى ، ويتمثلان حوادثه الهادئة التى مرت بجدتهما كحلم لطيف بين مآسى التاريخ ، وانقضت الليلة بهيجة ، ثم قاما إلى الطريق يضربان فيه ، يخترقان الصحراء والحقول ، ويمران بالقرى التى كانت تبدو كصناديق من الطين مبعثرة .

وبلغا أرباض المدينة المقدسة فخفق قلباهما ، لاحت أورشليم شامخة فى الفضاء ، وبدت قبة المعبد الذهبية تتألق تحت ضوء الشمس الوهاج ، فأحس عمران روحه تخفق بين جنبيه ، وطفرت الدموع من مآقيه .

وانطلقا بين التلال المغطاة بالكروم وأشجار التين والزيتون ، وانسابا فى مسالك المدينة يشعران بالغبطة ، حتى وصلا إلى بيت زكريا ، فراحت حنة تعانق أختها اليصابات ، وصافح زكريا عمران فى شوق وترحيب .

ومرت الأيام ، وانقطع عمران للعبادة ، وكانت حنة واليصابات تذهبان إلى المعبد ، تجلسان فى الشرفة المثلثة التى أعدت للنساء ، وقد دثرهما إيمان عميق ، فالأنوار السماوية تتلألأ ، والأصوات الملائكية تتردد فى المكان ، فتحلق الأرواح فى عوالم من الصفاء ، والرجال فى مسوح الرهبان أطرقوا خاشعين ، فانعكست على وجوههم طمأنينة النفوس ، وزكريا وعمران يخدمان المعبد ، فقد وهبا أنفسهما لله . ربطت بينهما المصاهرة ، وألف بين قلبيهما حبهما لله ، وجعلا يسارعان فى الخيرات ، ويدعوان الله رغبا ورهبا ، وكانا له خاشعين .

وكرت الأيام حلوة هنية ، وحملت حنة ، فهزها الفرح ، لأن أعظم ما تفعله فتاة فى إسرائيل ، أن تنجب لزوجها أولادا ، وشغلت بما فى بطنها ، فراحت تفكر فيه ، وتتمنى أن يكون لجده داود .

كانت تقضى جزءا من نهارها فى المعبد ، وتصغى جزءا من ليلها إلى قصص موسى وهارون ودنيال ، فكانت تعيش مع الأنبياء ، وكانوا محور تفكيرها ، فإذا فكرت فيمن فى بطنها ، أمدتها ذاكرتها بما رسب فى واعيتها على مر السنين وكر الأيام ، ولطالما رأته بعين خيالها نبيا من أنبياء بنى إسرائيل ، كانت تراه مرة كالصبي دانيال ، وتراه تارة أخرى كالصبي داود يصرع جالوت ، ورأته أكثر من مرة كموسى على الجبل يناجى ربه .

ومرّض عمران ، واشتدت عليه وطأة المرض ، فراحت حنة تمرضه ، وشغلت به عما فى بطنها ، ولم ينفعه حب زوجه وتمريضها ، فذهب إلى ربه ليجد ما عمله من خير محضرا . وتأهبت حنة للعودة إلى الناصرة ، وقبل الرحيل انطلقت إلى المعبد ، ونظرت فوجدت زكريا قائما ، فحرك ذلك أشجانها ، وزاد فى حزنها أن انقطع بموت عمران شرف خدمة المعبد الذى كان فى بيتها ، فأطرقت أسفا ، وداعبتها فكرة أضاءت ظلام نفسها ؛ لماذا لا تنذر ما فى بطنها لخدمة المعبد ، فيقوم بما كان يقوم به أبوه ، فيعود إلى البيت شرفه ؟ واطمأنت إلى الفكرة ، فشخصت ببصرها إلى السماء ، وقالت فى حرارة :

— رب ، إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم .

ورجعت إلى الناصرة ، وعادت إلى بيتها تنتظر تمام شهورها ، ثم جاءها المخاض ، ووضعت ما فى بطنها ، فإذا به فتاة ، فنظرت إلى السماء من خلل كوة فى الجدار ، وقالت معتذرة :

— رب ، إنى وضعتها أنثى .

والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وفكرت فى اسم لها ؛ وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية ، فلماذا لا تسمى ابنتها باسمها تيمنا ؟ شخصت إلى السماء ثانية وقالت :

— وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

تقبل الله مريم بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، فكانت تمضى سحابة يومها مع أمها فى خدمة البيت ، وتنطلق إلى البئر تجلب لها الماء ، وتسقى الأغنام القليلة

التى تملكانها ، وتذهب فى طرقات الناصرة تقضى حاجاتها ، فإذا جن الليل وفد إلى الدار بعض الأقارب ، وأخذوا يتجاذبون بأطراف الحديث ، وكان حديثهم يدور حول الدين والأنبياء ، فكانت تعيرهم سمعها ، فذلك الحديث يصادف هوى فى نفسها ، وكانوا يتحدثون عن المسيح الموعود ، فالمدن اليهودية تستيقظ لتتحدث عنه ، وتهجع وصدى الحديث عن ملك اليهود المنتظر يتردد بين جنباتها .

وكبرت مريم ، وصار على حنة أن تفى بنذرها ، فأخذت ابنتها وانطلقت إلى أورشليم ، لتسلمها إلى العباد المقيمين فى المعبد ، ودخلت على اليصابات تنتظر ، وأقبل زكريا فذكرت له ما جاءت من أجله .

وذاع بين العباد المنقطعين للعبادة أن امرأة عمران جاءت بابنتها تدفع بها إلى من يكفلها ، فتنازعوا فى أيهم يكفلها ، وأراد زكريا أن يستبد بها دونهم ، فاليصابات خالتها ، فقال للمختصمين :

— أنا أحق بها منكم .

— ما أحد أحق بها من أحد .

— فماذا ترون ؟

— نرى أن نقترع ، فمن خرجت قرعته كان له حق كفالتها .

وجاء كل منهم بقلم معروف به ، وحملوا الأقلام ووضعوها فى موضع ، وأمروا غلاما لم يبلغ الحنث (كاتون[1]) أن يخرج قلما منها ، فأخرج واحدا ، فكان قلم زكريا ، فقال الرجال :

— لا ، نقترع مرة ثانية .

فقال لهم زكريا :

— ماذا تطلبون ؟

— نلق أقلامنا فى النهر ، فأينما جرى قلمه على خلاف جريه فهو الغالب .

وذهبوا إلى النهر ، وألقوا أقلامهم . فسارت جميع الأقلام مع التيار ، إلا قلم زكريا فقد جرى على خلاف جريه فى الماء .

---

(١) تطلق على اليهودى الذى لم يبلغ الثانية عشرة .

فكفلها زكريا ، وأخذها لتكون خادمة من خدام المعبد ، وخصص لها مكان للعبادة فى الطبقة العلوية ، فكانت تصغى إلى النقاش الدائر بين العباد ، وإلى المعلمين الذين يعلمون تعاليم الدين ، فإذا أسدل الليل سدوله ، وخلت بنفسها فى غرفتها ، راحت تقرأ فى التوراة عن المسيح ابن الإنسان ، الذى سيجىء من نسل داود ليقيم العدل ، وينزل أمراء الأرض والجبارين عن عروشهم ، وينزع أسنان مرتكبى الإثم والشرور ، فتشخص إلى السماء بعينيها الواسعتين السوداوين ، وتشرد فى عوالم واسعة من التأمل والتفكير .

وجاء عيد الفصح ، فوفد الحجاج من سورية ومصر وأثيوبيا وآسيا الصغرى وبابل واليونان ، يسوقون أمامهم النحائر ، يقدمونها للنحر فى المذبح ، وأصوات المصلين تتجاوب فى المعبد . ولما انتهى العيد ، خرجت بنات أورشليم إلى الحدائق ، وخرج الحجاج الشبان خلفهن ، يبحثون عن زوجات ، ولم تبق فى منازل أورشليم فتاة ، إلا مريم كانت فى محرابها تصلى لله .

وفدت حنة مع الحجاج ، وقابلت مريم ، ولما انقضى العيد أخذتها إلى الناصرة تعيش معها أياما ، ثم تعود إلى محرابها للعبادة والصلاة ، وانطلقت القافلة من أورشليم ، ومر يومان ، وفى اليوم الثالث أشرفت على الجليل ، كان الربيع قد جاء ، فبدت الحدائق فى ثوبها القشيب ، والحقول كأنما فرشت ببساط من سندس أخضر ، أخذت الأرض زخرفها وازينت ، فتلفتت مريم منشرحة ، فالجليل قد بدا كقطعة من جنات النعيم .

وانسابت القافلة فى طريقها حتى أشرفت على الناصرة ، فإذا أشجار السرو والتين والزيتون تغطى سفوح التلال ، وإذا البيوت فى الوادى خاشعة فى محراب السكون العريض ، وإذا مريم تمد بصرها ، فلا ترى من بين تلك الدور إلا دارها الصغيرة ، التى نبت فى فنائها بعض أشجار الزيتون ، وراحت بعض الأغنام تجول فيه .

عادت مريم إلى الناصرة ، ولكن روحها هائمة بأورشليم ، فصلوات الرهبان تنساب رقيقة عذبة فى آذانها ، ومشاهد العباد تترادف فى مخيلتها ، ومحرابها الذى تقوم فيه ليلها ونهارها ماثل أمام عينيها .

وجاء الليل بهدوئه وأسراره ، وبدأت حلقات السمار تتجمع فى الناصرة ،

وبقيت حنة ومريم وحيدتين فى دارهما ، وتصرم من الليل أوله ، وإذا بطارق يطرق الباب ، فقامت مريم وفتحته فإذا قريب وافد للمؤانسة والحديث .

جلس الرجل ، وبدأ يتحدث فيما جاء فيه ، قال :

— أصبحت مريم شابة ، وخير ما تفعله فتاة من بنى إسرائيل أن تتزوج ، وأن تنجب أولادا ، وقد جئت أخطب مريم .

فأطرقت حنة قليلا ، ثم قالت :

— لمن ؟

— ليوسف بن يعقوب

كان يوسف قريبا لمريم ، وكانت حنة تعرفه ، ولـكنها صمتت قليلا ، فقال الرجل :

— يوسف شاب كريم ، وهو من بيت داود ، وإنى أزكيه .

فرفعت حنة رأسها وقالت :

— أحب شىء إلى نفسى أن أزوج مريم قبل أن أموت .

* * *

وتجاذب الرجل وحنة أطراف الحديث ، ومريم صامتة لا تنبس بكلمة ، حتى إذا انتهت هذه الزورة ، ودخلت فراشها ، أحست سحابة من الأسى تنتشر فى صدرها ، كانت تسمع فى المعبد أن المسيح سيأتى من نسل داود ، وستضعه عذراء ، وكانت تحلم ككل عذراء فى إسرائيل أن تكون أم ذلك النبى المنتظر ، أما وقد خطبت إلى يوسف بن يعقوب ، فقد تبخر من رأسها ذلك الحلم الجميل .

وأعلنت فى الناصرة خطبة مريم ، وأجل الزواج إلى أن يقيم يوسف له بيتا تنتقل إليه العروس ، وأحست مريم شوقا إلى أورشليم ، إنها تفتقر إلى الغذاء الروحى الذى كانت تتناوله فى المعبد ، فاستأذنت من أمها فى العودة إلى محرابها ، تمجد الله وتقدس له ، حتى ينتهى يوسف من إعداد عش الزوجية السعيد .

كان على يوسف أن يعمل فى حانوته بيده ، ليدخر المهر الذى يدفعه للعروس ، وما يكفيه لإقامة دار قريبة من دار حنة ، وذلك يحتاج إلى وقت طويل ، فأهل الناصرة فقراء ، لا يدفعون إلا أتفه الأثمان فيما يقوم لهم به من أعمال النجارة ،

فلم يعترض على عودة مريم إلى أورشليم ، لتعيش فى المعبد ، فى رعاية زكريا ، قريبها الشيخ المبارك .

وعادت مريم إلى محرابها ، تمضى نهارها فى العبادة والاستغفار ، وتمضى ليلها فى التطلع إلى نجوم السماء ومناجاة ربها ، وتصل إليها ترتيلات المصلين عذبة تنعش روحها . وفى ذات ليـــلة ، بينما كانت غارقة فى ابتهالاتها ، أحست كأن شخصا فى محرابها ، فتلفتت فلم تجد أحدا ، فمشى الخوف فى أوصالها ، وأرهفت حواسها ، واتسعت عيناها السوداوان رعبا ، ومس أذنيها حفيف صوت ، فغمغمت فى فزع :

— من هناك ؟

وإذا بصوت عذب يقول :

— أنا رسول ربك إليك .

وغرق المـكان فى ضوء باهر ، فخفق قلبها فى شدة ، وانبهرت أنفاسها ، وتفصد العرق منها ، وانبعث صوت عذب مس شغاف قلبها :

— يا مريم ، إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين .

وساد المحراب سكون رهيب ، وبقيت مريم فى ذهول ، حتى إذا أفرخ روعها ، أحست أمنا يغشاها ، وطمأنينة تنسكب فى روحها ، فملئت نشوة ، وسالت دموع الفرح على خديها ، وخرت ساجدة شكرا لله رب العالمين .

obeikandl.com

« وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقا ، قال : يامريم ، أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . (قرآن كريم)

الهدوء يلف كل شيء ، حتى كان زفيف النسيم يسمع ، والضوء الخافت المنبعث من الدبالة يبدد الظلام ويفرش المكان بنور واه لطيف ترتاح إليه النفوس ، وكان للمكان قدسية وجلال ، ولاحت فى الضوء الخافت اللطيف مريم ، راكعة فى خشوع ، تبتهل إلى الله ، وجرت الدموع على خديها من الرهبة والوجد ، كان في وجهها نورانية وصفاء ، وأقبل زكريا يسير الهوينى . وقد نال منه الكبر ، يلوح فى وجهه التقى والصلاح ، ودخل عليها المحراب ، فوجد عندها فاكهة فى غير أوانها فتعجب ، وقال لها :

— يا مريم ، أنى لك هذا ؟

— هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وخرج زكريا ، وفتحت مريم التوراة ، وراحت تقرأ قصص الأنبياء ، فأحست قربا منهم ، فرسل الرحمن الذين أرسلوا إلى موسى وهارون وداود حدثوها ، وبشروها بأن الله قد اصطفاها وطهرها ، إن الحوادث التى كانت تقرؤها فى شغف ، أصبحت تلمسها وتحسها فى أعماقها ، كانت تتمنى أن تكون كراعوث وراحيل اللتين كانتا بركة على بنى إسرائيل ، فإذا الملائكة تخبرها أن الله اصطفاها على نساء العالمين .

وراح زكريا يفكر فى أمره ، إنه قارب الثمانين ولم يرزق ولدا ، وحز فى نفسه أن يبقى فردا وقد مسه الكبر ، وتمنى أن يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له أن يطمع فى ذلك واليصابات عاقر ، ولكن لما وقع بصره على الفاكهة ، أحيا

ذلك موات الأمل فى نفسه ، إن الله الذى يرزق مريم بفاكهة فى غير أوانها ، قادر على أن يهب له ذرية على الرغم من أنه شيخ وامرأته عاقر .

ودخل محرابه ، وسجد فى خشوع ، وجعل ينادى ربه فى حرارة :

— يارب ، يارب ، يارب .

وصفت نفسه ، وتفتحت روحه ، وأحس كأن ينبوعا من النور تفجر فى جوفه ، فبدد الظلام الذى كان يحتويه صدره ، وشعر كأنما دنا من ربه ، فقال :

— رب ، إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإنى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ، ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا .

وأطرق برأسه خاشعا ، وفاض النور فى المحراب ، وسمع حفيفا خفيفا ، فتلفت ، فرأى ملكا كريما ، يقول فى صوت حلو أخاذ :

— يا زكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا .

فرفع زكريا رأسه وقال :

— رب ، أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ !

قال الملك :

— كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا .

— رب اجعل لى آية .

— آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

وخرج زكريا على قومه ، يفيض وجهه بالبشر ، ويخفق قلبه بالسرور ، ورمز إلى قومه أن يسبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى .

ودخل زكريا على مريم محرابها ، فوجد عندها رزقا . فرمقها فى إكبار ، واستشعر فى نفسه أن الله يعدها لأمر جليل ، فهى من نسل داود ، وما زالت عذراء ، فمن يدرى ، قد تكون أم المسيح الذى تنبأ بمجيئه وبشر به الناس .

وقنتت مريم لربها ، وسجدت وركعت ، وابتهلت إلى الله فى فحمة الليل ، وفى رائعة النهار ، وبينما هى فى محرابها هبت نسائم رقيقة ، وعبق الجو بروائح

زكية ، وغرق المكان فى نور سماوى ، وإذا بالملائكة أمامها ، وإذا بأمن عجيب ينزل بصدرها ، ورفعت بصرها وقالت الملائكة :

— يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين .

أذهلتها البشرى ، فاضطربت ونسيت أنها كانت ترجو أن تكون أم المسيح المنتظر ، ونسيت ما كانت تعرفه من أن أمه ستحمل به وهى عذراء ، فنظرت إلى السماء وقالت :

— رب ، أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟

قال :

— كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

واجتهدت مريم فى عبادتها ، فصفت نفسها ورقت ، وجاء الصيف ، فكان النهار طويلا ، والجو حارا ، فأحست عطشا ، فرفعت قلتها لتشرب ، فلم تجد فيها ماء ، فقامت وهبطت إلى المعبد ؛ فطفقت أصوات المصلين تتضح فى مسامعها ، وألفت روحها تردد الصلاة فى أعماقها ، وذهبت وقلتها فى يدها ، وخلفت المعبد وراءها ، ولكن أصواتا ملائكية عذبة ظلت تردد الصلوات فى الفضاء ، فخيل إليها أن الكون كله يمجد الله ، وأن الريح تسبح بحمده ، وأن كل شىء يذكر اسمه . ففاضت بهجتها ، وبلغت البئر وملأت قلتها ، وتأهبت للعودة ، ولكنها وقفت تتطلع فى عجب ، فالدنيا خاشعة ، كل شىء هادىء ، كأنما الأرض تتلقى وحيا من السماء ، وفجأة سمعت حركة بجوارها ، فالتفتت خائفة ، فإذا بشاب وسيم يشع من وجهه نور . فاضطربت وارتدت وقد اتسعت عيناها رعبا وانبهرت أنفاسها ، وقالت :

— إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .

فقال فى صوت يقطر رقة وعذوبة :

— لا تراعى .

فقالت ولا زالت فى خوفها :

— من أنت ؟

— إنما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلاما زكيا .

— أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟

— كذلك قال ربك ، هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا .

ونفخ الله فيها من روحه ، ثم عادت إلى محرابها ، وقبعت فيه مطرقة تفكر ، فغشيها هم وقلق ، لقد حملت بالمسيح ، وستظهر عليها علامات الحمل . فهل يصدقها الناس إذا قالت لهم إن الله وهب لها غلاما زكيا ؟ لن يصدقها الناس ، سيتغامزون عليها ، ويرمونها بالفاحشة ، ولن تستطيع لاتهامهم دفعا .

وراحت الأيام تمر وهى تعيش فى أفكارها ، واجتمعت عند البئر بفتيات يتحدثن ، فدار الحديث حول الدين ، وجاء ذكر المسيح المنتظر ، فرأت مريم أن تعرف رأى الناس إذا كاشفتهم بسرها ، فقالت لهم :

— لقد حملت به .

فاتسعت العيون دهشا ، وارتسمت على الوجوه زراية ، وجرت على الألسن سخرية مريرة ، فانسحبت مريم وهى حزينة ، تكاد كبدها تنفطر ، وعزمت على أن تطوى سرها فى صدرها ، ولكن حديث البئر ذاع بين بنات أورشليم ، وقال الناس : إن مريم تريد أن تخفى خطيئتها بادعائها أنها حملت بالمسيح ، عرفت أنها من نسل داود ، فوجدت بذلك مبررا لدعواها الكاذبة .

وانتشر حديث حمل مريم انتشار الريح ، وذاع حتى بلغ الناصرة ، فساد القوم وجوم ، وراحوا ينظرون إلى يوسف النجار فى احتقار ، وقاطعوه لأنه جنى الثمرة قبل أوانها .

وعجب يوسف لنظرات الناس وكشحهم بوجوههم عنه ، وسأل عما دفع الناس إلى احتقاره ، فبلغه ما يقول الناس عنه ، فنزل به حزن ثقيل ، ولم يصدق ما يلصقه الناس بمريم . إنه يعرفها تقية نقية ، وقلبه يوحى إليه أنها لا تأتى فاحشة ، وما كان قلبه يخدعه . واستمر حديث الناس يؤذيه ، فلم يستطع عليه صبرا ، فشد الرحال إلى أورشليم ، إلى حيث تتعبد مريم .

انطلق وهو حزين ، ونفسه موزعة بين الرجاء واليأس ، إذا أراد أن يتهمها

ذكر صلاحها وبراءتها ، وإذا أراد أن يبرئها ذكر ما يقول عنها الناس ، فبقى فريسة لأفكاره لايهدأ له بال ، ولا تغمض له عين ، فيستريح من الرؤى التى تهاجمه فى قسوة ، فتمزق روحه ، وتفتت كبده .

وبلغ أورشليم ، وتقدم خافق القلب ، مضطرب النفس ، وقد شغل بإحساساته عن كل ما حوله . وقابل مريم ، فألفاها قد رق جسمها ، واصفر لونها ، وكلف وجهها ، ونتأ بطنها ، فانقبض ، ونزل بقلبه حزن عميق ، وغشى وجهه إظلام ، ولكنه كبت ما يقاسيه ، فقد كانت نفسه كإسفنجة تمتص الآلام ولا تطفح بها ، فقال لها وهو مطرق ، لا يرفع عينيه إليها :

— بلغنى ما يقول الناس عنك ، وقد حرصت على أن أميته وأكتمه فى نفسى ، فغلبنى ذلك ، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى .

فقالت مريم فى ثبات :

— فقل قولا جميلا .

— ما كنت أقول إلا ذلك ، فحدثينى : هل ينبت زرع بغير بذر ؟

— نعم .

— فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها ؟

— نعم .

— فهل يكون ولد من غير ذكر ؟

— نعم ، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر إنما كان من الزرع الذى أنبته الله من غير بذر ، أولم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث ، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر ، بعد أن خلق كل واحد منهما وحده ؟ أو تقول لم يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته ؟

قال يوسف :

— لا أقول ذلك ، ولكنى أعلم أن الله بقدرته على مايشاء ، يقول لذلك كن فيكون .

— أو لم تعلم أن الله عز وجل خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى .

— بلى .

وأطرق مفكرا ، وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من عند الله ، ولم تتركه أفكاره ، بل قالت له :

— إن الله بشرنى بالمسيح عيسى ابن مريم .

كان يوسف مؤمنا تقيا ، يعتقد أن الله سيرسل المسيح إلى بنى إسرائيل نبيا ، من صلب داود ، وستضعه عذراء ، ومريم من تلك السلالة الطاهرة ، وهى كفء لحمله ، فلم يمار فى ذلك ، ولم يكذبها .

ودخل لينام ، فإذا بملك يقول له :

— يا يوسف ، إن ما فى بطن مريم من عند الله ، وقد اختارك الله لتكفل رسوله ، ولتكون راعيا له .

فهب يوسف من نومه منشرحا ، وسجد لله شكرا ، أن اختاره حارسا لمسيحه ، الذى سيرسله هداية لبنى إسرائيل .

obeikandl.com

٣

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هـذا وكنت نسيا منسيا » .
(قرآن كريم)

رأى رهبان المعبد أمارات الحمل تظهر على مريم ، فاستعظموه ولم يدروا على ماذا يحملون أمرها ، وساءهم أن تلوث المعبد من كانوا يظنونها أتقى أهل الأرض طرا ، إنهم تخاصموا فى أيهم يكفلها ، وقد شبت بينهم لاتغادر محرابها إلا لضرورة ؛ إن هذا الأمر يقلقهم ويحيرهم ويعصر نفوسهم فى أسى ، فاجتمعوا يتشاورون ، يديرون قداح الرأى بينهم ، فرأوا أن يحاكموها ، فإذا ظهر أنها فسقت رجموها ، كما تقضى شريعة موسى .

وراح زكريا يذكر لهم ما رأى فى محرابها ، ويذكرهم ببشارات الأنبياء بالمسيح ، وأن هذه التى يتهمونها ظلما هى الأم الموعودة ، التى يترقب بنو إسرائيل وليدها . إن زوجته ما حملت إلا ببركتها ، فلولاها لما رزقه الله يحيى ، واستمر يبرئها مما نسبوه إليها ، ولكنهم أعرضوا عنه ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وقالوا ما انبرى للدفاع عنها إلا لأنه كفيلها ، ولأن أمها أخت زوجته اليصابات .

وخيم الظلام ، ودثر أورشليم فى غلالته السوداء ، ونام الرهبان ينتظرون الصباح ، ليحاكموا مريم ويرجموها ، ودخل يوسف إلى فراشه ، وما أسلم جنبيه للرقاد ، وأغمض عينيه حتى هتف به هاتف :

— يوسف قم ، وأخرج مريم ، فالقوم يأتمرون بها .

هب يوسف من نومه ، فأعد حماره ، وانطلق إلى مريم وهو يترقب ، فأخبرها بما أوحى إليه ، ثم حملها على حماره ، وانطلقا فى سكون الليل فى الطريق الضيق ، حذاء الأسوار الهائلة التى تبعث فى النفوس الرهبة ، تلك الأسوار التى

بناها داود حول المدينة المقدسة ، وتركا الطرق المتعرجة ، وانسابا بين التلال الصفر ، ثم خرجا إلى الفضاء ، فصفرت الرياح ، ومشت الرعدة فى أجسامهما . كانت الليلة شديدة البرودة ، وأرسل القمر ضوءه ينير الطريق ، فبدت الصحراء الواسعة كبساط أصفر فضى وشاه الحسك . وانطوى الليل وأشرقت الشمس فدبت الحرارة فى الأجسام المقرورة .

ولمحا بئرا فذهبا إليها ، ونزلا عندها حتى إذا استراحا من السفر ، قاما يستأنفان رحلتهما ، وغابت الشمس فى الأفق الغربى ، ولاح الطريق الأبيض الذاهب إلى بيت لحم ، فانسابا فيه . وظهرت المدينة بأشجار السرو العالية ، والمنازل البادية كأشباح بيض بين أشجار الزيتون التى تظللها ، وأخذت بيت لحم تتضح أمام عيونهما ، فخفقت قلوبهما ، وبدت الأغنام بين الأشجار كقطع من الجليد مثناثرة .

وبلغا باب المدينة ، فإذا النسر الرومانى فوقه ، وإذا بجند من جنود الرومان واقفون يحصلون الضرائب ، فالملك هيرودس يحبها فى كل مكان ، ليرفعها إلى أسياده فى رومية . إنه يفعل كل ما يرضيهم وإن كان فى ذلك إرهاق لشعبه ، فغاية ما يبغيه أن يرضى عنه سيده أوغسطس قيصر .

دخلت القوافل بعد أن أدت الضرائب ، ومرت الجمال كالأطياف ، وراحت حوافر الحمير تضرب الأرض فترتفع أصواتها ، ودخل يوسف ومريم وقد أرخى الليل سدوله . وانسابا فى طريق قامت على جانبيه أشجار الزيتون .

كانت ليلة شديدة البرودة ، وكان القمر فى ليلة تمامه ، يرسل أشعته ، فيسدل على الكون وشاحا فضيا أخاذا ، وكانت النجوم فى رقعة السماء تتلألأ ، كأنما جلتها يد ساحرة .

وارتفعت نغمات مزمار ، فإذا براع يرعى غنمه فى الليل ، وإذا بالغنم قد استكانت ورفعت رءوسها . كأنما الأنغام تسكب النشوة فى أجوافها ، فنظرا ، فقفزت إلى ذهنهما صورة داود وهو يرعى الغنم ، فقد رعاها فى هذه البقاع التى غطيت بالأعشاب ، فكانت مراعى طيبة .

وسارا ، وما ابتعدا إلا قليلا حتى أحست مريم آلام الوضع . فتلفتت فوجدت

حقلا منبسطا ؛ إنه الحقل الذى جاءت إليه جدتها راعوث ، تجمع منه الحنطة وهى كسيرة الفؤاد ، بعد موت زوجها ومجيئها مع حماتها نعمى ، ووجدت ثلاثة من الرعاة جالسين فيه يحرسون أغنامهم ، فرأت أن تتحامل حتى تصل إلى نزل قريب ، ولكن فاجأها المخاض إلى جذع نخلة ، فاحتمت به تضع ما فى بطنها .

كانت الريح تزمجر ، والقر شديدا يجمد الأطراف ؛ فوقف يوسف بعيدا ، وقد أطرق أسى ، فمريم تضع أمل بنى إسرائيل المرتقب فى الخلاء ، ليس لها وطاء إلا الأرض ، ولا غطاء إلا السماء .

وهدأت الرياح ، وهبت نسائم عبقة بالعطر النفاذ ، وتغير الجو فإذا الليلة الباردة تنقلب ليلة رائعة من ليالى الربيع ، وسقط من السماء نور باهر أضاء المكان ، وانبعثت ترتيلات ملائكية هزت نفس يوسف ، وجعلته ينظر وهو لا يدرى ، أهو سابح فى حلم من أبهج الأحلام أم هو يقظان .

غشى النور أبصار الرعاة ، فنظروا مدهوشين ، ومست آذانهم الأصوات الملائكية التى كانت تسبح لله القادر ، فامتلئوا عجبا ، وفطنوا إلى أن المرأة التى التجأت إلى الشجرة إنما تضع مولودا مباركا له شأن عظيم .

وطاف برأس مريم خاطر ، جاءت ساعة الوضع ، وعما قليل تنهض وعلى يديها طفلها ، فماذا يقول قومها عنها ، فحزنت وبرح بها الحزن ، فقالت :

— يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

ووضعت ابنها ، وما لمس الأرض حتى ناداها من تحتها :

— لا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا .

وحمل يوسف مريم ووليدها ، وذهب إلى نزل وضيع ، وانطلق الرعاة إلى المدينة يقصون ما رأوه فى الليلة العجيبة .

وخرج ثلاثة رجال من فارس ، يرصدون نجوم السماء ، فهم يقرءون ماسطر فى سجل القدر ، ليرفعوه إلى ملكهم . كانوا على علم بالنجوم ، وما كان الملك يتخذ أمرا قبل أن يستمع إلى نصحهم ورأيهم .

كان الملك يحكم شعبه ، وهؤلاء الحكماء يحركون الملك ، فهم الملوك الحقيقيون : يعلنون الحروب ، ويقتلون الرجال ، ويوحون — إن أرادوا — بالسلام ، فهم القوة المحركة فى البلاد ، يقبضون على أزمتها باسم العلم والدين .

شخص ثلاثتهم إلى السماء ، يرصدون النجوم المتلألئة فى الرقعة الزرقاء ، قال قائل منهم :

— طلع الليلة نجم جديد .

— هذا نجم لم نره قبل الليلة .

— ولد الليلة ملك .

— إنه ملك اليهود .

— الملك الذى جاء ذكره فى التوراة ، ذلك الذى سيرسله الله سلاما .

— حقا هذا نجمه .

— وأين ولد ؟

— هناك فى أرض اليهود .

— فلنخرج إليه ، نعلن تصديقنا به ، وإيماننا بالله الذى أرسله .

وتجهزوا للرحلة الطويلة ، وحملوا هداياهم ، وكانت من الذهب والمر واللبان ، وامتطوا رواحلهم ، وخرجوا من فارس ، وعبروا دجلة والفرات ، وانسابوا فى الصحراء على امتداد البحر الميت ليبلغوا أرض اليهود ، ويسألوا عن المولود الذى بزغ نجمه فى المشرق .

بلغ الرجال الثلاثة صهيون ، وانطلقوا يتلفتون ، إنهم يرون القوافل غادية رائحة ، والعربات التى تجرها الثيران ذاهبة إلى الحقول أو خارجة منها ، فظلوا فى سيرهم حتى رأوا سوقا ، فهبطوا عن رواحلهم ، واندسوا بين الجماهير .

راحوا يتنسمون أخبار المولود الذى رأوا نجمه فى السماء ، فلم يهتدوا إليه ، واقترب أحدهم من عين من عيون هيرودس ، وقال له :

— بزغ فى المشرق نجم ملك اليهود الذى وعد الله أن يرسله سلاما ، فجئنا من بلادنا نبحث عنه ، ألا تدرى أين ولد ؟

— ماذا تريدون منه ؟

— جئنا نؤمن به ونصدقه .

— لم أسمع بهذا قبل الآن .

واستمر الرجال فى بحثهم وتنقيبهم ، وذهب رجل هيرودس إلى القصر ، وكان الملك فى قصره الجديد فى صهيون ، يفضى إليه بالنبأ العجيب ، فبعث هيرودس رجاله يحضرون له هؤلاء الذين جاءوا من فارس يوسوسون فى آذان الشعب ، أن ملكا جديدا قد ولد ، فيزعزعون ثقة الشعب فيه .

وخرج رجال الملك إلى السوق ، وجاءوا بالرجال الثلاثة ، فلما مثلوا أمام هيرودس الأكبر ، قال لهم :

— من أنتم ؟

— نحن أشراف قومنا ، شرفنا العلم والدين ، نقرأ النجوم ، ونعرف الغيب ، وما كان ملكنا يقضى أمرا قبل أن يرى رأينا فيه .

— وما الذى جاء بكم إلى أرضنا ؟

— هذا أوان نبى أظلنا زمانه ، فكنا نخرج كل ليلة نرصد النجوم ، نرقب بزوغ نجمه ، فلما بزغ شددنا الرحال إليه ، نصدقه ونؤمن به ، ونقدم إليه هدايانا .

— فما بال الذهب والمر واللبان قد اخترتموها من بين الأشياء كلها ؟

— تلك أمثاله ، لأن الذهب هو سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبى هو سيد أهل زمانه ، ولأن المر يجبر به الجرح والكسر ، وكذلك هذا النبى يشفى به الله كل سقيم ومريض ، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره ، كذلك هذا النبى يرفعه الله إلى السماء ، لا يرفع أحدا غيره .

— وما أدراكم أنه يظهر هنا فى أرضنا ؟

— إنه رسول إلى بنى إسرائيل ، إنه ملك اليهود .

انقبض هيرودس ، ولكنه أخفى عواطفه ، والتفت إلى من حوله وقال :

— على بالكهنة .

فجىء بهم ، فقال لهم :

— اسمعوا ما يقول هؤلاء ، ثم أنبئونى أين يولد هذا المولود .

أصغى الكهنة إلى الرجال الثلاثة ، ثم قالوا :

— يولد المسيح ، نبى بنى إسرائيل ، فى بيت لحم مدينة داود .

فتطير هيرودس ، وانفجر فى جوفه مرجل غضبه ، وتحركت عوامل الحقد فيه ، إنه طاغية لا يطيق أن يعترض سبيله إنسان ، ويا طالما قضى على أفراد أسرته حتى لا ينافسه فى ملكه منافس ، وإذا بهؤلاء الغرباء يقدمون من بلاد بعيدة ، ليخبروه أن وليدا قد جاء إلى الدنيا ليستل منه عرشه ، لو أنه يدرى أين هذا الوليد لقتله ، ولاستراح منه ، ولكنه لا يدرى أين هو ، فكظم غيظه ، وجعل يدارى ما به ، وقال متكلفا الرقة :

— اذهبوا ، فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك ، فإنى أرغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره .

وانطلق الرجال الثلاثة إلى بيت لحم ، ودلفوا إلى الطريق الأبيض الذى قامت على جانبيه أشجار الزيتون . اخترقوا الحدائق ، وهم يتلفتون لا يدرون أين يذهبون ، وراحوا يبحثون وينقبون ، ولكنهم لم يهتدوا إلى الطفل المبارك الذى تجشموا أهوال السفر ليقدموا إليه هداياهم ، وكنوز قلوبهم العامرة بالإيمان واليقين .

وأقبل الليل ، وبزغ فى السماء نجم ، إنه نجم ذلك النبى الموعود ، فتطلعوا إليه فإذا بالنجم يسير ، كأنما يهديهم سواء السبيل ، فساروا فى أثره ، وقلوبهم تخفق فى حنايا الضلوع .

وتلألأ النجم فوق نزل متواضع كأنما يسير إليه ، فقالوا فى فرح :

— إنه هنا ، فى هذه الدار .

وتقدموا خافقة قلوبهم ، يشعرون برهبة ما أحسوا بها قبل الآن ، فطالما تقدموا إلى الملوك ثابتى الجنان ، لا يسرى فى أجوافهم خوف ، وطرقوا الباب هونا ، فإذا بالباب يفتح وإذا بصوت يدعوهم للدخول ، فتقدموا خاشعين ، وفى ضوء المصباح الخافت تبينوا المكان ، فإذا مريم جالسة وعلى ركبتيها ابنها الصغير ، تحيط به هالة من نور ، ووقف إلى جوارها يوسف ، الرجل الذى فتح لهم الباب ، ودعاهم إلى الدخول .

دنا الرجال من الطفل الصغير ، فنزل بقلوبهم أمن ، وانداحت فى أجوافهم

بهجة ، لأن رحلتهم لم تذهب هباء ، وقاموا إلى مريم يقدمون إليها ما يحملون من الذهب والمر واللبان ، وقالوا لها :

— خرجنا إلى هنـــا حاجين ، وجئنا من فارس نعلن تصديقنا برسول رب العالمين .

ونام الرجال الثلاثة فرحين ، وعزموا على أن يرجعوا إلى هيرودس ويخبروه أنهم عثروا على المسيح ، ليؤمن به ويصدقه ، وما دار بخلدهم أن هيرودس وأهل بيته هم أعداؤه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا .

وأغرقوا فى نومهم ، فرأوا من يقول لهم :

— لا ترجعوا إليه ، ولا تعلموه بمكانه ، فإنما أراد بذلك أن يقتله .

وانصرف الرجال إلى بلادهم ، وقد أخذوا طريقا غير طريق هيرودس ، الذى يبغى القضاء على رسول الله إلى بنى إسرائيل .

obeikandl.com

« فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا ، ياأخت هارون ما كان أبوك امرء سوء ، وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » ؟

(قرآن كريم)

بقيت مريم فى المنزل لا تستطيع مغادرته ، فما كان لامرأة وضعت ما فى بطنها أن تترك البيت قبل أن يمضى على ذلك أربعون يوما حسب شريعة موسى ، وتمت الأيام، فخرج يوسف ومريم والوليد ، وانطلقوا فى رحلتهم الخالدة ، إلى الناصرة إذا نزلوا بئرا أطلق عليه من بعد بئر مريم ، وإذا استظلوا بشجرة حجت إليها الأجيال ، وإذا مدوا أبصارهم إلى مشهد من مشاهد الكون ، هرع الفنانون والرسامون والكتاب على مر العصور يستوحون الطريق الذى يجتازونه الآن ، ليمدهم بالمشاعر والانفعالات التى تيسر لهم إبراز لوحاتهم ، أو شحن كتبهم بالإحساسات النابضة .

كانت رحلة هينة ، لم يستشعروا فيها آلام النفس التى كانت تضنيهم ، فقد أقلع الخوف بعد أن صدق الله وعده ، ووهب لمريم ابنها فى بيت لحم اليهودية ، إن الله حارسهم ومؤيدهم ومظهرهم ، فلن تفت فى أعضادهم الشدائد ، ولن تعرف قلوبهم القلق وإن حاقت بهم الكروب ، سيمتثلون أوامر الله صابرين ، حتى يتم نوره ولو كره الكافرون .

وانقضت أيام ، وانطوى الطريق ، ولاحت تلال الناصرة تكللها أشجار السرو والزيتون ، وانساب الركب الصغير إلى البيوت الناصعة . وظهر يوسف ومريم والطفل الصغير فى شوارع الناصرة ، فتطلع الناس إليهم فى احتقار ، وأشاحوا عنهم بالوجوه زراية ، فلم تطرق مريم عارا ، بل ظلت مرفوعة الرأس ، كانت على يقين من أنها تضم إلى صدرها أشرف مخلوق .

وأمام باب الدار هبطت عن ظهر الحمار ، خف إليها بعض أقاربها يقرعونها أمام الناس ، مظهرين غضبهم مما فعلته ، مبرئين أنفسهم من إثمها الذى ارتكبته ؛ ولحقتها أمها ، فانطلقت إليها ، الحزى يكللها ، والحزن ينهش قلبها ، والنار تلسع روحها ، ودموع العار تجرى على خديها .

نظر القوم إلى مريم ، مريم التى سميت باسم أخت هارون التقية الصالحة ، تيمنا بها ، فإذا بها تأتى إليهم وعلى يديها ابنها الناطق بفاحشتها ، وقالوا لها :

— يامريم ، لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا .

طأطأت حنة رأسها فى ذلة ، وتمنت لو أن الأرض تنشق وتبلعها ، فوقع ذلك المشهد شديدا على نفسها ؛ عاشت تقية نقية ، ومادار بخلدها أن الزمن يدخرها ليوم كيومها هـذا الذى تمنت لو لم تشرق شمسه ، أما مريم فكانت هادئة ، لم تنبس بكلمة ، بل أشارت إليه أن كلموه ، فقالوا فى غضب :

— إن سخريتها بنا أفجر من فاحشتها ، كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

وإذا بالصبى يتكلم ، فتنعقد ألسنة الجميع دهشا :

— إنى عبد الله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا .

انجلت عن صدر امرأة عمران الهموم ، وانداحت فيه نشوة هزتها ، فانهمرت دموع الفرح من مآقيها .

ودخلت مريم دار أهلها ، فإذا أشرقت الشمس جلست أمام الباب تداعب ابنها ، وتمد بصرها إلى ماحولها ، فتحس انشراحا ، فالأرض ازينت وارتدت ثوبها الأخضر القشيب ، فكانت كأنما ردت إلى شبابها ، والتلال توجت بأشجار التين والزيتون فلاحت فى النور زاهية ، وانطلقت الأغنام ترعى العشب هادئة بريئة ، براءة ذلك الطفل الراقد فى حجرها يهز يديه ورجليه فى مرح .

خيل لمريم أن الدنيا كلها راكعة تحت قدميها ، تتنافس فى أن تدخل البهجة على قلب ابنها : النسيم يهب رخاء ينعش الأفئدة ، والشمس ترسل أشعتها لطيفة

تبعث فى النفس الأمل ، والطيور ترفرف فوقها فى فرح ، والأغنام تفد إليها تتمسح بها ، فتضع يده على رءوسها ، فتشرق بسمة على ثغره ، إن قلبه الصغير ليهفو إلى وداعة الغنم .

كانت الطمأنينة تلف كل شىء فى الناصرة ، فقرت عين مريم ، وسكن الهدوء قلبها ، ولكن ما كانت هذه السكينة لتدوم طويلا ، فما كان الله يدع من يعده للرسالة للراحة والهدوء والدعة ، إن الله يحمله الشاق ، ليعوده الاحتمال والصبر ، ويقسو عليه بالحرمان ، ليغرس فى نفسه العطف ، ويرسله يضرب فى الأرض ، ليزيد فى كنوز قلبه الغالية .

ومن هناك من صهيون جاء الفزع . كان هيرودس يعيش فى قصره الجديد بين أشباح الماضى ، يرتجف فرقا على عرشه ، فهو يعلم أنه ارتقى العرش اغتصابا . كان حفيد خادم فى هيكل أشقلون ، واغتصب الملك بمعاونة قياصرة الرومان المغامرين ، وجاءه اليهود وأخبروه أنهم لا يقبلونه ملكا عليهم ، فما كانوا يملكون عليهم إلا رجلا من بنى إسرائيل ، فأزهق أرواحهم ، حتى لا ترتفع اعتراضاتهم الوقحة .

كان الخوف من أن يهوى عن عرشه يقلقه ، ويثير ضراوته ، فإذا طاف به طائف من شك برزت وحشيته ، أمر بخنق زوجته الأميرة مريمى ، لأنه ظن أنها تعمل على أن تعتلى عرشه ، ولم يشفع لها عنده أنها المرأة الوحيدة التى خفق قلبه بحبها ، وسفك دماء الفريسيين لأنهم تنبئوا بزوال ملكه ، وانقضاء سلطانه . وقتل بعض أولاده ، ليقضى على وساوسه التى نبتت فى صدره ، فقد حامت حولهم شكوكه ، وظن أنهم يتآمرون على ملكه .

كان همه الأوحد أن يوطد سلطانه ، ولما كان على يقين أن الشعب يبغضه ولا يؤيده ، استمد التأييد من القياصرة الرومان ؛ خضع لهم ، ورفع إليهم الضرائب ، وثبت النسر الرومانى على المعبد ، وعلى أبواب المدن ، وأحاط نفسه بجنود مرتزقة ، لا هدف لهم إلا سلب ماتصل إليه أيديهم .

كان حاكما قاسيا فظا غليظ القلب ، غارقا فى الآثام ، يلغ فى الدماء ، فطالما ذبح كهنة ونبلاء ، وطالما انتزع الاعترافات ممن يظنهم أعداء بالتنكيل والتعذيب ، وطالما سلب لينفق على آثامه ، حتى سلب قبر داود ، وراح يعب

كأس اللذات،وعرف عنه الشذوذ . وضاق الناس به ، فذهب وفد من اليهود إلى رومايشكون سوء إدارة ذلك الطاغية ، فقالوا إن الذين أصابتهم نقمته أسعد حالا ممن يعيشون فى كابوس حكمه ، ولكن أوغسطس قيصر صم أذنه ، فهيرودس خادم أمين لروما ، يطبق قوانينها ، ويتبع سياستها ، ويعلم أبناءه إياها ليرضعهم حبها ، ويغرس فيهم الخضوع لها .

وفد المجوس إليه وأنبئوه أنهم جاءوا من بلادهم لما برغ نجم ملك اليهود ، فأنشب القلق أظافره فى جوفه ، وانتظر على كره منه أوبتهم ليخبروه بمكانه ، فيقضى عليه . ويستريح من أوهامه ، وطال انتظاره ، ولم يرجع إليه الرجال . فعيل صبره ، وكشر الوحش القابع فى أغواره عن أنيابه ، فأمر — كما أمر فرعون موسى من قبله — أن يقتل جميع الرضع فى بيت لحم ، حتى يقضى على ذلك المولود الذى تطير به ، وأقلقه وأنزل بصدره المخاوف والهموم .

كان ذلك فى القصر الهائل الشامخ على جبال صهيون ، أما فى الناصرة فقد عسعس الليل ، وأغلق يوسف النجار حانوته ، وعاد إلى البيت ، إنه يقاسى شظف العيش ، كان الفلاحون والفقراء يعهدون إليه بأعمال النجارة ، وما كان معهم مايجزونه به . وتناول طعامه ، وراح يقرأ فى التوراة ، حتى انقضى من الليل ثلثه ، ودخل إلى فراشه ونام ، ورأى فى نومه من يهتف به :

— يا يوسف ، قم واحمل الطفل وأمه واخرج إلى مصر ، فهيرودس يبحث عنه ليقتله ، فهب يوسف من نومه ، وقلبه يدق فى شدة ، وأخذ المصباح الخافت ، وانطلق إلى حيث كانت مريم ، فألفاها نائمة تضم إليها ابنها فى حنان . فناداها :

— مريم ، مريم .

ففتحت عينيها السوداوين الواسعتين ، ونظرت فوجدت يوسف أمامها ، وتبينت على الضوء الخافت قلقا فى وجهه ، فقالت :

— ماذا حدث ؟

— انهضى ، إن الله يأمرنا أن نخرج إلى مصر .

وقامت مريم تعد عدتها لسفر طويل ، وتجهز يوسف بالزاد والماء ، ولما تم كل شىء حملت مريم ابنها ، وركبت حمار يوسف ، وسروا فى سكون

الليل فى طرقات الناصرة الضيقة ، وأخذوا يطوون الطريق المتعرج الذى انساب بين التلال كثعبان .

وخرج جنود هيرودس إلى بيت لحم ، وانقضوا على الرضع انقضاض الكواسر ، ينزعونهم من الصدور الخافقة بالحنان ، ليذبحوهم ذبح الأنعام ، بين النواح والعويل والصراخ ، وسجا الليل وقد تجللت بيت لحم بسواد الحداد ، وانبعث من دورها النحيب والنشيج ، فما تركت سيوف هيرودس بيتا إلا طعنته فى سويداء الفؤاد .

وأشرقت الشمس والمدينة غارقة فى الدماء ، والركب الصغير الهارب من وجه الطغيان ينطلق رويدا رويدا فى جوف الصحراء . ونظر يوسف خلفه ، ثم أخذ بزمام حماره ، وتقدم يخوض محيط الرمال فى ثقة ، فقد كان على يقين أن الله يرعاهم ، وأنه لن يضيعهم .

obeikandl.com

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » (قرآن كريم)

ارتفعت الشمس ، ومرت الساعات ولا شيء غير الشمس والرمال والسماء ، لا حركة ولا حس ، كأنما فارقت المكان الحياة ، حتى الرياح خمدت ، ولولا الحرارة المنبعثة من الرمال ، لخيل للركب الصغير المنطلق فى سبيل الله أن كل شيء قد مات .

وظلوا فى سيرهم ، ليلهم ونهارهم ، حتى بلغوا طريق القوافل ، فراحت مشاهد التوراة تتمثل حية أمام أبصارهم ، ففى هذا الطريق بيع يوسف بدراهم معدودة ، وفى نفس الطريق سرى يعقوب بأهله ليدخلوا مصر بسلام ، بعد أن صار يوسف على خزائن الأرض ، وفى هـذا الطريق ذهب موسى هاربا من وجه فرعون بعد أن قتل المصرى .

كانت تربطهم بهذا الطريق ذكريات وذكريات ، ذكريات حلوة مشرقة بالأمل ، وذكريات مرة تغلفها الأحزان . سـاروا يجترون حوادث الأيام ! وما دار بخلدهم أن هذه الرحلة التى يكابدون مشاقها إنما خلدت على الأيام .

واستمروا فى سيرهم بين شروق وغروب حتى أشرفوا على طور سيناء ، فخفقت القلوب ورفرفت كجناح حمامة ، فقد تجلى الله لموسى على هذا الجبل ، وكتب فى الألواح وصاياه ، وذهبوا إلى الوادى المقدس طوى ، فخلع يوسف نعليه ، ووضعت مريم ابنها على الأرض ، فشخص ببصره إلى السماء ، وخرت هى ساجدة ، كانوا فى تلك البقعة الطاهرة يناجون الله .

ودخلوا مصر آمنين ، وتركوا الصحراء ، وانطلقوا فى الحقول ، وجاء الغروب ، فراحت الشمس تغوص فى الأفق البعيد ، فبدت جداول الماء فى لون

العقيق ، ثم انقلب لونها إلى أصفر فضى ، وسرعان ما انقلب إلى لجين ، وبدا النخيل كأشباح سود سامقة فى ظلال السماء ، واختفت الصقور والحدأ والغربان ، وخفتت زقزقة العصافير .

مضى النهار وبقى الشفق ، فما نشر الليل أجنحته على مصر بعد ، وخشع الكون وهدأ ، وصار كل شيء لا ظل له ، وراحت النجوم تبزغ واحدة إثر أخرى فى رقعة السماء ، وأشرف القمر على الفضاء ، فأنار السبل ، وغلف الدنيا بسحره ، وانعكس ضوءه الفضى على صفحة النيل فبدا كمرآة .

رنا يوسف ومريم إلى النيل رنوة صداقة ، فقد حمل موسى لما ألقته أمه فيه إلى قصر فرعون ، ليشب فى كنفه إمعانا فى السخرية منه ، وشب موسى وكبر وأرسله الله إلى فرعون ليرسل معه بنى إسرائيل ، وظل صابرا حتى أخرج قومه من العبودية والذل المهين .

انفعل يوسف لتلك الذكريات ، وانفعلت لها مريم ، وكان لها فى أنفسهما وقع السحر ، قوت عزائمهما ، وثبتت إيمانهما ، وراح عيسى ينظر إلى ما حوله بعينيه الصافيتين ، وأشرق على فمه الصغير ابتسامة رضا ، فضمته أمه فى هيام ووجد .

ودلفوا إلى منف ، فإذا العجلات تعج فى الطرقات ، وإذا الجنود فى غدو ورواح ، وإذا الناس فى إقبال وإدبار ، وإذا الأعمدة فارهة عالية ، وإذا المعابد هائلة شاهقة ، وإذا التماثيل قدت من الصوان ، وإذا الجلبة والضوضاء ، فأزعجهم ذلك الصخب المنبعث من أرجائها ، بعد الهدوء الشامل المسيطر على الحقول والصحراء . وأدركهم النصب ، فهبطوا بها يقضون ليلة .

ثم ولد النهار ، فخرجوا إلى منف يجوسون خلالها ، فألفوا المتاجر منتشرة على جوانبها ، مكدسة بالبضائع والحلى وأدوات الزينة ، والعجلات الفاخرة تنطلق فى دروبها . إنها مدينة غنية ، ينعم بالعيش فيها السادة الفارغون أصحاب الإقطاعات ، أما الفقراء فيحيون فيها حياة السائمة . فرأوا أن يغادروها إلى الخلاء حيث الدعة والصفاء .

ذهبوا شمالا ، ونزلوا عين شمس ، وما انتظمت أنفاسهم بعد الرحلة الطويلة القاسية ، حتى أخذ يوسف يبحث عن عمل يقتات منه ، إنه نجار ، فامتهن

النجارة ، ووفقت مريم إلى العمل فى حقل من الحقول ، فما أشرف أن يأكل المرء من كسب يده .

كانت مريم تخرج مع الشمس ، وتعود مع الغروب ، وفى وقت الظهيرة تستظل بشجرة جميز عجوز ، وتتناول طعامها ، ثم تستأنف عملها ، المهد فى منكبها فما كانت تأمن على ابنها أحدا ، والوعاء الذى تجعل فيه السنبل فى منكبها الآخر ، فإذا جن الليل ذهبت تصلى لله وتدعوه ، ثم تنام فى المكان الوضيع الذى أعده صاحب الأرض لمبيت عماله .

ومرت شهور وأعوام ، وعيسى فى مصر ، يرقب بزوغ الشمس ومغيبها ، وجريان النيل وزيادته ونقصانه ، وبذر الحب وترقب الثمار من الرب ، ويصغى إلى أمه تقرأ له التوراة ، وتعلمه الدعاء والصلاة ، فكان فى هجعة الليل يرنو إلى النجوم المتلألئة فى سماء مصر الزرقاء ، الصافية صفاء القلوب المؤمنة ، ثم يأخذ فى مناجاة ربه ، فيحس على صغره ، كأنما ملىء قلبه نورا وحكمة .

وتعاقب الليل والنهار ، ومرت الشهور إثر الشهور ، وجرت الفصول خلف الفصول ، وكرت السنوات ، وترادفت الفيضانات ، وزاد عمر الزمن سنوات ، وعيسى فى مصر يرى قسوة الحكام ، وذلك الثراء الذى يخرج من الطين دون عناء ، ليبدد فى الهواء .

وفى ليلة من الليالى دخل على أمه ، فألفى الوجوم يخيم على المكان ، فنظر إليها فعرف فى وجهها الحزن ، فدنا منها وقال :

— ماذا حدث يا أماه ؟

— سرقت خزانة صاحب الدار .

— يا أم أتحبين أن أدله على ماله ؟

— نعم يا بنى .

— قولى له يجمع لى من فى الدار .

ذهبت مريم إلى الرجل ، والتمست منه أن يجمع كل النازلين بداره ، فلما اجتمعوا ، عمد عيسى إلى رجلين منهم ، أحدهما أعمى والآخر مقعد ، فحمل المقعد على عاتق الأعمى ، ثم قال له :

— قم به .

فقال الأعمى فى مسكنة :

— أنا أضعف من ذلك

فقال عيسى :

— فكيف قويت على ذلك البارحة ؟

فلما سمعوه يقول ذلك ، بعثوا الأعمى حتى قام به ، فلما استقل قائما بلغ المقعد كوة الخزانة .

قال عيسى للرجل :

— هكذا احتالا لمالك البارحة ، فقد استعان الأعمى بقوته ، والمقعد بعينيه

فلم يستطع الرجلان نكرانا ، فقالا :

— صدق .

وردا المال إلى الرجل ، فجاء إلى مريم وقال :

— يا مريم ، خذى نصفه .

— إنى لم أخلق لذلك .

— فأعطيه ابنك .

— هو أعظم منى شأنا .

obeikandl.com

٦

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد ،
أو تسمع لهم ركزا » . (قرآن كريم)

تحت ظلال نخيل أريحا قام قصر هائل . . إنه قصر هيرودس الذى شيده لمسراته ، يجتمع فيه بجواريه وبمن يصطفى من زوجاته اللائى أكمل عدتهن عشرا ، كانت الراقصات العاريات يتثنين فى أبهائه ، وأصوات المغنيات تتردد فى جنباته ، وضحكات المجون تعلو على صخب الندماء والمخمورين .

ولف القصر — على غير عادة — سكون ، وخيم عليه هدوء شامل ، وراح الجنود والخدم يسعون هونا فى طرقاته ، فالملك الطاغية طريح الفراش ، يشكو ما ألم به من أسقام . كان مسجى فى سريره الفاخر ، يغوص فى الديباج ، ولكن القروح كانت تأكل جسمه ، والدود يسرى فيه .

اصفر لونه ، وذبل وغارت عيناه ، ولكن لم تختف قسوته وضراوته ، فإذا ضاق بمرضه حطم كل ما تصل إليه يداه .

وذاع فى البلاد خبر مرضه ، ولما كان الشعب يبغضه من كل قلبه ، استراح الناس إلى هذا النبأ ، وباتوا يترقبون الخلاص القريب ، إن هى إلا أيام ويموت الطاغية ، ويتنفس الشعب بعد حكم قاس دام أطول السنين .

وشاع فى أورشليم أن هيرودس الكبير قد مات ، فعم الفرح وأمر المعلمان اليهوديان يوداس ومتياس تلاميذهما أن يهبطا النسر الرومانى الذهبى الذى ثبته على باب الهيكل الكبير ، ليتخلصوا من ذلك العار الذى دمغهم ، وجثم على صدورهم كالكابوس بغيض .

ونكس النسر الذهبى ، وارتفعت أصوات السرور ، ولكن لم تدم هذه البهجة طويلا ، فقد كان فى عمر الشقى بقية ، وبلغته وهو فى مرضه أنباء هذه الثورة ،

فبعث أقسى جنوده ليؤدبوا الثائرين ، وفى طرقات أورشليم دار القتال ، فانهزم الثوار ، ورفع النسر ثانية على باب الهيكل الكبير ، وجىء بأربعين من تلاميذ يوداس ومتياس ، وأراد هيرودس الراقد فى فراشه أن يبرهن على قدرته وجبروته ، فأمر بحرقهم أجمعين .

واشتدت وطأة المرض عليه ، وفكر فى أمره ، فساءه أنه سيموت ولن يذرف عليه أحد دمعة ، وحركت هذه الفكرة الوحش الكامن فى نفسه ، فأرسل إلى رؤساء القوم ومشايخ الأسرات أن يوافوه إلى قصره فى أريحا ، وأمر أن يذهبوا إلى ملعب الخيل ، ليرفهوا عن أنفسهم ساعة ثم يأتوا إليه ، وانطلق سادات القوم إلى هناك ، وما دلفوا إلى المكان حتى أغلقت دونهم الأبواب .

وأرسل إلى أخته سالومى ، وأسر إليها أن تقتل هؤلاء الرجال يوم موته ، فما ينبغى أن يكون ذلك اليوم يوم فرح وابتهاج ، بل ينبغى أن يكون يوم بكاء ونحيب ، وأن يسيطر على البلاد حزن عام ، ولن يكون ذلك إلا إذا قتل أشراف القوم وساداتهم .

أضناه المرض ، وضاق بالقروح المنبثقة فى جسمه ، فهاجت قرحة نفسه ، وفكر فى أن يتخلص مما يقاسيه من كرب وعذاب ، فهم بالانتحار سأما من الجحيم الذى يحيا فيه ، فالقمل يسرى فى بدنه . والنار تسرى فى روحه ، فتعذبه عذابا ما أقساه ، ولكن أخفقت محاولته ، فلا زال له نصيب من الضنى فى دنياه .

وفى سكرات الموت لم يفارقه طبعه ؛ خيل إليه أن ابنه انتيباس يتعجل موته ، ليتربع فى الحكم بعده ، فأمر بقتله ، ولكن لم يجرؤ أحد على أن ينفذ أمره ، فما كان هناك من يصغى إلى رجل يلفظ آخر أنفاسه ، ويخرج مع تلك الأنفاس أمره بهلاك من سيئول إليه السلطان !

واستسلم الطاغية للموت ، وأشباح ضحاياه تطوف بفراشه ، مستنزلة عليه لعنة السماء ، وانسل الروح الخبيث من الجسد الذى لم يعرف إلا الخطايا ، ولم يسع إلا إلى الشر والفساد . وماذاع نبأ هلاكه ، حتى اشتعلت الثورات ، فالشعب يريد التخلص من حكم أسرة هيرودس الطاغية ، فما يريد أن يحكمه أنتيباس

ولا أرخيلوس ، ولكن أرخيلوس اعتلى العرش ، ولم ينفذ وصية أبيه فى أشراف القوم ، لاحبا فيهم ، بل خوفا من الفتنة التى أطلت بخطمها .

وطالب الثوار أرخيلوس بمعاقبة نصحاء هيرودس ومستشاريه ، فلم يفعل . فأعلنت أورشليم العصيان ، وشاء أرخيلوس أن يعلم رعاياها ، أنه ليس أقل ضراوة من أبيه ، فأمر بذبح ثلاثمائة منهم فى الهيكل .

ثار الأردن ، وثارت اليهودية ، ودعا يهوذا الجليلى إلى حرب روما للتخلص من نيرها ، ففى ظلها يستبد بهم أمثال هيرودس وأرخيلوس ، فاجتمع الثوار وانطلقوا إلى أورشليم واحتلوها ، وحوصر الفيلق الرومانى الذى كان يحميها .

ونادى قائد من القواد بنفسه حاكما على أريحا ، وافتتح عهده بأن دمر قصر هيرودس وأشعل فيه النار .

ورفع علم الثورة فى جميع المدن اليهودية ، وخف الناس إلى يهوذا الجليلى يؤيدونه فى ثورته ، ويشدون أزره فى حربه ضد روما .

وغضب أوغسطس فى روما ، فأمر حاكم سورية أن يؤدب العصاة ، فخرجت الجنود العربية والفرسان الجرمان الذين كانوا تحت إمرة القائد الرومانى ، ودخلوا فلسطين ، يقتلون الرجال ، ويتركون المدن طعمة للنيران ، ففر الثوار منهم إلى التلال ، فمن لم يمت بالسيف مات بالعطش والجوع .

وسيطر الرومان على أورشليم ، ورفع الحصار عن حاميتها ، ونزل الكرب بالمدن اليهودية ، فاجتمع الفلسطينيون ومشايخ اليهود ، وبعثوا سفراء إلى أوغسطس يلتمسون منه أن ينصب عليهم ملكا يعيد الهدوء والسلام .

أصغى أوغسطس إلى الوفد القادم إلى روما ، يلتمس صيانة الأرواح ، فألفى الفرصة سانحة ليقسم فلسطين إلى ولايات ، تشغل بحزازاتها الداخلية عن النسر الرومانى الجاثم عليها ، يكاد يكتم منها الأنفاس .

قسم فلسطين إلى ولايات ، ونصب أبناء هيرودس الخمسة حكاما على تلك الولايات ، فهيرودس عبد مخلص لروما ، غذى أبناءه بحبها ، وسيتنافسون فى إرضاء النسر الرومانى ، وحمل الضرائب ، وخيرات البلاد إليه . واحتفظ بأرض اليهودية ، وجعلها ولاية رومانية ، يحكمها حاكم رومانى ، يتلقى الأوامر

من روما ، فما كان ليترك أورشليم ، القلب المقدس ، فى يد حاكم قرم من حكام الولايات .

وهدأت العواصف التى اجتاحت فلسطين ، وعاد الصناع إلى أعمالهم ، والتجار إلى تجاراتهم ، والتلاميذ إلى مدارسهم ، ولكن لم يرض المؤمنون الذين ملئت قلوبهم حقدا على الحكم الرومانى ، والقوانين الرومانية ، كانوا يرون طريق الخلاص فى العودة إلى شريعة موسى ، فلن يعرف الناس راحة القلب ، وهدوء النفس ، ولن يقوم العدل ، وتسود المحبة مكان التشاحن والبغضاء ، وتنقشع المظالم ، وتمحى الفوارق ، ويتساوى الجميع ، ويعطف الأغنياء على الفقراء ، ويحب الفقراء الأغنياء ، إلا فى ظل حكومة تستمد قوتها من السماء .

مات هيرودس فى قصره فى أريحا ، وعيسى فى مصر ، يشب غريبا ، بعيدا عن أهله .

وجاء الليل ، وذهب يوسف لينام ، فرأى فى نومه من يقول له :

— قم وخذ الصبى وأمه ، واذهب إلى أرض إسرائيل ، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى .

وراح يوسف يتجهز للعودة ، حتى إذا تم كل شىء ، انطلق الركب المبارك فى الطريق الذى خرج منه موسى وقومه ، إن موسى خرج خائفا يترقب ، يخشى أن يلحق به فرعون ، أما يوسف وعيسى ومريم فينطلقون آمنين ، تداعبهم الآمال إذ هم مقبلون على قومهم ، ينتظرون وعد الله ومكتوبه .

* * *

خلفوا مصر وراءهم ووطئت أقدامهم أرض فلسطين ، وانطلقوا لا يرون إلا الصحراء المترامية ، فى الطريق الموصل إلى بيت لحم ، فقد كان يوسف يبغى أن ينزل بها ، ففيها ذكريات حبيبة إلى نفسه ، وهى قريبة من أورشليم ، لا يفصل بينهما إلا ساعات قليلة على ظهر حمار ، ولكنه علم وهو فى الطريق ، أن أرخيلاوس خلف هيرودس ، ولما كان يعلم أنه سر أبيه ، انطلق إلى الجليل ، ثم إلى الناصرة ، الوطن الأصلى ومنزل الجدود .

هبطوا الناصرة ، يحيون فيها حياة بسيطة . فى الصباح تذهب مريم إلى البئر تملأ جرتها ، ثم تعود لتعتنى بشئون بيتها ، ويذهب يوسف إلى حانوته ، يعمل

فى النجارة ، وعيسى معه يحمل الكراسى والصناديق إلى أصحابها . فما كان يذهب إلى المدرسة ، بل كان يعمل ليحصل قوته .

وفى ذات يوم أقبل أحد الفريسيين إلى حانوت يوسف ، فرنا إليه يوسف فى قلق . فالفريسيون هم رجال الدين الملتزمتون الذين يراعون تطبيق حرفية شريعة موسى . أوصى موسى بالطهارة فراحوا يفتشون على الإسرائيليين ، ليتحققوا أنهم يسيرون على الناموس ، كانوا يأمرون بغسل كل شىء ، ولو كان الماء يغسل لأمروا بغسله .

تناول الفريسى الأوعية ، وجعل يعاينها ، فلما اطمأن إلى نظافتها ، راح يجوس خلال الحانوت ، ويمرر إصبعه على الحيطان ، ويوسف يرنو إليه ، حتى إذا انتهى الرجل وخرج راضيا تهلل وجه يوسف انشراحا ، أما عيسى فكان يتطلع إلى ما يجرى أمامه فى امتعاض ، فما كان يطمئن إلى مثل ذلك الرياء .

وجاء يوم السبت فخرجوا إلى المعبد ، يوسف وعيسى إلى حيث يجلس الرجال ، ومريم إلى المكان المعد للنساء . وجاء خادم المعبد بالتوراة ، وقام رجل ووقف على الشرف ، وراح يقرأ سفر التكوين ، فى صوت عذب خشعت له القلوب.

وقضيت الصلاة ، واجتمع اليهود حلقات يتناقشون ، فضاق عيسى بنقاشهم ، وانسل من بينهم ، وانساب فى طرقات الناصرة ، وراح يرتقى تلا ، وجلس يرنو إلى السماء .

كان يحب الوحدة ، ويحس راحة إذا انفرد بنفسه ورنا إلى السماء . وطالما قالت له أمه إن الله هناك ، فكان ينظر فى شرود ، فيمتلىء غبطة ، فروحه تتصل بملكوت الخالق المتعال .

وهب النسيم من البحر رقيقا ، فداعب أوراق التين والزيتون ، فبلغ أذنيه حفيف الشجر ، فخيل إليه أن الكون يفضى إليه بأسراره .

وانحدرت الشمس ، وراحت تختفى وراء التلال ، وهو ينظر . يخيل لمن يراه أنه وسنان ، ولكنه هائم فى الفضاء ، يفتح قلبه للمعرفة ، والحكمة الهابطة عليه .

٧

«وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ، وبرا بوالديه ، ولم يكن جبارا عصيا » . (قرآن كريم)

سجا الليل ، وخيم على أورشليم ظلام ثقيل ، وتلألأت النجوم فى السماء ، ولكن نورها كان خافتا لايقوى على مصارعة أمواج الظلام ؛ وقامت التلال المحيطة بالمدينة موحشة ، وهجع الكون ، وسيطر سكون يبعث الرهبة فى القلوب ، وهبت النسائم خفيفة ، فكأنما كانت أنفاسه يرددها فى انتظام .

وخرج يحيى يسعى فى الطرقات المتعرجة ، وسار وحده فى حلكة الليل ، يتوقى الأخاديد الموحشة ، وينطلق إلى جوار التلال الجرد الشامخة كأنها المردة والشياطين ، فلا يستشعر رهبة ، بل يرى فى هذه الوحشة جمالا تنفعل له نفسه ، وتشيع فيها طمأنينة عجيبة . ما كان يرتجف فرقا من الظلام ، كما يرتجف أترابه من الصبيان ، بل كان يسرى فيه وهو مشغول عنه بالنور المنبثق من روحه ، يبدد له ظلمات الحياة .

وبلغ الهيكل الكبير ، فإذا الهدوء شامل ، وإذا الظلام سائد فى أروقة الهيكل ، وإذا الرهبان يغدون ويروحون ، وإذا العباد راكعون فى خشوع . ومد يحيى بصره ، فألفى أباه زكريا قائما يصلى فى المحراب ، فوقف يرقبه متفتح الروح ، فمشاهدة العباد وصلواتهم تنزل على قلبه بردا وسلاما .

وظل يحيى فى مكانه ، يردد فى حرارة صلاته ، وانتهى زكريا من ابتهالاته ، وتأهب للعودة إلى داره ، فألفى ابنه شاخصا إلى السماء وفى عينيه دموع ، فانشرح صدره ، وتريث يرنو إليه فى وجد ، ثم ذهب إليه ولف ذراعه حوله ، وسارا فى ردهات الهيكل حتى خرجا إلى الطريق .

وما لاح الصباح حتى خرج يحيى يقلب وجهه فى السماء ، ويمد بصره إلى

ملك الله ، فيحس رهبة وجلالا ، ويخشع قلبه ، ويعمل فكره . كان يرى الله فى كل ما تقع عليه عيناه . شب فى بيت النبوة ، فرأى أباه فى محرابه يعبد الله ويقدس له ، فعرفه وصار يهابه ويخشاه .

وانطلق وهو مشغول فى طرقات بيت المقدس المغبرة ، فلمحه أترابه من الصبيان ، فهرعوا إليه وقالوا له :

— يا يحيى ، اذهب بنا نلعب .

فقال لهم وهو ذاهب فى طريقه :

— ما للعب خلقت .

ثم دلف إلى الهيكل الكبير ، فرأى المجتهدين من الأحبار والرهبان ، وعليهم مدارع الشعر ، وبرانس الصوف ، وهم يعبدون الله فى خشوع ، فتفتحت نفسه ، وهفت روحه إليهم ، ووقف ينظر وقد شاعت البهجة فيه ، وسكنت الطمأنينة قلبه ، وأحس هدوءا عجيبا .

وبقى فى الهيكل هانئا ، تهيم روحه لتتصل بالله ، ثم قام وخرج إلى طرقات أورشليم ، وسار شارد اللب ، يقلب الفكرة التى احتلت رأسه . وعاد إلى الدار ، فذهب إلى أمه وقال لها :

— يا أماه ، انسجى لى مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف ، حتى آتى إلى الهيكل ، وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان .

فنظرت إليه أمه وقالت :

— حتى يأتى نبى الله زكريا ، فأؤامره فى ذلك .

وجعل يحيى ينتظر مجىء أبيه . وتعلقت روحه بالعبادة ، فعزم أن يكرس حياته لله ، يعبده فى قنوت . إن أصوات المصلين تمس أذنيه عذبة رقيقة ، وإن صدى صلواته فى نفسه يشرح صدره ، ويسكب فى قلبه نورا طاهرا لألاء ، يرى على ضيائه جمال ما صوره المبدع الخالق من بدائع ، تنزل البهجة بأفئدة المؤمنين .

وسمع وقع أقدام ، فأرهف حواسه . ودخل زكريا وقدمسه الكبر ، فنظر إلى أمه ، كأنما يوحى إليها أن تكلمه ، فقالت اليصابات :

— إن يحيى قد طلب منى أن أنسج له مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف .

فالتفت زكريا إلى ابنه وقال :

— يا بنى ، ما يدعوك إلى هذا ، وإنما أنت صغير ؟

فنظر الصبى إلى أبيه بعينين يشع منهما بريق الذكاء وقال :

— يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت .

نطق الصبى بالحكمة ؛ إنه يخشى أن يموت دون أن يأخذ من دنياه لأخراه ؛ إنه يريد أن يدخر ليوم شديد ، لا ينفع فيه إلا ما قدمت يداه ؛ إلى يوم يجد ما عمله من خير محضرا . فانشرح قلب زكريا ، والتفت إلى زوجه ، وقال :

— انسجى له مدرعة من الشعر ، وبرنسا من الصوف .

ووهب يحيى نفسه للمعبد ، يصلى فيه ولا يفارقه ، فتفتقت الدنيا أمام عينيه ، وكشفت له عن أسرارها . كان يصغى إلى الكتبة والفريسيين العاكفين على العبادة ، ولكن الحكمة التى يستنبطها من خشوع الليل ، وصخب النهار ، وزئير الرياح ، وهبوب النسيم ، أعظم مما يلتقطه من المعلمين الرافلين فى رغد العيش ، كانت مواعظهم تخرج من الفم لتذهب فى الهواء ، أما آيات الله فكانت تترادف عليه تصقل نفسه ، وتغذى روحه .

كانت زقزقة عصفور ، أو لألأة نجم ، أو هبوب موجة من البرد ، أو لفحة من الحر ، تترك فى روحه أثرا أعمق من موعظة طويلة لا تخرج من القلب . كانت روحه كوعاء على قمة شامخة لا يملؤه إلا ما ينزل من السماء .

٨

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل »
(قرآن كريم)

نما عيسى واشتد عوده ، وبلغ الثانية عشرة ، فأصبح بحسب شريعة موسى بالغا « جادول » ، يمتاز بالروح ، ويعامل معاملة الرجال ، فما صار لأحد عليه سلطان . إنه ابن الناموس «ابن هاتوراه» ، يفعل مايوحيه إليه عقله ، ويتحمل كل ماتجنى يداه .

وكان عليه أن يختار مهنة ، ففى هذه السن ينبغى لكل يهودى أن يحترف حرفة . كان يخرج مع يوسف إلى حانوته ، ولكنه لم يكن قد احترف النجارة ، فكان عليه أن يختار بمحض إرادته العمل الذى يمارسه . وجاء يوسف إليه يعرض عليه أن يعمل معه ، فقبل الفتى ، وذهب يتدرب ليكون نجارا .

راح يعمل فى الحانوت المتواضع من شروق الشمس حتى غروبها ، فإذا جن الليل خرج يقلب وجهه فى السماء ، وإذا جاء السبت ذهب إلى المعبد ، وما تنقضى الصلاة حتى ينسل إلى التلال يصغى إلى موسيقا الطبيعة : فهمسات النسيم ، وتفتح الأزهار ، وتعاقب الليل والنهار ، تملأ قلبه علما وحكمة .

أشرف موسم الحج على أورشليم ، فالفصح ، ذلك العيد الذى اتخذه اليهود تخليدا لذكرى خروجهم من مصر ، على وشك الحلول . كان على كل يهودى أن يحج مرة كل سنتين ، فتأهبت مريم للحج ، ولما كان ابنها قد بلغ ، أصبح عليه أن يخرج مع الخارجين .

فرح عيسى لأنه سينطلق إلى أورشليم ، إلى المدينة التى طالما حدثته عنها أمه ، والتى رآها بعين خياله شامخة تناطح السحاب . سيخرج من الناصرة المحصورة بين التلال ، إلى العالم الواسع الفسيح ، ليرى بدائع خلق الله التى تنطبع فى نفسه ، وتعمل على صقلها .

obeikandl.com

راحت مريم تتجهز للرحلة . فتملأ أباريق الزيت وتضع التين المجفف فى الأكياس ، ثم تصر بعض الأطعمة الجافة فى صرة لاتفتحها إلا فى أورشليم ، وتعد صرة أخرى لطعام الطريق ، وظلت فى غدو ورواح ، حتى إذا جاء المساء جلست تعد عباءة جديدة لابنها ، عباءة بيضاء من الصوف سيبدو فيها رائعا ، كـكاهن صغير يشع من وجهه نور التقى والصلاح .

وحل آذار ، فهبت نسائم الربيع تنعش القلوب ، وخرج الحجاج من بيوتهم ، وتجمعوا فى سوق الناصرة ، قبل الانطلاق إلى أورشليم . ووضعت الأحمال على حمار ، وحمل يوسف صرة ، وحمل عيسى صرة ، وانطلقوا يحدوهم فرح عظيم .

وتقاطر الناس من بيوت الناصرة البيض ، وازدحمت السوق بهم ، حتى إذا انتظم عقدهم ، تقدم أسن سبعة بينهم ليسيروا على رأس القافلة . وفصلت العير ، وانسابت فى الطريق الضيق بين التلال المغطاة بأشجار السرو والزيتون ، وهبطت إلى الطريق الجيرى متدفقة إلى سهل يزرعيل .

كان الربيع يمس الكون بيده الساحرة ، فلبست الأرض زخرفها وازينت ، وبدت سنابل القمح فى ضوء الشمس كأمواج من الذهب ، وقامت الورود حمرا وصفرا وزرقا على جانبى الطريق ، فـكانت الحقول كثوب عروس وشى باللؤلؤ والزبرجد والياقوت .

سارت القافلة على ضفة نهر قيشون ، فراح عيسى يصغى إلى خرير المياه ، فـكان له فى أذنيه وقع التسبيح ، وراح يدور بعينيه فيما حوله ، فيحس كأنما شفت منه الروح ، ودخلت القافلة إلى يزرعيل العاصمة ذات المبانى الشاهقة ، ثم سارت إلى جبل جلبوع المتقشف ؛ كان عاريا من كل ثوب ، فما كانت الأمطار تهبط عليه لتنسج له ثوبا من ثيابها الخضر الزاهية ، التى تجود بها على الوديان والسفوح . وخاضت القافلة رمال تاناس ، ثم لاحت «ماجدو» فى الأفق البعيد .

وارتفعت أصوات عذبة رقيقة ، تسرى مع النسيم . كان الفرح يداعب النفوس ، فانساب فى المشاعر أنغاما حلوة ، تشيع البهجة فى الصدور ، وطويت الأرض .

وبلغ الركب عين غانم ، فنزلوا يبيتون ليلتهم ، فى أحضان الطبيعة التى سخت بالجمال . حتى بدا المكان كجنات النعيم .

وأقبل الحجاج من كل صوب إقبال الروافد إلى النهر الكبير . أقبل حجاج كفر ناحوم وحجاج المجدل . وانضموا إلى حجاج الناصرة ، وأخذ الرجال يتحدثون إلى الرجال ، والنساء إلى النساء ، والأطفال يلعبون ويجرون فى مرح . زالت الفوارق . وتدانت القلوب ، فالجميع متوجهون إلى الله بقلوب صافية ، عامرة باليقين .

ووضعت مريم الطعام ، وكان من زيتون وعسل . فلما فرغوا منه ، قام يوسف يجوس بين الحجاج الذين كانوا يتسامرون فى سرور ، وفيما هو فى سيره ، إذ قابل صديقه زبدى ، فصافحه فى حرارة ، وعرض عليه أن يرافقهم فى الطريق ، وكان مع زبدى بناه يعقوب ويوحنا . وكانا فى مثل سن عيسى ، فراح الغلمان يتحدثون ، يعقوب ويوحنا يذكران البحر والمراكب ، فهما يعاونان أباهما صياد الأسماك فى عمله ، وعيسى يتحدث عن الله وملكوته ، فعيناه لا تتطلعان إلا إلى السماء .

وأسدل الليل ستائره ، وأخذت الأصوات تخفت ، ورفرف النعاس ، فتناول عيسى غطاء ، ونام مع يعقوب ويوحنا ابنى زبدى تحت النجوم .

وأشرقت الشمس ، فهب الناس من نومهم ، وقاموا يتأهبون لاستئناف رحلتهم . حمل الفقراء أمتعتهم ، وقادوا حميرهم وبغالهم ، أما الأغنياء فأسرع عبيدهم يحملون عنهم الفراش الوثير . وانطلق الركب فى طريقه ، ولاحت حدائق التين وغابات الزيتون ، وخلفوا تلال السامرة الجميلة التى تبدو كعقادة أبرزت مفاتنها ، واقتربوا من بئر يعقوب ، فأغذوا السير ، ليحطوا الرحال عند البئر ، ويستريحوا من وعثاء السفر الطويل .

وانقضى الليل ، وولد النهار ، فدوى فى المكان قرع الطبول ، فقام الحجاج يستعدون للسير . وفصلت العير ، وانطلقت فى قطار طويل ، النساء على الدواب ، والرجال آخذون بزمامها ، والغلمان يجرون ويلعبون ويضحكون .

الأرض تطوى تحت أقدامهم ، هاهم أولاء يمرون بشيلوه ، ثم بجبعة شاول ،

ثم ببيت إيل ، وهاهوذا النهار ينسحب بعد أن قطعوه ، وأقبل الليل وبئر راعوث على مرمى حجر . الأشجار عندها تبدو لهم كأمل حلو مرتقب ، فنزلوا يسقون ويطعمون .

وفى البكرة انسابوا فى الطريق . ولاحت لهم أورشليم . فخفقت القلوب فى الصدور ، فمدينة داود المقدسة قائمة أمامهم ؛ الأبراج والقصور شامخة فى الفضاء ، عالية فى كبرياء ، والهيكل العظيم يتألق فى الشمس كجوهرة تخطف الأبصار ، والدور البيض غارقة فى الضوء ، وقصر هيرودس على جبل صهيون يرنو إلى المدينة كأنما يعد عليها أنفاسها .

ونظر عيسى إلى أورشليم ، فأحس قلبه ينجذب إليها ، إنه يراها بروحه ، ويشعر بقدسيتها تراق فى نفسه ، إنه يحبها بكل مشاعره ، وإنه ليخيل إليه أنها تبادله عواطفه .

واندفعوا إلى الوادى حيث قابلهم سفراء عن المعبد مرحبين بمقدمهم ، وتفرقت الجموع ، وراحت كل أسرة تهتم بشئونها ، تبحث عن قريب لها فى المدينة تقضى عنده موسم الحج . ولما كانت الشريعة تحرم أخذ نقود مقابل إيواء الحجيج ، فمن لا أقارب له ولا أصدقاء يقاسى فى إيجاد مأوى له ، فراح كثير من الناس يقيمون لأنفسهم أكواخا صغيرة من حصر البوص ، ونزل آخرون فى العراء ، وزخرت أورشليم بآلاف الوافدين من سورية فى أرديتهم الوطنية ، ومن بابل فى ملابسهم السود ، ومن آسيا الصغرى وروما وفلسطين ، وراح يوسف ومريم وعيسى يشقون طريقهم بين الجموع ، حتى بلغوا بيت زكريا ، فصافح زكريا يوسف وعيسى ، واحتضنت مريم خالتها أليصابات ، وراحتا تتبادلان القبلات .

وفى الصباح ذهبت الأسرة إلى السوق لشراء الزيوت والعطور ، ثم انطلقت إلى المعبد . كان الصيارفة جالسين أمامهم أكداس النقود ، يستبدلون العملات المصرية والبابلية والعملات الأخرى بشاقل إسرائيل ، وكان تجار الأغنام يعرضون على الحجاج خرافهم وعجولهم ، وجلس تجار الحمام يبيعون للفقراء ما يقدمونه قربانا لله ، وأخذ يوسف يشترى أضحية ، فما ساق معه خروفا من الخراف التى عنده ، خشية أن ينفق فى الطريق ، أو يصاب بإصابة تجعله غير لائق للتضحية ،

فلا يقدم إلى الله قربانا إلا إذا كان بارئا من العيوب . وذهب عيسى ومريم مع الناس إلى صندوق النذور يضعون فيه صدقاتهم .

ونظر عيسى ، فألفى حلقات العلماء ، وقد جلس كل كاهن على شرف عال ، يحيط به تلاميذه ، فهفت نفسه إليهم . أحس رغبة فى أن يذهب يصغى إلى ما يقولون ، ويسألهم عن بعض ما يجول فى خاطره ، فهذه الزيارة تركت فى نفسه آثارا ؛ لم يعجبه بعض ما رآه ، وهو يريد أن يعبر عما يخالجه ، وهم بالذهاب إليهم ، ولكن أمه جذبته من يده ، ليدخلا يقدمان صلاتهما لله رب العالمين .

كانت شرفة النساء تعج بالزائرات ، والمعبد يموج بالمصلين ، وارتفعت الأصوات خاشعة ، شحنت إيمانا وطهرا ، فأشرقت الوجوه بالنور ، فقد كانوا يقدمون إلى الله القلوب .

وقضيت الصلاة ، وخرجت الأسرة إلى أورشليم ، كان هلليل العظيم موضع احترام اليهود ، كان سقاء يحمل الماء ، وعالما من أبرز علماء بنى إسرائيل ، وكان صديقا وفيا لعمران أبى مريم ، فذهبت الأسرة لزيارته ، وتحدث هلليل وعيسى يلقى إليه سمعه وهو مشغوف .

وتجاذبوا أطراف الحديث ، وتكلم عيسى ، فألفى هلليل قلبه ينجذب إليه ، فالحكمة تتدفق من فم الفتى الصغير ، وما أتم عيسى حديثه حتى قال هلليل فى إكبار :

— ذرية بعضها من بعض ، إنك ابن حق لإبراهيم الخليل .

وتتابعت الأيام ، وعيسى يذهب إلى المعبد ، فى عباءته البيضاء ، يجلس إلى حلقات العلماء يعيرهم سمعه ، وتنبعث فى قلبه شوة ، فحديث الدين والأنبياء إلى قلبه حبيب .

وجاء ميقات التضحية ، فخرج يوسف وعيسى وزبدى وولداه يوحنا ويعقوب ، وذهبوا إلى قاعة الإسرائيليين ، وكانت تزخر بالحجاج يقودون القرابين ، وصعد يوسف إلى المذبح ، وذبح خروفه ، وتلقى الكاهن الواقف عند المذبح بعض دمه فى فلجانة من الذهب ، وأعطى تلك الفلجانة إلى كاهن آخر ، وهذا أعطاها آخر ، وراحت تتنقل من يد إلى يد ، حتى بلغت الكاهن الأعظم ، فألقى الدم فى المذبح الكبير .

وارتفعت فى القاعة الأخرى أغنيات الليفيين وقرع الطبول ورنين الأجراس ، ولـكن عيسى شغل عن تلك الأصوات بالمشاعر النابتة فى جوفه ، والمشاهد التى تجرى أمام عينه .

تصرمت أيام العيد السبعة ، وتأهب الحجاج للعودة إلى دورهم ، وخرجت القوافل من أورشليم ، وقفل ركب الناصرة وكفر ناحوم والمجـدل راجعا فى نفس الطريق الذى جاء منه ، وانقضى اليوم الأول ، ونزل الناس عند بئر راعوث ، ونظرت مريم فلم تجد ابنها ، فسرى فى قلبها قلق ، وراحت تنقب عنه فلم تهتد إليه ، فخفق قلبها رهبة ، وذهبت إلى يعقوب ويوحنا ابنى زبدى تسألهما عن عيسى ، فأخبراها أنهما لم يرياه مذ خرجا من أورشليم ، فزادت مخاوفها ، واستمرت فى بحثها تسأل كل من تقابلها عن ابنها ، ومر الليل وهى فى قلقها وأرقها ، ومالاح نور الصباح حتى عادت ويوسف إلى أورشليم ، يبحثان عن ابنها.

راحت تمر على الأسرات التى تعرفها فى أورشليم تسأل هذا وذاك عن عيسى دون جدوى ، فزادت مخاوفها ، وأخذت تفحص عن كل غلام تراه بعينيها السوداوين القلقتين ، وانقضى النهار ثقيلا بغيضا ، وأقبل الليـل ومضى ومريم فى قلق وحيرة ، وما أقبل الفجر حتى خرجت تستأنف بحثها .

كانت تبحث فى الأسواق ، وطرقات المدينة المتعرجة ، وعند سور الملك داود ، وعند الآبار ولـكنها لم تجد له أثرا ، فدثرتها رهبة ، وعصر الأسى قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها .

وانقضى اليوم الثانى كسابقه ، ذهاب هنا وهناك ، وعيون تتلفت فى كل مكان ، وقلب ينزف أسى وحزنا ، ولـكن ما من أثر له ، ووفد الليل ومريم تكاد تسقط من الإعياء .

وفى اليوم الثالث تذكرت ما كانت نسيته ، أن ابنها قد هفت روحه إلى المعبد ، وأمضى معظم أيام العيد بالقرب من حلقات العلماء ، فلماذا لا يكون هناك ؟ إنها بحثت عنه فى كل مكان ولـكنها لم تذهب إلى الهيكل .

هرعت مع يوسف إلى المعبد ، وفى حجرة من حجراته لمحته ، عيسى بعباءته البيضاء جالسا على الأرض وسط المعلمين ، فخفق قلبها فى شدة ، وراح الخوف

ينقشع عن صدرها ، ليحل مكانه طمأنينة وأمن . ونظرت فإذا ابنها بين شيوخ أجلاء . اشتعلت رءوسهم شيبا . كان هناك هلليل العظيم ، وابنه الحاخام سيميون وشماى الكبير . ونيقوديموس . وأكابر بنى إسرائيل ، فداعب قلبها فرح ، ولكنها لم تجد فى ذلك غرابة ، فقد كانت على يقين أن الله يعده ليكون معلما لمن هم أعلم من هلليل وشماى وسيميون .

ونادى يوسف :

— عيسى .

وانطلق إليه وأخذه من يده ، وعاد به إلى أمه . فضمته إلى صدرها فى حنان ، وقالت له :

— لماذا فعلت هذا بنا ، لقد بحثنا عنك وانتابنا خوف وحزن ، وخفنا أن نفقدك .

فنظر إليها فى هدوء وقال :

— ما كان الله ليضيعنى .

وخرجوا من أورشليم ، وسروا وقد خلوا بالكون ، فجعل عيسى يفكر فيما سمع ، كان ما سمعه رائعا بالغ الروعة ، ولكن ارتفاع الشمس وهبوطها ، وبزوغ القمر وأفوله ، وهدوء الليل وتألق نجومه تمده بحكمة أروع مما سمع ، كان فى قلبه كنوز من العلم والحكمة ، تفوق كل كنوز العلماء والرهبان ، فهؤلاء حصلوها بالدرس وحفظوها فى الصدور ، أما هو فقد وهبها له العليم ، وغرسها فى قلبه ، وجعلها تجرى فيه مجرى الدم .

« قال الله هـذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم » . (قرآن كريم)

عاد عيسى إلى الناصرة ، واستأنف العمل فى حانوت يوسف ؛ كان حاضرا بجسمه ، أما روحه فكانت تتصل بخالق السماء ، أصبح يحب الليل ، لأنه فيه ينفرد بنفسه وبالله ، إذا أراد أن يناجى ربه ابتهل إليه فى خشوع ، وإذا أراد أن يصغى إليه فتح التوراة وقرأ الآيات .

وأحب العزلة ، فإذا جاء يوم السبت ، ذهب إلى المعبد ، فإذا قضيت الصلاة انسل إلى قمة التل الذى بنيت عليه الناصرة ، يقف بين أزهار الحبل المتفتحة ، ويملأ رئتيه بالنسيم العليل الذى يداعب شعره الأسود ، ويمد بصره إلى ماحوله ، فيرى حقول التين ، وبساتين النخيل ، والمنازل البيض ساجدة كعابد فى محراب الله .

ويمس أذنيه رفيف الطيور ، وحفيف الشجر ، وزفيف النسيم ، فيصغى إليها كأنما يتلقى وحيا من السماء ، كان يحس وهو فى عزلته شفافية فى روحه ، ورقة فى قلبه ، وصفاء فى نفسه ؛ فكان يخيل إليه أنه امتزج بالكون ، أو أن الكون ذاب فيه .

كان قلبه ناصعا أنصع من الثلج الذى يراه أمامه فوق قمة جبل حرمون ، وروحه عذبة أعذب من مياه نهر قيشون ، وكانت نفسه هادئة أهدأ من سطح بحيرة الجليل فى يوم صاف هدأت عواصفه ، ونامت رياحه .

كان أترابه من الصبيان يتلقون علومهم فى مدارس الربيين ومدارس الكتبة ، أما هو فكان يتلقى الحكمة فى مدرسة الله ، تحت أشجار التين .

وفى الحقول فى الظهيرة وتحت نجوم الليل ، كان يستمد حكمته من السماء الصافية ، والسحب المتلبدة ، وزمجرة الرياح ، وهبوب النسيم ، وقيظ الحر ، وقر الشتاء . حتى الخشب الذى يصنعه بيديه ، يجد فيه مادة لتفكيره وغذاء لروحه . تلمذ لثلاثة علماء : العمل ، والطبيعة ، والتوراة .

كان يجالس الفقراء ويستمع إلى شكاتهم ، فقد كان فقيرا . ويحادث الخطائين دون أن يلتفت إلى نظرات الاستنكار التى تصوب إليه ، ولم يكن خطاء ، بل كان ذا قلب كبير ، يرحم ضعفهم ، ويرى أنهم أحق بالرعاية والعطف من المتزمتين المتظاهرين بالتقى والصلاح ، كان إنسانا يغفر ضعف الإنسان .

أصغى إلى الكتبة والفريسيين ، ولكنه لم ينفعل لمواعظهم ، فكلماتهم تخرج من الفم كلمات ميتة بلا روح ، فلا تجد طريقها إلى القلب ، يقول الفريسيون ويرددون القول : إذا جلس اثنان يتحادثان ولم يكن حديثهما عن الشريعة ، كان اجتماعهما فى سبيل الشيطان ، قول منمق ولكن ما كانت العبرة باللفظ ، ولكن بأثره فى الفؤاد .

الفريسيون ينطلقون فى الطرقات يتجسسون على الفقراء ، ليتحققوا من طهارة ثيابهم ومنازلهم وحوانيتهم ، ولكنهم لا يهتمون كثيرا بطهارة النفس ؛ فالفواحش ترتكب دون أن يحركوا ساكنا ، فإنما كل ما يهمهم نظافة الثوب !

وأصغى إلى كبار الحاخاميين فى المعبد فى موسم الحج ، فألفى شريعة موسى البسيطة قد عقدت ، وتفرعت مذاهب ، فما يحلله هلليل يحرمه شماى ، فأعرض عن حلقات السفسطة والجدل ومعارض الكلام ، وأقبل بنفس متفتحة على الكون يغترف علما وحكمة من معينه الرقراق .

أكب على عمله فى حانوت يوسف النجار ، وأخذ يشكل قطعة الخشب التى فى يده فى مهارة ، ويبذل جهده ليجعلها ملساء ، إنها ستوضع حول رقبة ثور ثم يشد إلى المحراث ، فإذا كانت خشنة آذته ، ولما كان رحيما لا يحب تعذيب الحيوان ، فقد أتعب نفسه ، ليخفف من آلام ثور من الثيران فى حقل من حقول الجليل للترامية .

راحت الشمس تختفى خلف تلال الناصرة ، فأغلق يوسف حانوته ، وذهب هو وعيسى إلى الدار . كانا فى طريقهما يتبادلان الأحاديث عن الدين ، وكان يوسف يسبغ عطفه عليه ، ولكن يوسف انطلق الليلة وهو صامت ، فاحترم عيسى صمته . ولم يحادثه ، وشغل عنه بما يدور فى نفسه من أفكار .

ودلفا إلى الدار . واتجه يوسف إلى فراشه ، وقبل أن يندس فيه ، توجه إلى الله ، وأخذ يقرأ الشمة : « اسمع يا إسرائيل . . . » وانتهى من صلاته ، وارتمى فى الفراش مبهور الأنفاس ، فقد كانت الحمى تسرى فى بدنه .

وأقبلت مريم وفى يدها مصباح ، ودنت تنظر فى وجهه ، فإذا العرق يتفصد من جبينه ، وإذا نفسه مضطرب ، فراحت تمرضه ، وانقضى الليل ومريم وعيسى إلى جواره يخفق قلباهما بالحزن العميق ، إذ يريان يوسف راح فى غيبوبة طويلة ، ولم ينبس بكلمة ، ولم يفتح عينيه مرة .

وأشرقت الشمس ، وغرقت الدور البيض فى النور ، فخرج عيسى إلى الحانوت ، يعصر قلبه الأسى ، فما خرج وحده قبل يومه ، وخطر الموت على ذهنه ، فراح يفكر فيه .

ونظرت مريم إلى يوسف المسجى أمامها وهى حزينة ، صدقها يوم كذبها الناس ، وآمن بابنها وصدق به قبل أن تكتحل برؤيته عيناه ، وفر بهما من وجه الطغيان فى سبيل الله . كان مؤمنا عميق الإيمان ، نفذ أوامر الله ، فكان نعم الحارس ونعم الكنف .

وشخص يوسف ببصره إلى السماء ، وغمغم فى صوت خافت :

— إلهى ، أعيد إليك وديعتك ، فقد انتهى عملى ، إلهى إنى ذاهب إليك وأنت أقدر على حفظ رسولك ، فأنت خير الحافظين .

وأسبل جفنيه ، وذهب إلى حيث يذهب المؤمنون الصادقون ، وغطت مريم وجهه بنقابها ، وجرت عبراتها على خديها ، وأقبل عيسى يذرف الدمع الهتون .

١٠

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » .
(قرآن كريم)

قصور حكام الأقاليم مراتع للهو ، فأنتيباس هيرودس غارق فى الشهوة ، تساق إلى قصوره أجمل الفتيات . راقصات عاريات ، وأغنيات ماجنات ، وكئوس الخمر تدور على الأصفياء ، فتنطلق الوحوش الكامنة فى النفوس تعب اللذاذات فى نهم .

وقصور الأغنياء مسارح للخلاعة ، وأوكار للمجون ، يحاكون رؤساءهم ، ويتقربون إليهم بالمعاصى والمنكرات ، ويتنافسون فى نيل الحظوة عند أنتيباس بتقديم العذارى الكاعبات إليه ، فقد قر فى أذهانهم أن المناصب لاتنال إلا بالنساء ، فهذان قيافا وحنان تقربا إليه بالأبكار الأتراب ، فتقاسما رياسة الكهنوت .

كانا ضالعين مع الرومان ، يشاركانهم حياة الفسق والمجون ، ويتظاهران أمام الشعب بالتقوى والصلاح ، يقدمان إلى مذبح الرب القرابين ، وفى نفس الوقت يقدمان إلى ولى نعمتهم النساء على مذبح الشهوات .

ودب الفساد فى مجلس السنهدرين ، ذلك المجلس الذى كان للدين حصنا ، صارت الكلمة فيه للهيروديين الوالغين فى الفساد ، أو للصدوقيين المخادعين الذين يتخذون من الدين ستارا .

وفى أروقة الهيكل اشتد الخلاف بين الفريسيين والصدوقيين ، أولئك يعتقدون فى الملائكة وهؤلاء لا يعتقدون فيم ، وأولئك يقولون بالبعث ، وهؤلاء ينكرونه .

وساد أورشليم والبلاد اليهودية ظلام ، ونزل بنفوس الناس هم ثقيل ، وحاق بهم ضيق ، ودب فى قلوبهم اليأس ، فقد انقضى زمن طويل دون أن يظهر فيهم نبى ، يخرجهم من الظلمات إلى النور .

كان يحيى عاكفا على العبادة فى الهيكل ، وكانت تصل إليه تحف من حياة قياف وحنان ذات الوجهين ، ويرى عيشة الرغد التى يحياها الرهبان الفريسيون ، ويصغى إلى سفسطة الصدوقيين ؛ فرأى أن يخرج إلى البرية ، يعيش بين الوحوش ، فارا بنفسه من ذلك النفاق والرياء .

هام يحيى فى البرارى ، يأكل من ورق الشجر ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد ، وتستر جسمه مدرعة من الشعر ، وعلى حقوية منطقة من جلد ، وظل فى عزلته يتلقى وحى السماء .

وذهب إلى الأردن يدعو الناس إلى الله ، فاجتمعوا يسمعون إليه ، قال :

— إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات ، أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن ، وأولاهن أن تعبدوا الله لا تشركون به شيئا ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا .

وآمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ، فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره ، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

وراح يحيى يقول للوفود التى توافدت عليه :

— توبوا فقد اقترب ملكوت السماء .

وذاع فى البلاد أن نبيا خشنا قام فى البرية ، يدعو إلى الله ويبشر باقتراب

ملكوت السماء ، ولما كان اليهود يترقبون عودة إيليا ليخلصهم من الفساد ، قالوا إن إيليا قد قام . وخرج الرجال والنساء والأطفال من كل فج ، مهطعين إلى الأردن ، الأغنياء يحدوهم حب الاستطلاع ، والفقراء عامرة قلوبهم بأعمق الإيمان ، وجاءوا إليه يعترفون بخطاياهم ، فيعمدهم ويطهرهم .

وبلغ نبؤه أورشليم . وسمع الناس أن نبيا جديدا قام فى إسرائيل . فنزل ذلك الخبر على قلوبهم نزول الغيث على الأرض المجدبة ، فنبت الأمل ، وأرهفت الإحساسات . ولاح فى الأفق تباشير عهد جديد ، عهد زاخر بالخيرات .

وقال قائل لأنتيباس إن نبيا فى البرية يدعو الناس إلى الثورة على دولة الأغنياء ، يحض من له ثوبان على أن يعطى من لا ثوب له ، فبعث إلى السنهدرين ، يأمرهم أن يوافوه بخبر ذلك النبى الجديد ، فاجتمع المجلس وقرر إيفاد رسله إلى ذلك الرجل الخشن ، الناحل من شدة التقشف ، الذى رنت كلماته فى القصور ، فزلزلت قلوب المردة الطغاة .

وفى شوارع الناصرة تحدث الناس عن النبى الجديد ، وتجاوبت فى أرجائها أنباؤه ، وبلغ عيسى دعوة يحيى بن زكريا ، فأحس كأنما يترجم أفكاره ، ويعبر عما يجيش فى صدره . إنه يهاجم الغنى والأغنياء ، ويدعو إلى المساواة ، ويفضح رياء الكهنة والكتبة . فلم يستطع عيسى صبرا ، فشد إليه الرحال .

وأقبل الفريسيون ، رسل السنهدرين فى كبريائهم ، الغرور يجرى فيهم ، ويعتقدون أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لا يغادرون نضد التوراة ، يقرءون فيه ويقرءون ، ثم يعودون فيقرءون ، لا شغل لهم إلا قراءة التوراة ، حتى حفظوا النصوص ، وتزمتوا فى تطبيقها ، أما الروح فكانت شيئا لا يؤبه له .

نظروا إلى ذلك الرجل الناحل ، العارى إلا من مدرعة من شعر ، وأصغوا إليه وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء . إنه لا يدعو إلى نفسه ، ولا يستغل النور المنبثق من روحه إلا فى إنارة طريق النبى القادم بعده ، ويطهر الناس ليكونوا أهلا لاستقباله . إنه صوت منطلق فى البرية ، يعبد الصراط المستقيم .

دنوا منه وقالوا له :

— من أنت ؟ حتى نخبر من أرسلونا . آ لمسيح أنت ؟

— لا .

— أإيليا أنت ؟

— لا .

— آ النبي أنت ؟

— لا . أنا صوت صارخ فى البرية ، قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي .

فنظروا إليه فى زراية ، وقالوا له :

— فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟

— أنا أعمد بماء ، ولكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحمل سيور حذائه .

فنظر بعضهم إلى بعض يسخرون . كان يحيى صلبا كالصخر ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، لا يرجو عطف الناس ، ولا يخشى مقتهم ، إنه قوى فى الحق ، خشن خشونة الصحراء التى يهيم فيها ، يرى غطرسة الفريسيين وتكبرهم ، لأنهم من نسل إبراهيم ، فقال لهم فى صوت كالرعد :

— ياأولاد الأفاعى ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا ، لأنى أقول لكم ؛ إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم ، والآن وضعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تثمر ثمارا جيدا تقطع وتلقى فى النار ، أنا أعمدكم بماء التوبة ، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، هو سيعمدكم بالروح القدس .

وتدفق الناس عليه ، العوام والخواص ، حتى الذين يخدمون هيرودس جاءوا يلقون إليه السمع .

وأشرف عيسى على وادى الأردن ، كانت الشمس ترسل أشعتها الحامية ، وكانت تتألق متوهجة فى كبد السماء ، لم يظهر لشىء على الأرض ظل ، كانت أريحا قائمة بين أشجارها ، والبحر الميت يعكس وهج الشمس كمرآة تخطف الأبصار ، وجبال مؤاب شامخة على الشاطىء الشرقى ، والصخور الصفر عارية خامدة ميتة ، ولكن النهر لم يكن ميتا ، فيحيى غائص فى مياهه إلى ركبتيه ، يظهر الوفود الزاخرة المتدفقة ، التى وهبت للصحراء قلبا خفاقا ينبض بالحياة .

وهبط عيسى إلى الوادى ، وذهب إلى يحيى بن زكريا ، الذى جاء يبشر الناس بقرب رسالته ، ويعبد الطريق أمامه حتى يبلغ الناس رسالات الله .

١١

« ياعيسى بن مريم ، اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس »

(قرآن كريم) .

السماء فوقه ، والرمال تحت أقدامه ، والفضاء أمامه ، والأفكار تتثال على رأسه . أصغى إلى يحيى فألفاه يذكر الناس باقتراب ملكوت السماء ، وهو يعلم أن الله يعده ليبعثه رسولا إلى قومه ، فقد بشرت الملائكة أمه به قبل مولده ، وقالت لها إن الله يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل .

إن موسى قد ذهب للقاء ربه ، وانفرد فوق طور سيناء أربعين يوما وليلة يناجيه حتى تجلى له وكتب له فى الألواح شريعته ، فعزم عيسى أن يمكث فى الخلاء يتعبد ، ويتأهب لوحى السماء ، فالخلوة تطهر نفسه ، والمناجاة تشحذ روحه ، وتملأ قلبه نورا على نور .

وركع على ركبتيه ، وتطلع طويلا إلى السماء ، وجعل يبتهل إلى الله فى حرارة ، وجرت دموعه ، وبكى بمثل حنين الإبل ، بكاء من ودع الأهل ، وقلا الدنيا . وظل فى مناجاته ، لا يحس شيئا حوله ، فقد تعلقت روحه بالله .

واحتجبت الشمس وراء تلال مؤاب ، فصبغت التلال بلون القرنفل والأرجوان ، وملئت الأخاديد فى سفوحها بظلال زرق قاتمة ، وبدا نهر الأردن كخيط أزرق ملقى فى الصحراء : وعيسى فى خشوعه غائب عن كل ماحوله من جمال ، فهو ينشد جمال الله .

ونامت عيون الأبرار وهو يقظان ، يدعو الله فى هجعة الليل ، وسكر بصره ، خيل إليه أن بابا فتح فى السماء ، وأن روحه عرجت إليها ، تهيم فى الملكوت ما شاء الله لها أن تهيم .

كرت الأيام ، ومرت الليالى . وهو لا يحس مرور الأيام ولا كر الليالى . غاب عن الزمن ، وغاب عن المكان ، وغاب عن كل شيء إلا عن الله ، فهو يفكر فيه بذهنه ، وتنبض بذكره خفقات قلبه ، ويردد لسانه وهو ساجد : « إلهى ، أرنى نور وجهك » ، فتردد ذلك النداء فى حرارة كل خالجة من خوالجه . باتت حواسه كلها ألسنة تتضرع إلى الله أن يمن عليها بالنور .

شفت نفسه ، وأرهفت حواسه . وانقشعت الحواجز المادية أمام عينيه ، فبدت الدنيا صافية نقية ، وإذا نور سماوى يغشى المكان ، وإذا ذلك النور يراق فى جوفه ، فيحس كأنما خلق من جديد .

ومس أذنيه حفيف صوت ، فالتفت خافق القلب ، فرأى جبريل ، فجفل فى خوف ، ثم أخذت الطمأنينة تعود إليه رويدا رويدا ، فلما أفرخ روعه ، قال له الروح الأمين : إن الله أرسله رسولا إلى بنى اسرائيل ، وراح يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

تصرمت أربعون ليلة وعيسى فى مناجاته ، يتلقى وحى السماء وهو على قمة الجبل منفردا بالله ، كما تصرمت من قبل أربعون ليلة وموسى على طور سيناء يتلقى كلمات ربه .

سار عيسى وقد استرسل شعره ، وطالت لحيته ، وغاضت تلك الوداعة التى كانت تشع من وجهه . وبان فيه قوة وعزم . انقضت أيام الدعة والهدوء ، وأقبلت أيام الكفاح والجهاد ، أيام الاضطهاد والتعذيب ، فما جاء أحد بمثل ما جاء به إلا اضطهده الناس وعادوه .

عاش عيسى تلك الأيام بروحه ، فلم يحس حاجات الجسد . أما الآن فقد عاد إلى نفسه ، إنه يشعر بالجوع يعض أحشاءه ، ويجفاف العطش فى حلقه ، فتلفت لعله يجد ما يسكت به ذلك الصراخ المنبعث من جوفه ، ولكنه لم يجد شيئا . فانطلق وهو يفكر فى أمره . ووقعت عيناه على الحجارة المبعثرة فى الفضاء ، فرن فى أذنيه صوت يحيى القوى الخشن : « إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم » .

وتحرك جوعه ، فوضع يده على بطنه ، وأحس أنه لم يعد فى البرية وحده ، فالتفت فإذا رجل إلى جواره يرنو إليه فى ود ، ودنا الرجل منه وقال له :

— سل ربك أن يقول لهذه الحجارة كونى خبزا .

وقفزت إلى ذهن عيسى صور طالما عاش فيها بروحه ، فلطالما قرأ أن إسرائيل وهو فى البرية وقد نهكه الجوع ، سأل الله أن يطعمه فأنزل عليه المن من السماء ، وطالما رأى بين سطور التوراة ملاك الرب وهو يقود إيليا ، المضنى من الجوع ، إلى الطعام . إنه لو سأل ربه أن يحيل تلك الحجارة خبزا لاستجاب له ، ولـكن ما كان يسأله ، فالتفت إلى الرجل وقال له :

— مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلة تخرج من فم الله .

وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

— أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟

فأطرق الرجل قليلا ثم قال :

— فارق إلى ذروة هذا الجبل ، فترد منه ، فانظر هل تعيش .

فأقبل عيسى على الرجل ، وقال له :

— أما علمت أن الله قال : لا يجربنى عبدى ، فإنى أفعل ما شئت .

فبان فى وجه الرجل القهر ، واستمر عيسى فى حديثه :

— إن العبد لا يبتلى ربه ، ولـكن الله يبتلى عبده .

وراح الرجل يوسوس له :

— لا ينبغى لك ياعيسى أن تـكون عبدا ، فقد بلغ من عظم ربوبيتك أنك تـكلمت فى المهد صبيا ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك .

— بل الربوبية لله الذي أنطقنى ، ثم يميتنى ثم يحيينى .

— تعال .

وارتقيا جبلا عاليا ، وأشار الرجل بإصبعه إلى ممالك الأرض ، وقال له :

— انظر ، إن كان لك عينان .

فنظر عيسى ، فرأى جميع ممالك الأرض ، فقال له الرجل :

— سأمنحك هذه الممالك . سأجعلك الحاكم المطلق على البشر ، ستتألق

فى المجد ، ستكون المسيطر على كل الأرض . سأمنحك كل هذا لقاء شىء واحد، أن تسجد لى .

فصرخ فيه عيسى :

— ابتعد عنى يا شيطان . ابتعد يا رجيم ، مكتوب : للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد .

فلم يشأ الشيطان أن يعلن اندحاره ، فابتسم فى خبث وقال :

— إن غضبك ليس بغضب عبد ، ولكن أدعوك لأمر هو لك ، آمر الشياطين فليطيعوك . فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إنى لا أقول أن تكون إلها ليس معه إله ؛ ولكن الله يكون إلها فى السماء ، وتكون أنت إلها فى الأرض .

فغضب عيسى غضبا شديدا ، وصرخ فيه صرخة زلزلته ، فابتعد إبليس مذموما مدحورا ، وهو يغمغم فى يأس :

— ياعيسى ، لقد لقيت فيك اليوم تعبا شديدا .

ووقف بعيدا يرنو إليه منهزما ، عجز عن أن يفتنه ، ولكن ما كان الشيطان ليقر بهزيمة ، وقفزت إلى ذهنه الشرير فكرة ؛ إذا كان قد عجز عن فتنته ، فسيجعله فتنة ، فقال وهو يختفى فى الأفق البعيد :

— سأضل بك ياعيسى بشرا كثيرا ، وأبث فيهم أهواء مختلفة ، وأجعلهم شيعا ، ويجعلونك وأمك إلهين من دون الله .

١٢

« ورسولا إلى بنى إسرائيل »

(قرآن كريم)

« لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »

(متى ١٥ : ١٤)

الناصرة غارقة فى الصمت ، تطوف بها أحلام . راح الناس فى النوم ، حتى نجوم السماء هجعت ، فقد كانت ليلة لم يبزغ فيها نجم ، وفى ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلى ، فإنها خرج إلى يحيى بن زكريا، الذي بعثه الله بشيرا بملكوت السماء ، وتقضت أيام وليال وأسابيع ولم يرجع عيسى إليها ، كان اليقين يملؤها أن أوان بعث ابنها قد آن ، ولكن تلك الغيبة أقلقتها ، إنها لم تفارقه منذ وضعته ، وإنها لتذكر مرارة الأيام الثلاثة التى فقدته فيها ، وهو جالس فى الهيكل بين العلماء ، وإنها لترجو أوبته ليعود إليها الاطمئنان .

كانت العيون غافلة إلا عينى مريم فى بيتها الراقد فى تواضع عند أقدام التلال ، وعينى عيسى وهو فوق الجبل ، قد تعلقت بالرجاء .

وتوافدت إلى رأس عيسى الأفكار ، الى أين يذهب بعد أن بعثه الله رسولا؟ إلى بنى إسرائيل ؟ أيذهب إلى الناصرة تلك القرية المغمورة فى الجليل ، وينطلق إلى حانوت النجار يدعو الناس منه إلى عبادة الله ؟ أيقوم بين الناس داعيا إلى الهدى، وما قام بينهم واعظا قبل الآن ؟ ونبتت فى جوفه رهبة ، ولكن ما كان له بعد أن أيده الله بروح القدس أن يخاف .

وقفزت إلى ذهنه صورة يحيى وهو فى مدرعة الشعر ، ناحلا من التقشف والوجد ، يعظ فى قوة ، لايهاب أحدا ، ولايخشى بطشا ، ينزل القوارع بالفريسيين ويهاجم دولة المال ، فأمدته تلك المشاهد، التى تتوافد على رأسه، بقوة وعزم أكيد ، فاتضح الطريق أمام عينه ؛ سيجوب المدن اليهودية داعيا إلى الرشاد ، موطدا النفس على احتمال الأذى والعذاب ، فما أحلى الاضطهاد فى سبيل الله .

وسار فى ذلك الفضاء العريض ، يحس كأنما ملئ علما وحكمه ، فالصحراء والحجارة والسماء تمده بألوان جديدة من التفكير ، وذلك الانطلاق فى الفلوات لم يعد عزلة وانقطاعا ، بل صار مؤانسة ، فما كان فى تلك الفلوات وحده ، بل كان فيها مع العليم الخبير .

وفى الطريق لاحت له أرباض مدينة ، فيمم شطرها ، ودخلها ليدعو أهلها إلى الصلاح ، وألفى الناس فى السوق غادين رائحين ، فاعتلى مكانا عاليا ، وراح يقول:

— يابنى إسرائيل ، يابنى إسرائيل .

فاجتمع الناس إليه يصغون ، فقال :

— يا بنى اسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

فارتفعت أصوات تسأله :

— من أنت ؟

— إنى رسول الله إليكم .

— وما أدرانا أنك رسول ؟

— جئتكم بمعجزة من ربكم .

— وما هى ؟

— أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير[1] ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله.

وأخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير ، ثم نفخ فى الطين ، فدبت الروح فيه ، وطار فى الجو ، وعيون الناس معلقة به ، وعقد الدهش ألسنتهم ، وبانت فى وجوههم الحيرة ، وظلوا فى ذهول حتى سرى همس :

— هذا سحر .

وأفاقوا من دهشهم ، فقالوا فى توكيد :

— إن هذا إلا سحر مبين .

وانفضوا من حوله وتركوه وحده ، وابتعد عنهم رويدا رويدا وهو حزين ،

---

(١) ذكرت فى إنجيل توما وإنجيل الطفولية . ولم تذكر فى الأناجيل الأخرى لأنها وقعت قبل إيمان الحواريين بعيسى .

إنه يدعوهم إلى النجاة ، فيعرضون عنه ، ولو أنه دعاهم إلى الضلال لأقبلوا عليه يتسابقون .

وأطرق يفكر فيما كان ، إنه دعا الناس فجاءوا يصغون إليه ، وتركوه يبلغ رسالات ربه ، فإذا كانوا لم يؤمنوا بما قال ولم يصدقوه ، فسيأتى يوم يسارعون إليه وقلوبهم عامرة باليقين ، فرأى أن يعتصم بالصبر ، فالصبر من عزم الأمور .

وغابت الشمس ، وراحت تختفى وراء تلال الناصرة ، فبدت أشجار التين والزيتون نابتة فى الشفق كأنما لصقت على لوحة فى لون العقيق ، فخفق قلبه وأغذ السير . أحس شوقا إلى أمه ، ورغبة فى أن يفضى إليها باصطفاء الله إياه ، وبعثه رسولا إلى بنى اسرائيل .

وانساب فى طرقات الناصرة ، وقد سيطر السكون ، ونشر الليل ألويته ، ودلف إلى البيت ، فلما رأته مريم هرعت إليه تضمه إلى صدرها فى حنان ، وجلسا فى جوف الليل يتناجيان ، وقال لها فيما قال :

— وفيما أنا فى صلاتى وابتهالى فوق الجبل ، سقط من السماء نور باهر ، وإذا بجبريل الأمين يخبرنى أن الله بعثنى رسولا إلى بنى اسرائيل .

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

— سأغادرك يا أماه لأبلغ الناس أوامر الله ، وسأحتمل اضطهادهم وتكرانهم وتكذيبهم فى سبيل الله ، لن أستطيع بعد اليوم أن أقيم معك ، وأن أعاونك بخدماتى ؛ لم أعد يا أماه لك ، بل أصبحت لله .

ونظر إليها فألفى فى عينيها دموعا ! فحسبها تبكى لفراقه ، فقال لها :

— لا تبكى يا أماه .

— هذه دموع الفرح ، إنى نبئت يا بنى بكل ذلك قبل أن تولد .

فقال عيسى لأمه فى رجاء :

— صلى يا أماه لله من أجلى ، وابتهلى إليه أن يؤيدنى ويثبتنى ويمدنى بنصر من عنده ، صلى يا أماه ، فصلاتك درعى .

فقالت مريم فى حرارة :

— فليباركك رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، كما بارك آباءك .

وسجدا يصليان لله فى جوف الليل ، وقد غرقت الناصرة فى الصمت .

١٣

« وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين »
(قرآن كريم)

انتقل هيرودس أنتيباس إلى عاصمته الجديدة طبرية ، إنه حاكم الجليل ، ولكنه يريد أن يرتفع بعاصمته ، ليجعلها قطعة من روما ، فجعل فيها الملاعب وأحواض السباحة والمسارح والملاهى ، وبث فيها الحدائق ، فهو يقتفى آثار أبيه هيرودس الأكبر فى التقرب من روما ، وفى خضوعه لنزواته وشهواته . وكان معجبا بأبيه ، فراح يستمد منه وحيه ويحاكيه .

وكان يظهر لليهود أنه من حماة الشريعة المخلصين ، فإذا ما جاءت الأيام المقدسة ، ذهب خاشعا إلى الهيكل بأورشليم ، يقدم أنفس الضحايا والقرابين ، فإذا ما ضاق بالتظاهر بالتقوى والدين ، ترك قصره وذهب إلى قلعة ماكيروس القائمة على تل عال متحدية صحراء بتراء ، وهناك يتحرر من قيوده ، ويعيش لشهواته ونزواته، وهو آمن من أن يطلع عليه أحد اليهود ، فهذه القلعة قائمة فى أرض سدوم ، وكانت مدينة زاهرة دمرها الله بخطيئة أهلها ، وما كان بنو إسرائيل يدخلون أرضا حلت عليها لعنة السماء .

كان يتظاهر لليهود بتقواه ، وإن كان فى قرارة نفسه يشتهى أن يكون فى هيئة رومانى أصيل ، يتكلم اليونانية واللاتينية ، ويرتدى ثياب الأسياد ، ويقوم مثلهم بالحفلات ، ويتخذ لنفسه بلاطا من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولكن سحنته وعينيه السوداوين اللتين ورثهما عن أمه السامرية تفضحه وتصرخ به أنه رجل شرقى ، نابت فى لفحة الصحراء .

وتأهب للخروج إلى روما لمقابلة طيباروس إمبراطور الرومان ، ليقدم له فروض الولاء ، وقبل أن يخرج جاء إليه رسل السنهدرين الذين بعثهم إلى الأردن

ثيروا ذلك الصوت المنبعث فى البرية يبشر الناس بقرب ملكوت السماء ، وقالوا له إن ذلك الرجل يفتن الناس ، ودعواه تهدد الأمن العام . فهو يبشرهم بنبى جديد ، يستل الملوك من عروشهم ، إنه يحضهم على الثورة ضد المال والسلطان .

وفكر هيرودس أنتيباس فى ذلك الثائر الجديد ، فهاجت وساوسه ، وخشى إن سافر وهو طليق أن يقلب القوم عليه ، فإذا عاد وجده قد أفسد الناس . فأمر جنوده أن يقبضوا عليه ، وأن يسجنوه فى قلعة ماكيروس .

وانطلق جنود أنتيباس إلى الأردن ، وألقوا القبض على يحيى الذى كان يبشر بملكوت الله ، وانفض الناس من حوله ، ليتجمعوا فى جبال السامرة معلنين سخطهم على ماحاق بنبيهم الذى أحبوه وآمنوا به ، ووجدوا فيه المبشر بالخلاص .

لم تكن السامرة تحت حكم أنتيباس ، بل كانت تحت حكم بيلاطس ، وكان بين أنتيباس وبيلاطس جفوة ، كان كل منهما ينتظر أن يبدأ زميله بزيارته ، بعد أن عين حاكما على ولايته ، فكل منهما يحسب نفسه أعظم شأنا من زميله ، ولم تقع الزيارة المرتقبة ، فتغيرت النفوس ، وحل الجفاء .

بعث بيلاطس جنوده إلى الثائرين اللائذين بالجبال ، وقتل بعضهم وفرق شملهم ، ولكنه كان يخشى أن يعود الناس للثورة فأرسل إلى أنتيباس ليرى رأيه فى ذلك الرجل الذى سجنه ، والذى تعلقت به قلوب المؤمنين المتعصبين .

شغل هيرودس أنتيباس بذلك السجين الذى لا يملك من دنياه إلا مدرعته من وبر الجمل ومنطقته من جلد ، وبيانا يزلزل عروش الطغاة ، إنه لو أطلق سراحه جمع قلوب المتعصبين حوله ، وهدد ملكه بالزوال ، وإذا أبقاه فى سجنه أوغر صدور الناس ، فرأى أن لا يشتط ، وأن يدع للصدور الفائرة بالحماسة منفذا ، فصرح بأن يزور يحيى حواريوه ، وأن يبعث إلى الشعب من سجنه بما يشاء .

وأقبل يوم السفر إلى روما ، فجاءت تودعه زوجته ابنة الحارث أمير العرب ، فى جمالها الشرقى الأخاذ ، فرنا إلى عينيها السوداوين الواسعتين ، وإلى وجهها الذى استدار كبدر ، وإلى شعرها الذى بدا كليلة حالكة من ليالى الصحراء المظلمة ،

فرفت على شفتيه ابتسامة لم تكن منبعثة من القلب ، فقد سئم ذلك الخيال ، وهو يرجو أن يجد فى روما مفانن تجدد شباب الفؤاد .

ونزل على الإمبراطور طيبار يوس ضيفا عزيزا . وفكر وهو فى روما أن يزور أخاه فيليبس الذى حرمه هيرودوس الأكبر من الميراث ، فعاش فى روما عيشة الرومان . دخل هيرودوس على أخيه فيليبس ، فأعجبته هيروديا زوج أخيه ، كانت رائعة الحسن ، أندى من الندى ، وانضر من أزهار الربيع ، كانت ذات جمال يعبث بالأفئدة ، وتهفو إليه القلوب . راح يحادث أخاه ، ويرنو إلى زوجه فى إعجاب ، ويرمقها فى اشتهاء ، وتلاقت عيناه الواهتان بعينيها ، فأحست حرارتهما ، وفهمت لغتهما ، فرفت على شفتيها ابتسامة مشجعة ، واشتعلت عيناها برغبة طائشة مغرية ، زادت حب هيرودوس ضراما .

كانت هيروديا مغامرة ، تهفو إلى أن يزين تاج الملك جبينها ، وقد تقربت من البلاط الرومانى ، وصادقت الأمبراطور طيباروس لعلها تؤثر فيه ، وتقنعه أن يعين زوجها فيليبس حاكما على ولاية من ولايات فلسطين ، ولكنها لم تتمكن من تحقيق حلمها ، وها هو ذا هيرودس أخو زوجها وحاكم الجليل يغازلها ، ويفتح أمام أطماعها أبواب الأمل ، فما كان لها أن تنكص وتغلق ما يفتح أمامها من أبواب .

هام هيرودس بزوجة أخيه حبا ، وبادلته هيروديا ذلك الغرام ، فراحا يتلاقيان فى غفلة من العيون ، وملك حبه لها حواسه وسيطر عليه ، فلم يطق أن يعود إلى ولايته مسلوب الفؤاد ، فزين لها فى نجوى الهرب معه ، فقالت له فى خبث الحية :

— وزوجتك ؟

— أطلقها .

ما أيسرها من كلمة فى بيت هيرودس ، إن هيرودس الأكبر طلق وتزوج مرات ومرات ، حتى إن رجال الدين ضاقوا بذلك ، ورفعوا إليه أنهم يخشون ثورة الناس ، وإن هيرودس أنتيباس ، سر أبيه ، لا يجد فى طلاق زوجه أى أثم ، ما دام ذلك الطلاق يمكنه من إرضاء نزواته ، وإطفاء شهواته .

وفى غفلة من فيليبس ، الأخ المخدوع ، والمضيف الكريم الذى رحب بأخيه ، فر هيرودس وهيروديا وابنتها سالومى الصغيرة الجميلة ، التى لم تتفتح عن أكمامها ، ونزلت هيروديا القصر الرائع فى طبرية ، ولم تحتمل الزوجة العربية ، ابنة الحارث أمير العرب ، العار الذى لحق بها من جراء فعلة هيرودس الطائشة ، فالتمست من زوجها الاعتكاف فى قلعة ماكيروس حتى تهدأ غيرتها ، فسمح لها ليخلو له وجه هيروديا الساحرة .

امتلأت ابنة الحارث حقدا ، وما بلغت قلعة ماكيروس حتى فاض غضبها ، طعنها فى كبريائها ، ولن تنطفىء تلك الوقدة التى أججها فى أحشائها قبل أن تشعل ملكه نارا ، فقرت إلى صحراء بتراء ، إلى قلعة أبيها ، لتضرم نار العداوة فى قلب الحارث ، الذى ثار للإهانة التى ألحقها أنتيباس بابنته التى يحبها .

وتزوج هيرودس أنتيباس من هيروديا زوج أخيه فيليبس ، وابنة أخيه أرسطوبولس فى الوقت ذاته ، وغضب الشعب لذلك الزواج ، ولكن غضبه لم يبلغ القصر الصاخب بالوفود الرومانية والعلماء والفلاسفة والممثلين والراقصين ، الوافدين من روما ، ليزينوا بلاط هيروديا .

وضاق هيرودس بالحفلات والرسميات ، وأحس رغبة فى أن يتحرر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدنية ، إن الوحش القابع فى أغواره يلح عليه أن يبدو فى صورته الحقيقية ، فدعا هيروديا إلى قصره بقلعة ماكيروس ، بعيدا عن أعين الفريسيين المتزمتين ، وإن كان يتظاهر أمام شعبه أنه من شيعتهم ، وأنه مثلهم متمسك بحرفية الشريعة الموسوية !

وبلغا القصر ، وأطلت هيروديا من القلعة الشاهقة ، المطلة على الصحراء المترامية . كانت كحارس ساهر على حدود الجليل الفاصلة بين أنتيباس والحارث أمير العرب . وقعت العداوة بينهما ، فما كان لذلك الحارس أن يغفل أو ينام .

وظهرت أمام عينيها أشجار النخيل الباسقة ، بسعفها الأخضر ، وأشجار الزيتون وكروم أريحا اليانعة ، وراحت تجوب خلال القلعة ، فصكت أذنيها دعوات يحيى القوية ، فأحست شيئا غامضا ينبعث فى جوفها ، فعادت إلى هيرودس والتمست منه أن تصغى إلى ذلك الرجل الذى أغلقت دونه الأبواب .

تمدد هيرودس فى فراشه الوثير ، ووقفت هيروديا خلف الستار ، وجاء الحراس بيحيى ، فلم تبهره الطنافس الرائعة ، ولا الستائر الفاخرة ، ولا الحرير الذى يغوص فيه الملك ! بلغه ما فعله هيرودس ، فارتسمت فى وجهه صرامة وثورة للحق . نظر هيرودس إليه ، فمشت رهبة فى جوفه ، كان يهابه فى قرارة نفسه ، ولكنه شاء أن يتظاهر بالقوة ، فقال له فى صوت آمر :

— ألا تكف عن هذيانك ؟

فلم يأبه يحيى به ، بل قال له فى قوة ، أطارت ما كان يتشبث به من شجاعته الهاربة :

— اهجر هذه المرأة .

— لماذا ؟

— إنها لا تحل لك .

ولم يجد هيرودس ما يقوله ، فأشار للجنود أن يأخذوه ، وأطرق مهموما ، وخرجت هيروديا من وراء الساتر ، وذهبت إلى زوجها ، يتطاير شرر الغضب من عينيها ، وهتفت :

— كيف سمحت له أن ينطق بما نطق به ، مرهم أن يقتلوه .

ولكن هيرودس لم يفعل شيئا ، كان فى أعماقه يهابه ، ويخاف أن يمد إليه يد السوء ، إذا قتله ثار الناس عليه ، وحلت عليه لعنة السماء .

وعاد يحيى إلى سجنه ، وبذرت بذور الحقد والكراهية والمقت فى صدر هيروديا . . .

١٤

« وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » .

(قرآن كريم)

كانت حياته رحلة ، ولد فى بيت لحم ، ثم عادت به أمه إلى الناصرة وما استقر بها حتى جاء الأمر بالخروج ، فهرب يوسف ومريم به إلى مصر ، وما درج على أرضها حتى عاد إلى الناصرة ، يخرج فى المواسم إلى أورشليم . كانت حياته الأولى رحلة تتخللها فترات من الراحة والاستقرار ، أما رحلة اليوم فلن تعرف الراحة ، سيذهب من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن جبل إلى جبل ، داعيا بنى إسرائيل إلى ربه الذى أرسله رسولا يبشرهم بملكوت السماء . لن يستقر فى مكان ، ولن يتخذ له بيتا يأوى إليه ، سينام حيث يدركه النوم ، وحيث يجد أناسا يصغون إليه ، فقد انقضت أيام الدعة ، وأقبلت أيام الكفاح فى سبيل الله .

وغادر الناصرة ، وسار صوب الجليل ، واخترق الوادى الزاهر ، ومس أذنيه خرير الماء كتسبيح الملائكة ، ومس الجمال المكان بيده الساحرة ، فبدت الحقول زاهية ناضرة ، وقامت أشجار النخيل سامقة شامخة ، وامتدت الكروم رائعة تسر العيون ، وغردت الطيور ، وبدت البحيرة على هيئة قلب ممرد من قوارير زرقاء صافية .

ولاحت على شاطىء البحيرة الغربى الجبال الخضر . وامتدت على الشاطىء الشرقى الصحراء القاحلة الماحلة ، ومد بصره أمامه فرأى الجبال العالية تتوجها الثلوج الناصعة ، وسقطت أشعة الشمس عليها ، فبدت كمرمر مصفى .

وشيدت على الشاطىء الغربى مدن وقرى ، مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو أسماك ، فهى محاط للقوافل الذاهبة إلى الأردن ومصر وسورية ،

وكانت فى هذه المنطقة طبرية ، العاصمة التى شيدها أنتيباس ، وسماها بذلك الاسم متملقا الأمبراطور الرومانى طيباريوس ، فلا غرو والتملق ديدنه ، أن يطلق على المدينة التى يبنيها اسم العاهل الذى يستمد منه السلطان ، فقد سمى من قبل مدينته قيصرية ، إرضاء لأمبراطوره السابق ، قيصر .

ووقف على شاطىء البحيرة ينظر ، وهب النسيم يعابث الماء ، فطفا الزبد على سطح البحيرة كالحبب ، وأقبلت مراكب الصيادين تتهادى ، ووضحت أصوات المجاديف ، وراحت الشمس تبعث إلى الأرض آخر أنفاسها وتصبغ الشفق بالذهب ، إيذانا بانتهاء يوم العمل .

وازدحم الشاطىء بالناس ، فقام عيسى يعظهم ويدعوهم إلى الله ، إن ما يقوله لم يكن جديدا على أسماعهم ، فقد سمعوا مثله فى المعبد ، ولكنه يمتاز بشىء ، يمتاز بالحرارة التى تصهره ، فتجعله يبدو قشيبا ، كأنما يلقى فى أسماعهم لأول مرة .

كان فى نبراته قوة ، وفى صوته صدق ، وكلماته تتدفق من القلب لتصب فى القلوب ، فأحسوا نحوه انجذابا وإعجابا ، ولكن ذلك الإعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لأول وهلة .

وبين هؤلاء الجموع وقف صيادان يصغيان ، كان للكلام وقع السحر فى أنفسهما ، خيل لهما أنه يدعوهما وحدهما ، تفتحت له قلوبهما ، وتعلقت به أبصارهما ، وأريق فى جوفهما نور ، فقد أوحى الله إليهما أن آمنا بى وبرسولى ، فآمنا به وصدقاه .

وانفض الناس من حوله ، وسار وسار فى أثره أندراوس ويوحنا ، وسمع وقع أقدامهما ، فالتفت إليهما وقال فى رقة :

— ماذا تطلبان ؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد ، ولكن ارتج عليهما ، فقالا :

— أين تسكن ؟

لم يكن له دار ، جاء يدعو إلى الله ، وينام فى الفضاء فى حراسة الله ، فقال لهما :

— تعاليا وانظرا .

جلسا يصغيان إليه . وهو يبشرهما بملكوت السماء ، فأحسا سعادة . إن كل كلمة ينطقها تمس شغاف الفؤاد ، وظلوا فى مناجاة حتى تصرم الليل ، فانصرف أندراوس ويوحنا ، وقد شهدا أن عيسى رسول الله .

ذهب أندراوس ينقب عن أخيه سمعان ليبشره بظهور نبى بعثه الله رسولا إلى بنى اسرائيل ، وترقب يوحنا بن زبدى عودة أخيه يعقوب ليخبره أن عيسى الذى نامًا معه عند عين غانم ، يوم خروجهم إلى أورشليم هو الأمل المرتقب الذى ينتظره اليهود .

وأقبل سمعان ، وقد شرح الله قلبه للإيمان ، فما تحدث إليه عيسى حتى صدق ما يقول ، فقد أوحى الله إليه أن يؤمن به وبرسوله .

ووفد نثنائيل إلى الجليل ، وكان رجلا صالحا ، فذهب إلى شجرة التين ، وراح يصلى وعيسى يرصده من بعيد . قرأ « الكريشما » وهى خدمة الصلاة اليومية فى خشوع ، وابتهل إلى الله من قلبه ، فشعر بروحه تتفتح ، وبالدنيا حوله تزهو ، أحس كأنما رد إليها شبابها ، وكأنما سرى فيها روح .

وذهب عيسى إلى البحيرة ، وصادف شابا صيادا ، فوقف يحادثه قليلا ، ثم قال له فى رقة :

— اتبعنى .

فترك فيلبس شباكه ومركبه ، وتبع عيسى كظله ، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله إليه الإيمان والتصديق .

واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتبعوه ، وراح يصلى لله ويناجيه ، فتشف روحه ، ويسكن قلبه إيمان عميق ، وانطلق فيلبس يبحث عن صديقه نثنائيل ، فلما قابله ، قال له فى حماسة :

— إن الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه .

— عمن تتحدث ؟

— عن النبى الجديد .

— وأين وجدته ؟

— هنا ، فى الجليل .

— ومن هو ؟

— عيسى ابن مريم ، من الناصرة .

فقال نثنائيل فى استخفاف :

— من أين ؟

— من الناصرة .

فقال نثنائيل وعلى فمه بسمة :

— أيخرج من الناصرة شىء صالح ؟ !

كانت الناصرة حقيرة فى الجليل ، أهلها فقراء فى العلم والمال ، لا يخرج منها إلا نجارون وقرويون بسطاء ، يتعلمون ولا يعلمون ، فمن أين جاء هذا الناصرى بمواعظه التى يتحدث عنها فيلبس .

أصغى نثنائيل إلى فيلبس فى عجب ، فكل ما يقوله عجيب ، حتى فيلبس لاح فى عينى صديقه عجيبا ، لم يعرفه متدفقا فى حديثه كما هو شأنه اليوم ، ما كانت له حرارة الكلمات التى تخرج فى قوة من بين شفتيه ، وما قال له : « تعال وانظر » حتى ألفى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ .

وجاءوا إلى عيسى ، فرنا إلى نثنائيل وقد أشرق وجهه بالنور وقال :

— هاهو ذا إسرائيلى لا غش فيه .

فعجب نثنائيل وقال له :

— من أين تعرفنى ؟

— رأيتك وأنت تحت التينة ، قبل أن يدعوك فيلبس .

وأصغى نثنائيل إليه منشرح الصدر ، أحس كأن بلسما مس روحه ، وكأن صوتا آتيا من السماء يدعوه إلى الإيمان والتصديق ، فقال فى انفعال :

— أشهد أنك رسول الله .

وهجر الصيادون شباكهم ، ووهبوا أنفسهم لله الذى أوحى إليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، وذهبوا مع عيسى يصطادون الناس .

١٥

« إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم »

(قرآن كريم)

خوار ثيران ، وثغاء أغنام ، وهدير حمام ، ورائحة الروث تتصاعد فى المكان تزكم الأنوف ، وأصوات ترتفع هنا وهناك ، هذا يتحدث باليونانية ، وذاك بالرومية وثالث بالعبرية وآخر بالفرعونية ، حتى ليخال السامع أن سوقا من أسواق بابل دبت فيها الحياة .

وتحت الأقبية جلس الصيارفة ، يشع الجشع من عيونهم ، وأمامهم موائد عليها أعمدة من الفضة ، وأكداس من العملات الأجنبية ، وانبعث رنين النقود ، فكان نغمة من آلاف النغمات المتنافرة المدوية .

وسرت تراتيل اللاويين وصلوات الكهنة ، وامحت فى محيط الضوضاء ، فما كان المكان سوقا عامة ، بل كان الحرم المقدس فى الهيكل المقدس ، ساق إليه التجار ثيرانهم وأغنامهم وحمامهم ، ليبيعوها للحجاج الوافدين فى الفصح إلى أورشليم ، ليقدموا إلى الله القرابين ، وجلس الصيارفة أمام موائدهم يبدلون للحجيج نقودهم بالشاقل الإسرائيلى ، على جعل قدره خمسة فى المائة ، فقد فرض على كل إسرائيلى ، غنى أو فقير ، نصف شاقل فدية ، وكان يجمعها الكهنة ، وخوفا من أن تدفع لهم بالعملات النحاسية أو البرونزية أو بعملات أخرى قد يضطرون إلى مبادلتها بالجعل المقرر — وفى ذلك خسارة لهم — لذلك حددوها بشاقل إسرائيل ، ومنحوه القدسية ، لأن عصا هارون ضربت على وجهه ، وضرب على الوجه الآخر قدر المن على شكل كأس ، وكتب حوله بالسامرية : «شاقل إسرائيل» . وماقدسه فى نظر الكهنة إلا فضته النقية !

وثبتوا فى أذهان الناس أن حراما أن تدخل هيكل الرب ويدك خالية ، كأنما الغنى الوهاب فى حاجة إلى أعطيات الناس ، وكأنما من يرزق عباده يسترد لنفسه بعض ما وهب . إن الله غنى عن عباده ، أما الكهنة فعلى الرغم من غناهم ، كانوا فقراء إلى مافى أيدى الناس ، وإن كانوا محاويج يحرمون أنفسهم القوت ليشتروا لمن يتسترون خلف اسم الله هدية ، الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم .

والفريسيون المتزمتون المنطلقون فى الطرقات يتجسسون على الناس ، ليتحققوا أن كل شىء نظيف وطاهر ، كما تقضى الشريعة الموسوية ، لم تزكم أنوفهم رائحة الروث فى الحرم المقدس ، فتجار الثيران والأغنام من الأغنياء وما كانت أخطاء الأغنياء تثير ثائرة الفريسيين ، حتى هلليل وشماى وكبار رجال الدين لم يجدوا فى قذارة الهيكل ما يخدش قدسيته وجلاله !

وفى طرقات أورشليم تدفق الحجاج ، المصريون فى ثيابهم الفرعونية ، والسوريون فى أرديتهم الوطنية ، والأغنياء فى ثيابهم الغالية ، والفقراء فى أسمالهم البالية ، والجنود الرومان فى غدو ورواح ، ينظرون إلى البحر المتلاطم من الأجناس المتباينة ، جاءوا يقدمون خشوعهم لله .

ووفد حجاج الجليل ، النساء المحجبات على ظهور الحمير والبغال ، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون جماعات ، والصبيان يلعبون فى مرح ، وبين تلك النساء كانت مريم . كانت فى كل فصح تذهب إلى الهيكل المقدس . الإيمان العميق يسكن قلبها ، أما فى هذا الفصح فقد دخلت المدينة المقدسة وقلبها فى جوفها يخفق كجناح حمامة ، الرهبة تكتنفها ، والقلق يسرى فيها ، كانت تعلم أن ابنها سيقدم إلى أورشليم يعرض نفسه على الناس ، ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه .

دلف عيسى إلى الهيكل ، فإذا التجار يحتلون رواق الأمم ، رأى فيه هذه الثيران والأغنام وهو صغير ، وأحس يومها امتعاضا ، ولم يفعل شيئا غير الامتعاض ، فما كان له سلطان ، أما اليوم فهذا المشهد يحرك غضبه . لم يعد ذلك الغلام الذى لا يملك إلا الأسى ، إنه رسول الله ، وما كان يقبل أن يتحول بيت الله إلى سوق للبيع والشراء .

عزم على أن يطهر الحرم المقدس من الثيران والأغنام والتجار والصيارفة ، ويعيده كما كان ، مكانا للعبادة والتقديس ، فتلفت فوجد حبالا على الأرض فتناولها وصنعها سوطا ، وراح يطرد الخراف والثيران حتى إذا خلا المعبد منها ، ذهب إلى تجار الحمام ، وقال لهم فى صوت آمر :

— ارفعوا هذا من هنا .

أذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا ، كانوا فى أعماقهم يشعرون أنهم مخطئون ، فما كان الحرم مكان بيع وشراء ، وما عاونهم على الاسترسال فى خطئهم إلا أنهم لم يجدوا من يردهم عن غيهم ، فما أيسر هزيمة الرذيلة إذا دفعتها الفضيلة بيد قوية ، وما أسرع أن ينجاب الظلام إذا سلط عليه النور .

وذهب إلى موائد الصيارفة وقلبها ، فتبعثرت الشواقل الفضية المقدسة ، وجرت النقود تختفى فى الروث ، وصاح الصيارفة فى فزع ، ولم يحتجوا على ذلك الذى لم يدروا بأى سلطان يطردهم ، كانوا على أموالهم مشغولين .

وتجمهر الناس يرقبون ذلك الثائر لكرامة الهيكل ، وقد ملئت أفئدتهم إعجابا ، ورنا الفريسيون والكهنة إليه فى غيرة ، ضايقهم أن يقوم جليلى فقير على تلك الثورة التى صادفت فى نفوس الحجاج هوى ، وزاد فى غيرتهم التفاف الناس حوله ، وإلقاء السمع إليه .

ودخل عيسى إلى الهيكل يصلى ، وسارت الجموع خلفه ، فلما أتم صلاته ، دنا منه رجل وقال له :

— إن الشعب يحب أن يسمعك .

وتقدم عيسى يعظ الناس ، هرعت الجماهير إلى المكان حتى ضاق بهم ، وجلست مريم فى الشرفة العلوية المخصصة للنساء ، تلك الشرفة التى طالما جلست فيها تصغى إلى الوعاظ قبل أن تبشرها الملائكة بابنها الماثل أمامها كملاك . وانبعثت فى جوفها إحساسات متباينة ، واستشعرت فرحا ، ولكن لم يكن ذلك الفرح خالصا ، فقد امتزج برهبة ، وطأطأت رأسها فى خشوع وغابت عما حولها لحظة ، صلت فيها لله ، وابتهلت إليه أن يمد ابنها بتوفيقه ، وأن يؤيده بنصره .

ارتقى الشرفة مهيبا قويا ، تلك الشرفة التى ارتقاها قبله علماء وكتبة ، وأشار

بيده أن اصمتوا ، فعرق المكان في الصمت ، فقال في صوت قوى يمتاز بحرارة الإيمان :

تبارك اسم الله القدوس ، الذى من جوده ورحمته أراد ، فخلق خلقه ليمجدوه .

تبارك اسم الله القدوس الذى خلق نور جميع الأنبياء والقديسين ، قبل كل الأشياء ، ليرسله لخلاص العالمين ، وقال على لسان داود : « قبل كوكب الصبح فى ضياء القديسين خلقتك » .

تبارك اسم الله القدوس الذى خلق الملائكة ليعبدوه ، وتبارك الله الذى خذل الشيطان وأتباعه ، الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يسجد له .

واستمر عيسى فى موعظته ، واشتد على الشعب ، لأنهم نسوا أوامر الله ، وعنف الكهنة لجشعهم ، ووبخ الكتبة الذين تركوا التعاليم الصحيحة ليعلموا الناس تعاليم باطلة زائفة .

وأثرت موعظته فى الناس ، فجرت دموعهم على خدودهم ، وانهمرت دموع مريم ، واستشعر الشعب رهبة ، وأحسوا الله فى أنفسهم ، فقد كانت موعظته قوية تمس أوتار القلوب ، أما الفريسيون والكتبة والكهنة فامتلئوا غيظا ، وتحركت بغضاؤهم ، نال منهم على ملأ من الحجاج ، ولكنهم كتموا ما فى قلوبهم خشية من ثورة الناس إذا مسوه بسوء ، وكان أعضاء السنهدرين حاضرين يسمعون ، فحقدوا عليه إلا نيقوديموس ، كان لكلامه وقع فى نفسه جميل .

كان نيقوديموس غنيا حكيما ، وثالث عضو فى السنهدرين ، أثرت فيه دعوة عيسى ، وأحس رغبة فى أن يصغى إليه ، ولما كان عالما كبيرا ، خشى أن يجلس إلى جليلى فقير أمام الناس يتلقى منه علما وحكمة .

تريث حتى إذا أقبل الليل خرج متسترا بالظلام ، وجاء إلى عيسى ، فألفاه يبشر بملكوت الله ، فقد كان يبشر ، كما كان يحيى يبشر ويقول : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » . كان عيسى بشيرا ، يدعو قومه إلى التأهب لذلك اليوم الذى يأتى فيه ملكوت الله ، إلى اليوم الذى ينزل الله فيه الذكر ويحفظه بين الناس .

لم يكن عيسى صاحب رسالة جديدة ، فما جاء لينقض الشريعة الموسوية ، بل جاء يكملها ، وكان يتلقى وحى السماء فيحدث به قومه ، ولم يكتب منه حرفا ، فقد كان يهيء بنى إسرائيل بذلك الوحى ليوم آت ينزل فيه الله دينه ، ويوحى فيه كتابه ، ويحفظه إلى أن تزول الأرض والسماء ، ذلك هو ملكوت الله .

دنا نيقوديموس من عيسى ، وألقى إليه سمعه ، فراح عيسى يحاوره ، ويجاذبه أطراف الحديث ، فقال نيقوديموس :

— نعلم أنك أتيت من الله معلما .

فقال له عيسى ، وهو مقبل عليه :

— الحق الحق أقول لك ، إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله .

لم يفهم العالم الكبير ما يقوله عيسى ، فقال متعجبا :

— كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد ؟

لم يفهم العضو الثالث فى السنهدرين أنه يكفى للدخول فى اليهودية الولادة من الماء ؛ أن ينزل المرء من صلب يهودى ، أما الدخول فى ملكوت الله فلابد له من ولادة جديدة ، من روح جديدة مؤمنة ينفخها الله فى المؤمنين ، فقال له عيسى :

— الحق الحق أقول لك ، إن كان أحد لا يولد من الماء والروح ، لا يقدر أن يدخل فى ملكوت الله ، المولود من الجسد هو جسد ، والمولود من الروح هو روح ، لا تتعجب إنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق ، الريح تهب حيث تشاء ، وتسمع صوتها ، ولكنك لا تعلم من أين تأتى . ولا إلى أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح .

لم يفهم الفريسى الكبير أن الله يملأ قلوب المؤمنين بروح قوية ، روح مؤمنة جديدة غير الروح التى نفخها فيهم يوم خلقهم من ماء ، هذه الروح العلوية تجعلهم خلقا جديدا ، خلقا صالحا للدخول فى ملكوته ، فى دينه الذى سيبعثه هداية للعالمين ، فقال نيقوديموس :

— كيف يمكن أن يكون هذا ؟

فقال له عيسى فى دهش :

— أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا ؟ الحق الحق أقول لك ، إننا إنما نتكلم بما نعلم ، ونشهد بما رأينا ، ولستم تقبلون شهادتنا . إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون ، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات ؟

قال له عيسى إننا — نحن الرسل — نتكلم بما يوحى إلينا نحدثكم بما نحسونه فلا تصدقوننا ، أفتصدقوننا لو حدثناكم بالغيب الذى فى السماء ؟

أ كان عيسى يحدثه بذلك الغيب ، ويقول له سيأتى آخر مثلى يؤسس ملكوت الله ، وذلك الإنسان لا يزال فى السماء حتى الآن ، يبعثه الله هداية ورحمة ؟ !

وقام نيقوديموس من عنده وهو مؤمن أن عيسى رسول الله ، أرسله إلى قومه بشيرا ، وانطلق وكلمات عيسى ترن فى أذنيه ، يزيد فى روعتها ذلك الغموض الذى يدثرها .

obeikandl.com

١٦

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »
(قرآن كريم)

الفريسيون يرصدون فعاله بعين الشر ، والناس يصغون إليه فى إعجاب ، ولا شىء بعد الإعجاب ، كان أدرى الناس بالناس ، إنهم يلقون إليه السمع ، وينفعلون بما يقول ، ولكنهم لرؤسائهم الروحانيين ينقادون ، فإذا اشتدت العداوة بينه وبين الفريسيين والكتبة وأعضاء السنهدرين ، فسيخلون بينه وبينهم ، ولن يفزعوا لنصرته أو يمدوه بالعون والتأييد ، فرأى أن يغادر أورشليم معقل الكتبة والفريسيين المرائين ، وأن يذهب إلى الجليل يبشر الناس باقتراب ملكوت السموات ، فإذا كثر تابعوه ومؤيدوه ، جاء إليهم عزيز الجانب ، يناوئهم فى معقلهم ، تظاهره قوة تعاونه على إظهار الحق المبين .

هبط من التلال العالية التى شيدت فوقها أورشليم ، يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيلبس وصديقه برثولوماولس ، الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، وانطلقوا مع الطريق ، فإذا انحنى فى حدة انحنوا معه ، وإذا انساب فى يسر انسابوا فيه ، وإذا صعد فى جبل ، راحوا يصعدون ، وعند الآبار كانوا يحطون الرحال ويستريحون .

خرجوا من اليهودية ، ووقفوا على حدود السامرة ، وأراد التلاميذ أن يدوروا حولها ، فما كان اليهود يدخلونها ، فهم يحتقرون السامريين ، ويضعونهم فى مصاف الوثنيين ، لأنهم يعتنقون مذهب غاريزيم ، ذلك المذهب الذى لا يعترف إلا بالإصحاحات الخمسة التى نزلت على موسى ، أما المزامير وأما ما كتبه مردخاى فلا يعترفون به ، فالتوراة نزلت على موسى ، فكيف يكتب موسى ما وقع بعد موته ؟

كان اليهود يبغضونهم من سويداء قلوبهم ، ويجدون وزرا فى محادثتهم ، حتى

إذا سقط ظل سامرى على واحد منهم ، أوجب ذلك التطهير من النجس الذى حل به . وقالوا «إن قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى . هى قطعة من لحم الخنزير» .

لم يلتفت عيسى لتلك الأوهام . فراح يخترق السامرة ، حتى إذا بلغ منه التعب ذهب إلى شكيم (نابلس) .

كانت الشمس فى كبد السماء . ترسل أشعتها الحامية . فيتفصد العرق من الوجوه . ونظر عيسى حوله يبحث عن مكان يستريح فيه ، فألفى بئر يعقوب ، تظللها أشجار التين . فانطلق إليها وجلس على حافتها يستروح النسمات التى كانت تهب بين الحين والحين .

وبقى عيسى فى ذلك المكان وحده ، ذهب تلاميذه إلى المدينة يشترون طعاما ، ونام الكون فى تلك القيلولة . وهدأت الطبيعة ، ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة وقد شيد على الجبل لينافس أورشليم ، ففى ذلك المكان ، كما جاء فى سفر التكوين ، فى ديار « شكيم » سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لله رب العالمين .

إنها بقعة مباركة ، جاء إليها يعقوب ونصب فيها خيمة . وأقام مذبحا دعاه إيل إله إسرائيل ، وجاء إليها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، إنها بقعة عاطرة بالذكريات النبوية . توصى بالتأمل والتفكير .

ومد عيسى بصره إلى الوادى الأخضر ، وإلى الأشجار الشامخة ، وإلى سنابل القمح المتماوجة فى ضوء الشمس كنهر من التبر ، فأحس راحة لذيذة بعد التعب المضنى الشديد .

وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها ، فقال لها عيسى :

— أعطينى لأشرب .

عجبت السامرية لذلك الطلب ، وترجمت عن عجبها بقولها :

— كيف تطلب منى لتشرب . وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية ؟

فقال لها فى هدوء :

— لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب ، لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا .

فنظرت المرأة إلى البئر العميقة ، وقالت له فى استخفاف :

— يا سيد ، لا دلو لك . والبئر عميقة ، فمن أين لك الماء الحى ؟ لعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر ، وشرب منها ، هو وبنوه ومواشيه ؟

فأراد عيسى أن يرفعها من الماديات إلى المعنويات ، أن يرفع هذه السامرية الفقيرة ، كما رفع نيقوديموس معلم بنى إسرائيل ، وثالث أعضاء السنهدرين ، فقال لها :

— كل من يشرب من هذا الماء يعطش . ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا ، فلن يعطش إلى الأبد ، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع إلى حياة أبدية .

أحست المرأة أنها فى حضرة حكيم ، فقالت وقد اختفت نبرات الاستخفاف من صوتها :

— أعطنى هذا الماء لكيلا أعطش ، ولا آتى هنا لأستقى .

— اذهبى ، وادعى زوجك ، وتعالى ههنا .

— ليس لى زوج .

فنظر إليها عيسى قليلا ثم قال :

— حسنا قلت ليس لى زوج ، لأنه كان لك خمسة أزواج ، والذى لك الآن ليس هو زوجك .

أطرقت المرأة قليلا ، فقد كشف عيسى عن سر حياتها الخليعة ، كانت تبيع نفسها ، فغمغمت :

— أنت نبى .

إنها فى حضرته تحس خزيا ، ورفعت رأسها فوقع بصرها على المعبد الذى أقامه السامريون لمنافسة أورشليم ، فخطر لها أن تحول الحديث إلى تلك الناحية ، فأشارت إلى الجبل وقالت :

— آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل ، وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه .

نطقت المرأة المدنسة صدقا ، فهنا سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، أما أورشليم فقد فتحها داود ، ثم بنى ولده سليمان فيها هيكله . هذه البقعة أكثر قدسية من الهيكل ، فلماذا لا يحج إليها الناس ؟ أيحدثها عيسى عن أسرار رسالته كما حدث نيقوديموس ؟

حدثها عيسى عن ملكوت الله . عن دين الله القيم الذى سيختاره للعالمين ، فإذا جاء ذلك الدين فلن يسجد الناس فى أورشليم أو شكيم ، فلله المشرق والمغرب ، فأينما يول الناس وجوههم فثم وجه الله . راح يقول لها :

— يا امرأة صدقيى . إنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون لله ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون . أما نحن فنسجد لما نعلم .

وسواء أصدقته المرأة أم لم تصدقه ، فقد صدقه الزمان . جاء ملكوت الله : الدين القيم الذى جعل الأرض كلها مسجدا .

قالت له المرأة وقد تأثرت بما قال :

— أعلم أن المسيح يأتى ، فإذا جاء أخبرنا بكل شىء .

فقال لها عيسى :

— أنا هو الذى أكلمك .

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة ، ذلك المعلم الكبير ، الربى الصادق ، يخالف ما يقول به الربيون ، فقد كان محرما أن يتكلم الربى علانية مع امرأة ، حتى ولو كانت زوجته ، ولاح الدهش فى وجوههم ، فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب ، بل يحدث سامرية فاجرة .

ذهبوا إليه وقد كتموا دهشهم ، وفرت المرأة مخلفة جرتها ، وانطلقت إلى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذلك النبى الذى كشف لها عن أسرارها . ووضع التلاميذ الطعام أمامه وقالوا له :

— كل .

— أنا لى طعام لستم تعرفونه .

فالتفت التلاميذ بعضهم إلى بعض وقالوا :

— لعل أحدا أتاه بشىء يأكله .

فقال لهم عيسى ، مؤكدا رسالته :

— طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى ، وأتم عمله .

* * *

obeikandl.com

وجاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدفقون . وغص بهم المكان ، فراح يبشرهم باقتراب ملكوت السموات . فتفتحت قلوبهم له ، ودعوه أن ينزل عندهم يومين .

فقام عيسى وذهب يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيلبس ، وبرثولوماوس ، الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، ليمضوا يومين فى ضيافة السامريين أعداء اليهود ، غير آبهين لذلك المثل الذى يقول : « إن قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى هى قطعة من لحم الخنزير » .

obeikandl.com

١٧

« يابنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار »

(قرآن كريم)

بدا بحر جنيسارت الأزرق الهادىء كصقال مرآة ، ولاحت للعيون شمسان ، شمس فى السماء وشمس فى الماء . وامتدت حقول القمح وحدائق الفاكهة ، وكسيت الأرض حلة خضراء ، وزها الوادى بالألوان ، فقد كان مرتعا للجمال .

وعلى هذا البحر الصافى الرقراق يقع كفر ناحوم ، وهى مدينة لصيد الأسماك ، ومرفأ لتصدير فائض الجليل من القمح والزيت والصوف والفواكه ، فالمراكب تحمل البضائع ، ثم تبحر إلى الشاطىء الآخر ، حيث ولاية فيليبس ، ابن هيرودس حاكم الربع من قبل الرومان .

كان الرجال فى غدو ورواح ، الحمالون يحملون سلال الفواكه وأكياس القمح ، وينقلونها من الشاطىء إلى المراكب ، والبحارة فى ألوانهم النحاسية ، يتسامرون ، وتجلجل فى الفضاء ضحكاتهم الفضية ، والنساء ينشرن الشباك على أشجار التين العارية من أوراقها لتجفيفها ، وتجار السمك يجففونه ويرصونه على سعف النخل ، وما كانوا يأكلونه مكتفين بالتين والبلح ، فما كان التجار يأكلون رءوس أموالهم .

وراح محصلو الضرائب يمارسون أعمالهم ، يزنون كل ما يخرج إلى المراكب ويقدرون عليه الرسوم ، وما كانوا تابعين لسلطة واحدة ، بل كانوا فريقين ، فريقا يجمع الضرائب للرومان ، وفريقا يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أبهته ونزواته وشهواته .

وكان اليهود يمقتون هؤلاء الجباة من أعماقهم ، لطبيعتهم التى تبغض الإنفاق ، ولأن هؤلاء الجباة يذكرونهم على الدوام أن سلطان الدين ذهب ، وأنهم أصبحوا رعايا لدولة وثنية ، لم تكن فى يوم من الأيام شعب الله المختار .

كانوا يكرهون الجباة وينفرون منهم ، ولا يحادثونهم ، ويعتبرونهم عشارين خطاة ، وكان يزداد ذلك المقت ، إذا كان الجابى يهوديا ممن باع نفسه للرومان .

كانت كفرناحوم مدينة فقيرة مزدحمة بالفقراء ، لم يكن فيها مجمع يجتمع يوم السبت فيه الصيادون والحمالون والأجراء ، يصغون فيه إلى التوراة . ويقيمون فيه شعائر الصلاة ، ومال قائد رومانى إلى اليهودية فبنى فوق هضبة تطل على البحيرة معبدا لله .

بنى المجمع وما كانت الصلاة فيه ميسورة للكادحين الفقراء ، فما كان كاهن المعبد الأكبر يعظ الناس لوجه الله ، إنه يريد الهدايا والأموال ، فكان يفرض عليهم النذور والقرابين فما كانت الحقيقة سفرت عن وجهها ، فمن ذا الذى يعلمهم أن الله لا ينال لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى من الناس ؟ حتى الكهنة واللاويين يجمعون لأنفسهم العشور من الوافدين على بيت الله .

كان الناس فى كفرناحوم يتحدثون فى إيمان عن عيسى الذى نزل مدينتهم . إنه أبرأ ابن نبيل من البلاط من مرضه ، دون أن ينتقل من موضعه ، إن الرجل جاء إليه ضارعا أن يشفى ابنه ، فأخبره أن إيمانه برأه من علته ، فلما عاد النبيل إلى بيته ألفى ابنه الذى تركه مسجى فى فراشه ، بارئا يغدو ويروح هنا وهناك .

راح كل واحد يعلق على هذه المعجزة ويحاول أن يجد لها شبيها فى التوراة ، فقال بعضهم إنه إيليا قد قام ، فإيليا شفى المرضى من أسقامهم ، وقال بعضهم إنه النبى الذى بشرت بمقدمه البشارات ، وقد أيده الله بالمعجزات ، ليصدقه الناس ويؤمنوا بما جاء به من عند الله .

وجاء عيسى إلى المرفأ ، فلما رآه الصيادون والحمالون والأجراء فتنوا به ، فتركوا ما فى أيديهم وذهبوا إليه ، فنفوسهم صادئة إلى نهر الكلام العذب ، النابع من قلب ملأه الله علما وحكمة ، والتفوا حوله ، فارتقى حجرا ، وراح يحدثهم بما أوحى الله إليه .

وتقاطر الناس ، وازدحم المرفأ بهم وهو يحدثهم حديثا يأسر أفئدتهم ، كان حديثه لا يخرج عما جاء فى التوراة ، ولكنه كان حديثا مجلوا أخاذا ، فقد أزال عنها جمود السنين . رمقوه فى إعجاب ، ونطقت وجوههم بالفرح النازل بالصدور وبدوا كأنما أريقت فيهم نشوة ، وزاد فى إعجابهم أنه كان يذكرهم بيحيى ، إنه يبشرهم بقرب الخلاص كما بشرهم ابن زكريا قبل أن يقبض عليه هيرودس

أنتيباس ، فهو يصيح بهم مثله : « توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات » .

تعطل العمل فى المرفأ ، فقطار الحمير المحملة بإنتاج وادي يزرعيل ، لا يجد من ينقل الفواكه والحبوب إلى المراكب ، وتلفت أصحاب الأموال ، فلم يجدوا الحمالين والأجراء ، فتملكهم الغضب ، وذهبوا إلى حيث اجتمع الناس .

ألفوا الصيادين والحمالين والأجراء يصغون إلى عيسى كالمأخوذين الذين لا يحسون ما حولهم . حتى الجباة العشارون ألقوا إليه سمعهم ، فاشتعلت ثورتهم ، وصاحوا به : إن الوعظ ليس فى المرفأ بل هناك فى المجمع ، وإنه يفسد الأجراء . ويعطلهم عن أعمالهم : وما صكت أصوات أصحاب الأعمال آذان الحمالين والأجراء حتى هبطوا من السموات التى حلقوا فيها لحظات ، وانصرفوا إلى عملهم وهم يغمغمون ؛ إن الأغنياء يكرهون عيسى لأنه يعطف عليهم ويواسى فقرهم .

وانصرف الجميع إلا اثنين ، أحدهما كاتب يعرف التوراة ، ويعلم الناس فى المجامع والآخر محصل ضرائب يهودى باع نفسه للرومان ، كرهه اليهود وقاطعوه . وإذا تحدثوا عنه قالوا فى زراية : متى العشار .

ووقف متى مذهولا عما حوله ، فهو مشغول بالإحساسات الجديدة المتفجرة فى جوفه . إن نورا ينبعث من أغواره ، فينير كل شىء أمام بصيرته ، وإن صوتا فى نفسه يوحى إليه أن آمن بذلك الرسول ، الذى رفعك وقربك من السماء .

وتقدم الكاتب إلى عيسى عارضا عليه نفسه ، قال :

— أتبعك أينما تمضى .

وفى نظرة أحاط عيسى بذلك الكاتب الذى فيه غرور الكتبة ، فلم يفرح به ، ولم يقبله تلميذا من تلاميذه ، بل قال له :

— للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار ، أما ابن الإنسان فلا يدرى أين يضع رأسه .

إنه فى كفر ناحوم يمضى ليله فى بيت سمعان ، ولكنه ما كان يمكث فى مكان واحد طويلا ، إنه فى رحلة دائمة ، يوم فى أورشليم ، ويوم فى كفر ناحوم ، ويوم فى الناصرة ، ويوم فى غيرها من المدن والقرى اليهودية ، ينام حيث ينام ، وما كان ذلك الكاتب بقادر على أن يعيش هذه الحياة ، أو يحتمل ذلك التقشف الذى لا يحتمله إلا رجل عميق الإيمان .

وانصرف الكاتب ونظر عيسى فوجد متى يتضلع إليه وفى عينيه صفاء ، كانتا كمرآة صادقة تعكس طهارة النفس . وفى لمحة خلص عيسى عن المعدن النفيس ، فذلك الرجل الذى فى ثياب عشار انشرح صدره للإيمان : أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى . فأشار له وقال :

— اتبعنى .

وسار عيسى ومتى يتبعه ، لم يعد محصل ضرائب للرومان بل صار محصل علم وحكمة . وما انطلقا قليلا حتى جاء تلميذ من تلاميذ المسيح وقال له :

— يا سيد ، إيذن لى أن أمضى أولا وأدفن أبى .

فقال له عيسى فى هدوء :

— اتبعنى ودع الموتى يدفنون موتاهم .

وذاع فى كفر ناحوم أن عيسى فى المرفأ . فجاء الناس والمرضى من كل فج ، يتضرعون إليه أن يبرئهم من أسقامهم ، وراحوا يتسابقون إليه ليمسهم أو يمسوا طرف ردائه ، وازداد الزحام فأشار إلى سمعان أن يأتى بسفينة ، وصعد إليها . وابتعدت السفينة عن الشاطىء قليلا ، وأخذ عيسى يعظ منها الناس .

وجاء الليل ، وبعث القمر ضوءه . فانعكست أضواء القمر والنجوم على صفحة الماء ، وظهرت صور المراكب كأنما تنعكس على مرآة متموجة ، والجماهير شاخصة إليه . وقد أرهفوا السمع ، ثم راحوا ينصرفون ، وقد برأ الأكمه والأبرص ، وبرأت نفوس من أسقامها .

والتف التلاميذ حوله ، ولما كان قد أرسل ليدعوا الناس إلى الإنجيل[1] ، إلى البشارة بملكوت الله ، إلى كتاب الله الذى سيبقى بين الناس إلى انقضاء العالم ، فقد التفت إليهم وقال لهم :

— فلنذهب إلى مكان آخر من المدن القريبة منا لأكرز (أعظ) هناك أيضا ، لأنى لهذا العمل خرجت .

وخرج عيسى وتلاميذه إلى المدن المنتشرة حول كفر ناحوم ، ليبشر الناس ويقوم لهم : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء » .

---

(١) معنى إنجيل : بشارة بالسعادة الحقيقية .

١٨

« يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة » .

(قرآن كريم)

فى الفجر ، قبل أن يذهب الليل ويأتى النهار ، وهن القمر وراح يمحى أمام طلائع الشمس التى انتشرت فى الأفق الشرقى كمروحة هائلة ، أطرافها من فضة ، وقاعدتها من ذهب نضار ، وهجرت الطيور أوكارها تغرد مستقبلة النهار بتسبيحة الصباح ، وعلى الجبل المطل على كفر ناحوم ، كان عيسى يصلى لله ، انفرد وحده يدعو ربه فى خشوع ، ويتلقى وحى السماء .

كان نسيم الفجر رخاء ينعشه ، وابتهاله إلى الله يشرح صدره ، والمشاهد الرائعة تسكب فى روحه حكمة ؛ هذه الزنابق وهذه الأزهار ، وحقول القمح التى تكسو وادى يزرعيل ، وبساتين الفواكه المنتشرة كالجنان . وجمال بحيرة جنيسارت ، وماؤها الأزرق الذى يبدو فى صفاء البلور تحرك مشاعره ، إنه يراها بعين الشاعر والفنان ، وبعين الحكيم ذى البصيرة النافذة ، وبعين الرسول الذى كشف الكون له عن أسراره ، فتختزن نفسه كل هذه الروائع ، وتتحول فيها إلى أمثال يضربها للناس .

وظل عيسى فى صلاته ، فشغل بالطمأنينة المنداحة فى جوفه عما حوله ، كانت روحه تهيم لتتصل بالسماء ، ومس أذنيه أصوات ، فانتبه إلى نفسه ، ونظر فألفى تلاميذه يزحفون نحوه ، فقام وأقبل عليهم ، وتحت شجرة من أشجار السرو جلسوا يحدثهم ويفقههم فى أمر دينهم .

كان تلاميذه كثيرين ، يمارسون أعمالهم ، ثم يأتون إليه يلقون إليه أسماعهم ، ولكنه كان يريد أصفياء لا يفارقونه فى الحل والترحال ، أناسا يهجرون الدنيا

ومتاعها ، ويهبون أنفسهم لله . فراح يختار من بين التلاميذ حواريه ، فاختار اثنى عشر رجلا ليلازموه . لا يفارقونه فى الليل أو فى النهار .

وارتفعت الشمس ، وعيسى وتلاميذه تحت الشجرة . يعلمهم وهم يسمعون ، راح يقول لهم :

— أيها الإخوة[1] ، إن سبق الاصطفاء لسر عظيم ، حتى إنى أقول لكم الحق لا يعلمه جليا إلا إنسان واحد ، هو الذى تتطلع إليه الأمم ، الذى تتجلى له أسرار الله تجليا ، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم ، لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه الشجرة ، بل إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا ، تقى رحمته المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان .

ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة التى يأتى بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطى ثمرا بعد انقطاع المطر زمنا طويلا ، فهو غمامة بيضاء ملآى بالرحمة ، وهى رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث .

إنى أشرح لكم الآن ذلك النذر القليل الذى وهب الله لى معرفته ، بشأن هذا الاصطفاء نفسه . يزعم الفريسيون أن كل شىء قدر على طريقة ، لا يمكن معها لمن كان مختارا أن يصير منبوذا ، ومن كان منبوذا لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختارا . وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذى يسير فيه المختارون إلى الخلاص ، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هى الطريق الذى يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك .

لعن اللسان الذى نطق بهذا ، واليد التى سطرته ، لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان ، فيمكن المرء على هذا أن يعرف شاكلة فريسيى هذا العصر ، لأنهم خدمة الشيطان الأمناء .

فماذا يمكن أن يكون معنى سبق الاصطفاء سوى أنه إرادة مطلقة ، تجعل للشىء غاية ، وسيلة الوصول إليها فى يد المرء ، فإنه بدون وسيلة لا يمكن أحدا

---

(١) هذا الحديث من إنجيل برنابا .

تعيين غاية . فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط ، بل يعوزه موطىء القدم من الأرض ، لا أحد ألبتة . فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى ، إذا استلزم سلب حرية الإرادة التى وهبها الله لإنسان بمحض جوده ؛ فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين فى إثبات مكره لا سبق اصطفائه .

أما كون الإنسان حرا ، فواضح من كتاب موسى ، لأن إلهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا : « ليست وصيتى فى السماء لكى تتخذ لك عذرا قائلا : من يذهب ليحضر لنا وصية الله ؟ ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها ، ولا هى وراء البحر لكى تعد نفسك كما تقدم ، بل وصيتى قريبة من قلبك ، حتى إنك تحفظها متى شئت » .

قولوا لى : لو أمر هيرودس شيخا أن يعود يافعا ، ومريضا أن يعود صحيحا ، ثم إذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما ، أفيكون هذا عدلا ؟

أجاب التلاميذ :

— لو أمر هيرودس بهذا لكان أعظم ظالم وكافر .

حينئذ تنهد المسيح وقال :

— أيها الإخوة ، ما هذه إلا ثمار التقاليد البشرية ، لأنه بقولهم إن الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختارا يجدفون على الله ، كأنه طاغ وظالم ، لأنه يأمر الخاطىء أن لا يخطىء ، وإذا أخطأ أن يتوب ، على أن هذا القدر ينزع من الخاطىء القدرة على ترك الخطيئة ، فيسلبه التوبة بالمرة . ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبى : « لعمرى يقول إلهكم : لا أريد موت الخاطىء ، بل أود أن يتحول إلى التوبة » أيقدر الله إذا مالا يريده ؟

تأملوا ما يقول الله ، وما يقول فريسيو الزمن الحاضر .

يقول الله أيضا على لسان أشعيا : « دعوت فلم تصغوا إلى » وما أكثر ما دعا الله .

اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبى نفسه : « بسطت يدى طول النهار إلى شعب لا يصدقنى ، بل يناقضنى » .

فإذا قال فريسيونا : إن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارا ، فهل يقولون سوي أن الله يستهزئ بالبشر ؟ كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئا أبيض ، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه فى أذنيه ؟

أما كون المختار يمكن أن ينبذ . فتأملوا ما يقول إلهنا على لسان حزقيال النبي : « يقول الله لعمرى إذا رجع البار عن بره ، وارتكب الفواحش ، فإنه يهلك ، ولا أذكر فيما بعد شيئا من بره ، فإن بره سيخذله أمامى . فلا ينجيه وهو متكل عليه »

أما نداء المنبوذين ، فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا : « إنى أدعو شعبا غير مختار ، فأدعوهم مختارين »

إن الله صادق ولا يكذب ، ولما كان الله هو الحق ، فهو يقول الحق ، ولكن فريسيي الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم .

وجاء الصيادون والأجراء والكتبة ورجال الدين فى عباءاتهم الواسعة وعمائمهم السود ، وأقبل أناس من نواحى غير كفر ناحوم ، وكان بين الحاضرين رجال من أورشليم ، وانتشرت الجموع على سفح الجبل ، فقام عيسى فى ردائه الأبيض ، وفى قدميه نعلاه ، وراح يعظ الجماهير فى صوته الذى كان له فى آذانهم وقع السحر ، فاشرأبت الأعناق . وجعل الناس يرشفون ما ينطق به فى لذة ونشوة ، راح يقول :

طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء ، لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش للبر ، لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للأتقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله . طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات .

طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم ، وقيل عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . فرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم .

أنتم ملح الأرض . ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح . لا يصلح بعد لشيء ، إلا لأن يطرح خارجا ويداس من الناس .

أنتم نور العالم ، لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال . بل على المنارة ، فيضيء لجميع الذين فى البيت ، فليضيء نوركم هكذا قدام الناس ، لكى يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجدوا أباكم الذى فى السموات .

أخذ الناس يهزون رءوسهم إعجابا ، وظل الكتبة ورجال الدين صامتين ، كانوا يشعرون بالحسد ، ولكنهم لم يكشفوا عن الغيرة التى تأكل صدورهم ، ماذا يقولون وهو يدعو الناس بالموعظة الحسنة ، ويحدثهم عن الله الواحد ، لم يشرك به شيئا ، فلو أنه أشرك مع الله إلها آخر ، لرجموه تنفيذا لشريعة موسى ، وزاد فى صمتهم أنه أعلن على الملأ أنه ماجاء لينقض تلك الشريعة ، بل جاء يؤيدها ويثبتها ، قال :

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل ، فإنى الحق أقول لكم ، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى ، وعلم الناس هكذا ، يدعى أصغر فى ملكوت السماء . وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات . فإنى أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين ، فلن تدخلوا ملكوت السموات .

كانوا جميعا من بنى إسرائيل ، يعبدون الله وحده ، فلما وجدوه يعلن أنه ما جاء بشريعة جديدة تنقض شريعتهم ، بل جاء يكملها ، صاحوا فرحا وسرورا ، أما الكتبة والفريسيون فقد أحنقهم تعريضه بهم ، ولكن لم يبسوا بكلمة ، خشية من الجماهير المنتشية بخمر موعظته .

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن يقتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم .

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها ، وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى

جهنم . وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها . وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم .

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا ، يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى .

فارتفعت أصوات الكتبة ورجال الدين بالاعتراض . وراحوا يصيحون :

— إن هذا يناقض شريعة موسى .

— هذا الذى يقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . قد بدل الناموس قبل أن يزول هو من موضعه .

— لم يقل بهذا نبى ولا رسول .

وارتفعت صيحات التأييد . وانقضى وقت طويل قبل أن تهدأ العاصفة ، ليستأنف موعظته ويقول :

سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث . بل أوف لربك أقسامك ، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا ألبتة ، لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم .

سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا ، فاذهب معه اثنين ، أو من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

وصاح أحد الفريسيين :

— إن هذا ما جاء يكمل الناموس . بل جاء يعارضه .

وماج الناس ، وارتفعت الأصوات وتشابكت الجموع فى مناقشات ، وتصرم وقت طويل قبل أن يعود السكون ، ويستأنف موعظته .

— لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء ، حيث لا يفسد

سوس ولاصدأ ، وحيث لاينقب سارقون ولايسرقون . لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا .

سراج الجسد هو العين . فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا ، وإن كانت عينك شريرة . فجسدك كله يكون مظلما . فإن كان النور الذى فيك ظلاما . فالظلام كم يكون !

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال . لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس . انظروا إلى طيور السماء ، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوى يقوتها ، ألستم أنتم بالحرى أفضل منها ؟ ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة . ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم: إنه ولا سليمان فى مجده كان يلبس كواحدة منها . فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله هكذا . أفليس بالحرى جدا يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ؟ فإن هذه كلها تطلبها الأمم(١)، لأن أباكم السماوى(٢) يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها . لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره ، وهذه كلها تزاد لكم ، فلا تهتموا للغد . لأن الغد يهتم بما لنفسه . ويكفى اليوم شره .

واستمر فى موعظته حتى إذا أتمها . هرع الكتبة والكهنة إليه يناقشونه فيما قال . وأسرعت الجموع إليه تلمس طرف ردائه ، وازداد ضغط الناس عليه . فذهب سمعان إليه يلتمس منه أن يستريح ، وجاء تلاميذه يكفكفون الجماهير عنه ، ولكن هيهات ، كانوا يتدافعون ليبلغوه ، حتى الأطفال جاءوا يلتمسون بركته .

---

(١) كان بنو اسرائيل يطلقون على الشعوب الأخرى « الأمم » للتحقير كما كان العرب يطلقون عليهم « العجم » .

(٢) يلاحظ أنه يطلق على الله « أباكم » بمعنى « ربكم » وعلى ذلك فلفظة « أبى » بمعنى « ربى » .

١٩

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ،
ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ، فسيحشرهم إليه جميعا »
(قرآن كريم)

هبط عيسى من الجبل ، وانطلق وحده بعيدا عن ضوضاء الناس ، فقد تركوه يلتقط أنفاسه ، وتفرقت الجموع ، ومواعظه تتردد فى نفوسهم ، يقلبونها ويفكرون فيها ويمعنون فى التفكير ، قال لهم : اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم ، فماذا خلف هذه الأقوال ؟ أيقول لهم : اسألوا الله التوبة والمغفرة فيعطيكم توبته ، واطلبوا ماعنده يمنحكم بركته ، واقرعوا بحسناتكم أبواب الآخرة فيفتح لكم جناته ؟ أيعلمهم بهذه الأقوال أن هذا أول الإيمان : أن يعتمدوا على الله ، وأن يسألوه وحده ، وأن يطرقوا أبوابه ؟ أيهدف إلى أن يغرس فيهم أن يكون الله الملاذ الأوحد ، وألا يتخذوا من دون الله أربابا ؟ ماذا خلف هذه الأمثال ، أيعلمهم أن هناك حياة غير هذه الحياة تبدأ بعد الموت ! وأن هذه الدنيا ممر ، فعليهم أن يأخذوا من ممرهم لمقرهم لعلهم يفلحون ؟

لا تزال موعظته تتردد فى آذانهم ، لكأنما الكون كله يهمس بها : « ادخلوا من الباب الضيق ، فما أوسع الطريق المؤدى إلى الهلاك وأرحبه ، وما أكثر الداخلين منه ، وما أضيق الباب وأكرب الطريق المؤدى إلى الحياة ، وقليلون هم الذين يجدونه » .

ذهبوا إلى دورهم ، فنى رءوسهم ما يفكرون فيه ، أما هو فذهب ليستريح بعد ذلك الجهد المضنى الشاق ، ولكن أنى له الراحة ، فهذا أبرص يعترض طريقه ، ويجثو على ركبتيه ، ويتضرع إليه فى حرارة أن يشفيه ، فتتحرك عوامل الشفقة فى نفسه ، فيمد إليه يده ، ويلمسه فيذهب عنه برصه بإذن الله ، إن الله يؤيده بالمعجزات ليثبت رسالته ، كما أيد الرسل قبله بالمعجزات .

نظر الأبرص إلى نفسه . فإذا هو قد ذهب عنه السوء . فامتلأ فرحا ، وأسرع يعلن المعجزة . وينفذ ما اصطلح عليه اليهود عند إعلان التطهير من البرص ، فقد كانوا يعتبرونه نجاسة . لا يتطهر منها الأبرص ، وإن برأ ، إلا بطقوس ورسوم .

كان الكاهن يأتيه خارج المحلة ، ويذبح عصفورا على ماء حى فى وعاء من خزف ، ويأخذ خشب أرز وقرمزا وعصفورا حيا ، ويغمسها فى الدم ، ويرش المتطهر من البرص سبع مرات . ثم يطلق العصفور الحى ، ويعلن طهارة الأبرص ، فيغتسل ويحلق كل شعره ، ويقيم سبعة أيام خارج داره ، وفى اليوم السابع يأتى بخروفين ، ويذبحهما ، أحدهما ذبيحة إثم ، والآخر ذبيحة خطيئة ، ويقدم نعجة المحرقة ، ويأتى بدقيق وزيت فيأخذ الكاهن من دم ذبيحة الإثم والزيت ويدهن شحمة أذن المتطهر اليمنى وإبهام يده . وإبهام رجله اليمنى . ويصب الزيت على رأسه ، ويعلن طهارته . طقوس كتبوها ما أنزل الله بها من سلطان .

ودخل عيسى كفر ناحوم والحواريون معه ، وما استقر بها حتى جاء إليه قائد مئة ، وفى عينيه رجاء ، إنه القائد الذى بنى لكفر ناحوم مجمعها ، جاء إليه يلتمس منه أن يشفى عبدا له ، غلاما يحبه تركه يتعذب من آلام المرض ، قال القائد :

— جئت ألتمس منك أن تشفى فتاى الذى غادرته وهو يقاسى نوبة صرع قاسية .

فقال له عيسى :

— أنا آتى لأشفيه .

تضايق اليهود الذين سمعوا ذلك ، كانوا يخشون أن يشفى عيسى ذلك الغلام ، فيؤمن به قائد المئة ، إنهم لا يريدون أن يدخل أحد فى دينهم ، ولا يتمنون هداية الأمم ، فهم يتصفون بأنانية دينية ، فلو اهتدى غير بنى اسرائيل لدخلوا الجنة مع الوارثين ، مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وما كان اليهود يرحبون بذلك ، فهم يرون الجنة لهم خالصة ، حتى إسماعيل بن إبراهيم لا يرحبون به فيها ، ولولا أن قال الله لأبيه أنه سيباركه ويجعله أمة عظيمة لطردوه من السماء !

كان الدخول إلى بيت وثنى خطيئة ، فقال القائد :

— يا سيد ، لست مستحقا أن تدخل تحت سقفى .

وصمت الرجل قليلا ثم قال :

— لى جند تحت يدى . أقول لهذا اذهب فيذهب . ولآخر إيت فيأتى ، ولعبدى افعل هذا فيفعل . قل كلمة فقط فيبرأ غلامى .

عجب عيسى لهذا الإيمان . فالتفت إلى من عنده وقال :

— الحق أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيمانا بمقدار هذا . وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب فى ملكوت السموات .

فالجنة ليست وقفا على شعب دون شعب ، فالوارثون هم عباد الله المؤمنون ، سواء أكانوا من الأمم أم من الشعب المختار .

وقال لقائد المئة :

— اذهب وكما آمنت ليكن لك .

وجاء المساء ، ووضع الطعام ، وقبل أن يمدوا إليه يدا راح عيسى والحواريون يصلون لله :

أبانا[1] الذى فى السموات .

ليتقدس اسمك .

ليأت ملكوتك .

لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .

خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم .

اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا .

ولا تدخلنا فى تجربة .

ولكن نجنا من الشرير .

لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد .

آمين .

كان أمينا فى تبليغ رسالته ، لم يدع مع الله إلها آخر فى صلاته ، وكان رسولا كالرسل الذين أرسلهم الله إلى الناس ، ليدعوهم إلى الصراط المستقيم ، ولو كان

---

(١) آب غير أب بمعنى الله واستعملها عيسى بمعنى رب .

يعلم أن مع الله إلها آخر ، لصلى له مع الله . ولكنه ككل الرسل كان يصلى لله الأحد الصمد ، ولا يستنكف أن يكون عبدا لله ، داعيا لوحدانيته ، وعظ الناس فوق الجبل قائلا :

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر » .

كان يعلم هدف رسالته ، فما أرسل لينقض شريعة موسى ويقيم شريعة أخرى ، بل أرسل بشيرا باقتراب ملكوت السموات ، فراح يردد فى صلاته « فليأت ملكوتك » وراح أتباعه يرددونها مع الأيام .

« فليأت ملكوتك » ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنوات وأجيال ، « فليأت ملكوتك » هى الإنجيل الذى جاء به إلى الأتباع والأنصار ، فراح المؤمنون يترقبون ذلك اليوم العظيم ، اليوم الذى يأتى فيه ملكوت بانيه الله ، وشارعه الله ، وشريعته كلام الله .

obeikandl.com

٢٠

« وأبرىء الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله »
(قرآن كريم)

كان يحيى يعيش فى الصحراء الواسعة ، طليقا كالطير ، يستقبل الشروق منشرح الصدر ، يملأ رئتيه بالنسيم الطلق ، ويودع النهار راضى النفس ، فالشروق والغروب واصفرار الشمس كالنضار ، واحمرارها كالدم ، آيات تدعم فى قلبه الإيمان ، وتقربه من خالق الكون .

كانت روحه تهفو إلى النجوم ، فهى أنيسته فى سكون الليل . وهى شريكته فى تسبيح الله . وكان ضوء القمر المنعكس على مياه البحر الميت يملأ قلبه نورا ، وهيام الوحوش والغزلان فى القفار ، وتحليق الطيور فى السماء توحى إليه قناعة ورضا ، إنها تجد رزقها فى دنيا الله كما يجد رزقه فى عسل النحل والجراد .

كان يدعو إلى التوبة وإلى تطهير النفوس من الإثم ، لاستقبال ملكوت الله ، فاجتمع الناس إليه مؤمنين به ، فحقد الفريسيون عليه ، وما كانوا يملكون إلا الحقد وبعض نصوص ميتة من الشريعة حفظوها عن ظهر قلب ، فرفعوا إلى هيرودس أنتيباس أنه يدعو الناس إلى الثورة وقلب نظام الحكم .

وألقى يحيى فى حصن ماكيروس الرابض فى الصحراء ، فغابت عن عينيه السماء الصافية الزرقاء ، والطبيعة الطلقة الموحية ؛ شروق الشمس وغروبها ، وحرارتها التى كانت تبعث فى جسمه الناحل الحياة ، والنجوم المتلألئة الهامسة بالأسرار ، والقمر الهاتف بسنة الحياة ؛ محاق فهلال فبدر ثم محاق .

رطوبة السجن تسرى فى بدنه ، ورائحة الحياة البركانية تملأ صدره ، وتكتم أنفاسه ، والظلمة كانت كسحابة دكناء رانت على بصره ، وسلاسل ثقيلة فى قدميه ، ويديه ، عيشة بغيضة لربيب الحرية ، عيشة أهون منها على نفسه الموت .

كان السجن بغيضا إليه . ولكن نفسه لم يعتورها وهن ، لم يضعف أمام جبروت هيرودس ، بل ظل يصرخ أن هيروديا لا تحل له . فغير عليه قلب المرأة المعامرة الطامعة فى أبهة الحكم . فراحت كالأفعى تنبعث سمومها ، وتوسوس لهيرودس أن يقتله ، فى الليل وفى النهار ، ولكن هيرودس كان يصم أذنيه عن فحيح الأفعى . فهو متطير يخشى إن قتله — وهو نبى — أن ينزل به غضب السماء .

كان يحيى يقابل تلاميذه وهو فى سجنه ، يصغى إلى أخبار الناس ، ويبعث إليهم تعاليمه ، فبلغه أن عيسى قام مثله يصيح فى بنى إسرائيل : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وأنه يقوم بمعجزات ، يبرىء الأكمه والأبرص ، وأنه يدعو القوم إلى الله ، فأرسل اثنين من تلاميذه يقولان له : « أأنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ »

غادر الرجلان القلعة ، وانحدرا من جبال مؤاب العالية التى كانت تحجب الشمس ، وسارا والضياء المنعكس من مياه البحر الميت يكاد يغشى عيونهما ، ولاحت لهما التلال العارية إلا من زنابق نبتت ، فكانت كجواهر تناثرت فى صحراء ، وانطلقا يخترقان الوديان الخضر ، والفيافى الصفر ، يدخلان مدينة ويخرجان إلى مراع يرعى فيها رعاة بنى إسرائيل الرحل ، وينسابان فى صحراء قاحلة ليس فيها ديار ولا نافخ نار . كانت قبلتهما كفر ناحوم التى ذاع منها مافعله صانع المعجزات .

ولاح لهما جبل يكسوه الجمال ، فيما صوبه ، فعلى سفحه تقع مدينة نايين الجميلة ، كانت الشمس فى كبد السماء ، وكانت أشعتها حامية ، فعزما أن يدخلا تلك المدينة يقضيان فيها الظهيرة ، ثم يغادرانها ليلحقا بمن أرسلهما يحيى إليه .

دلفا إلى المدينة ، وجلسا يستريحان تحت ظل شجرة ، ثم قاما يستأنفان رحلتهما ، وما خرجا من باب المدينة الشمالى حتى لمحا جبل طابور وجبل أندرو ، ينساب بينهما طريق يصل إلى بحيرة جينسارت ، فأغذا السير وإذا بموكب قادم ، فصوبا إليه البصر .

كان عيسى وحوله الحواريون والمؤمنون ، غادروا كفر ناحوم فى الفجر ، ليبلغوا نايين قبل العصر ، جاء يبشر باقتراب ملكوت السموات ، فهو فى رحلة دائمة ، يبصر الناس بما أرسله به الله .

دنا تلميذا يحيى منه ، وبلغاه رسالة السجين ، فلم يقل لهما إنه هو الآتى ، بل قال لهما :تعاليا وانظرا .

وسار موكب المؤمنين ، وراح يرتق الطريق الصخرى المؤدى إلى نايين ، وقبل أن يجتازوا باب المدينة ، إذا بجنازة خارجة ، وإذا بامرأة تولول وتصرخ فى حزن عميق ، فالمحمول على الأعناق ابنها الوحيد ، كان الأمل وكان الرجاء بعد موت أبيه ، فإذا به يلحق بأبيه تاركها للأسى والأحزان .

نظر عيسى إلى المرأة ، فهزه حزنها ، أحس كأن دموعها تحرق قلبه ، فاقترب منها ، وقال لها فى حنان :

— لا تبكى .

رنت المرأة إليه من خلال دموعها ، ولاح فى وجهها عتاب ، فكيف يطلب منها أن تكف عن البكاء والنار تسرى فى أحشائها ، إنه لا يدرى عظم فجيعتها ، صارت ثكلى بعد أن كانت أرملة تمزق قلبها وتجددت الأشجان .

وذهب إلى النعش ووضع يده عليه ، وقال فى صوت عميق :

— أيها الشاب قم .

وساد وجوم ، واتسعت العيون ، وتحرك الشاب فى نعشه ، فلاح فى الوجوه هلع ، ووضع النعش على الأرض ، وقام الشاب تدب فيه الحياة ، فهرعت إليه أمه تضمه وهى لاتكاد تصدق ماجرى ، وتغسل وجهه بدموعها .

وفى ذلك الذهول تذكروا إيليا ، فقد أعاد الحياة إلى ابن المرأة صاحبة البيت الذى ينزل فيه ، وتذكروا ماورد عن اليشع وإعادة الحياة إلى ابن المرأة الشونمية ، فصاحوا :

— إنه نبى ، إنه نبى كريم .

وانطلق عيسى وصحبه ورسولا يحيى ، فراح يعظ الناس ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ثم التفت إلى تلميذى يحيى ، وقال لهما ، مقتبسا البشارة من التوراة :

— عودا إلى سيدكما وقولا له : العمى يبصرون ، والعرج يمشون والبرص يتطهرون ، والصم يسمعون ، والأموات يقومون ، والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لايعثر فى .

انصرف رسولا يحيى ، وقد ملئا عجبا ، وأقبل عيسى على حواريه والمؤمنين ، يحدثهم عن يحيى العظيم ، فقال لهم :

— ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ؟ أقصبة تحركها الريح ؟

بل ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أإنسانا فى ثياب ناعمة ؟

هاهم ذوو لباس المجد والنعيم فى بيوت الملوك

بل لماذا خرجتم ؟ أتنظروا نبيا ؟

نعم أقول لكم إنه أفضل من نبى ، لأن هذا هو المكتوب عنه ، هأنذا أرسل ملاكى قدامك ، فيعد طريقك أمامك .

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

— إن يحيى لم تلد النساء مثله .

obeikandl.com

٢١

« وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » .

(قرآن كريم)

صعرت الشمس خدها للكون ، وشمخت فى كبرياء ، كانت كالغانية المزهوة بجمالها تحسب أن لن يغيض ، ورنت إلى تلال الناصرة من عليائها ، فقد كانت فى ذروة مجدها فى كبد السماء ، وسار عيسى وحواريوه حوله فى الطريق المتعرج المنساب بين التلال ، ذلك الطريق الذى قطعه وهو غلام ، ونظر إلى البيوت البيض ، وثبت بصره على بيت بعينه ، بيت الصبا والشباب ، فذهب إليه وفى قلبه بهيج الإحساسات .

كان عيسى فى رحلته الدائمة ينتقل من مدينة إلى قرية ، كفراشة تنتقل بين الأفنان ، فما يتم موعظته فى مكان حتى ينطلق إلى مكان آخر ، فذاع اسمه فى مدن الجليل وقراه ، وإن كانت صورته لم تنطبع فى نفوس الناس ، كان إذا ذكر اسمه تخيلوه مواعظ وأمثالا ، فمواعظه وأمثاله سرت مسرى الهواء .

إنه يعظ اليوم فى مجمع كفر ناحوم ، وغدا فى سوق نايين ، وفى الليل على شاطىء البحر ، وفى النهار على سفح الجبل ، وترادفت المجامع والأسواق ، وطويت السهول والصحراء ، فأحس تعبا ، بعد الرحلات الطويلة التى قطعها على الأقدام ، وحن إلى ليلة يقضيها تحت سقف بيته بعد تلك الليالى التى قضاها فى بيت سمعان أو تحت قبة السماء ، فانطلق إلى الناصرة يمضى فيها أياما .

جلس حواريوه فى حديقة الدار ، وذهب إلى أمه ، ففرحت مريم بمقدمه ، وأقبلت عليه تحادثه وقد فاض حديثها بالحنان ، ثم دخل عيسى إلى غرفته ومريم ترنو إليه فى عطف وإشفاق فقد نحل مذ غادرها يدعو الناس إلى ملكوت السموات .

وهبطت مريم إلى الحديقة لترى أصفياء ابنها وحواريه . فوجدت صيادى أسماك بسطاء ، ولكن كان فيهم شيء يميزهم عن الناس ، صفاء نفس وإيمان .

طفقوا يحدثونها عن ابنها ، وعن معجزاته ، فقالوا لها فى زهو إن ما كانوا يقرءونه فى التوراة رأوه رأى العين ، رأوا ابنها يحيي ميتا ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، فعل ما فعله إيليا واليشع ، فدعم رسالته بالآيات ، كما دعمها الرسل الذين أرسلوا قبله .

وذاع فى الناصرة خبر مجيء عيسى إلى مدينته . وكانت شهرته قد سبقته ، فتحدث الناس عما فعله فى كفر ناحوم ونايين ، وقالوا إنه النبى المنتظر . كانت أحاديثهم مفعمة بالزهو ، ولكن قلوبهم من الإيمان خواء .

وفى يوم السبت ارتدى الرجال ثيابا نظيفة ، وتزينت النساء ، ولبس الأولاد ثياب الصلاة ، وذهبوا إلى المجمع ، فيوم السبت يوم عبادة وراحة . كان المجمع بناء متواضعا مستطيلا ، رفع سقفه على عمد من الطراز اليونانى ، وفى صدره مكان القدس ، وقد اتجه إلى أورشليم ، فأورشليم قبلة اليهود من زمان سليمان الحكيم . كان الرجال يجلسون فى المجمع بحسب مهنهم ، فالنجارون فى ناحية ، والزراع فى ناحية ، والتجار فى ناحية ، والنساء فى شرفة عالية ضرب عليهن الحجاب .

وجلس فى الصف الأول رئيس المجمع ، وعلى يمينه كاهن المجمع ، وعلى يساره «الشيلاك» وجلس خلفهم أسن سبعة فى الناصرة ، وأمام رئيس المجمع التابوت ، وفيه الأسفار المقدسة ، وجوار التابوت شرف يقف عليه القارىء أو الواعظ « البيمة » .

وأقبل عيسى وأمه والحواريون . وانضم عيسى إلى النجارين وجلس حواريوه حوله ، وصعدت مريم إلى الشرفة وعيناها على ابنها . والذكريات تتوافد إلى رأسها ، فما أكثر ما رأته فى السبوت فى ذلك المكان .

قام قارىء واعتلى الشرف . ورتل فى صوت عذب الشمة : « اسمع يا إسرائيل إلهنا إله واحد . . . » وقال الأولاد : « آمين » وقضيت الصلاة ، وبدأت خدمة المجمع ، وفيها يقرأ فصلان ؛ « البراشاه » وهو فصل من الناموس . و « الهافتراه » وهو فصل من الأنبياء . دنا رئيس المجمع من التابوت وأخرج

السفر المقدس . فنهض الناس . وسبحوا الله ثم جلسوا ، وتقدم رجل مسن ، وتناول التوراة وراح يقرأ « البراشاه » . ولما انتهى منها عاد إلى مقعده ، فأصلح عيسى شال الصلاة على كتفيه . ثم قام وتقدم إلى الشرف ، والعيون متعلقة به ، وقلب مريم فى جوفها يخفق كجناح حمامة .

فتح الخازن التابوت ، وقدم إلى عيسى « الهافتراه » . كان درس اليوم سفر النبى أشعيا ، فأشار الخازن بأصبعه إلى بداية قراءته ، ولكن عيسى لم يقرأ من حيث أشار إليه ، بل راح يقرأ من أشعيا :

« روح السيد الرب على ، لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق ، لأنادى بسنة مقبولة للرب ، بيوم انتقام لإلهنا ، لأعز كل النائحين » .

كان على علم بالتوراة ، يقتبس منها ما يلائم كل حالة ، اقتبس منها « العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يتطهرون . . . » ، لما سأله رسولا يحيى من يكون ، والآن يقتبس منها ما يعلن به للملأ أنه رسول رب العالمين .

وطوى السفر ، ودفعه للخازن ، وجلس متأهبا ليلقى عظته ، وساد القاعة صمت ، فقال لهم فى صوت واضح :

— اليوم قد تم هذا المكتوب .

فهتك الصياح السكوت ، قالوا له :

— آتنا بمعجزة لنشهد لك .

— معجزة من معجزاتك فى كفر ناحوم .

— لن نؤمن بك حتى نرى آية من ربك .

وقال الفريسيون فى زراية :

— أليس هذا عيسى النجار ؟

— من أين يأتيه العلم وما كان من الربيين المتعلمين ؟

— لن نؤمن بك حتى تأتينا من السماء ببرهان .

صارت مريم عيونا ، راحت تنظر ماذا يفعل ابنها لهؤلاء الذين يتطاير الشرر من عيونهم ، إنهم يصيحون به أن يأتيهم بمعجزة ، وهل كان فى مقدوره أن يفعل معجزة من عنده ، إنها تؤمن أن ما يفعله بإذن الله ، وما تصنع المعجزات إلا إذا صفت النفوس ، وأفعمت بالإيمان ، وهؤلاء الجليليون غلظت قلوبهم ، وما جاءوا ليؤمنوا ، بل جاءوا به يشاهدون عملا خارقا من الأعمال .

وارتفع الصياح .

— شفيت مرضى كفر ناحوم . فاشف مرضانا .

فأشار عيسى إليهم أن اصمتوا ، فلما خفتت الأصوات ، قال :

— تقولون : أيها الطبيب ، اشف نفسك . كم سمعنا بما جرى فى كفر ناحوم ، فافعل ذلك هنا أيضا . الحق أقول لكم : ليس لنبى كرامة فى وطنه . إن أرامل كثيرات كن فى إسرائيل فى زمان إيليا فى ذلك الزمن الذى لم ترسل فيه السماء أمطارا لثلاث سنين ، فحل الجدب بالأرض ، واحتاجت الأرامل إلى العون ، ولم يتقدم إيليا إلا لإنقاذ أرملة واحدة . وكان فى إسرائيل كثيرون مصابون بالبرص فى زمان اليشع النبى ، فلم يطهر منهم إلا نعمان السريانى .

فظهر الغضب فى الوجوه ، وصاح صائح :

— أيقصد أن يقول إننا لا نستحق المعجزات التى صنعها فى كفر ناحوم ؟

— لم يفعل شيئا لأنه يعلم أنه لن يستطيع أن يخدعنا بمعجزاته الزائفة .

— ارجموه ، فالشريعة تقضى برجم النبى الكذاب .

— ارجموه . . . ارجموه .

وهاج الناس كالليوث الكواسر ، وانقضوا عليه يقتلعونه من مكانه ، وأخذوه وخرجوا به من المجمع ، فمشت الرهبة فى قلب مريم ، وهرعت تهبط الدرج واجفة ، وهب الحواريون ليخلصوه من أيدى أعدائه . وراح يوحنا يتدفق بين الجموع كثور هائج ، ولكن هيهات أن يصل إليه ، فقد أطبق الناس عليه كالأمواج .

انطلقوا فى طرقات الناصرة ، والحواريون يجاهدون وماهم ببالغيه . ومريم فى إثرهم مبهورة الأنفاس ، وبلغوا قمة الجبل المنحدر إلى سهل يزرعيل ، وأمسكوا

به ليدحرجوه حتى يتمزق على الصخور الناتئة . فقد كان ذلك نوعا من الرجم الشرعى .

جاءوا ليدفعوا به ، فأحسوا كأنما يغشى عليهم . وكأن أيديهم عاجزة عن أن تصل إليه . وإذا به يجتاز بينهم وهم واجمون ، لاح على وجوههم دهش ، وعيسى يسير هادئا سالما . وقد مالت الشمس للمغيب ، تلفظ آخر أنفاسها ، وقد وضعت على الأرض خدها فى ذلة المحتضر .

obeikandl.com

٢٢

« وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا »
(قرآن كريم)

دب النشاط فى قلعة ماكيروس ، فالخدم فى غدو ورواح ، يستعدون للوليمة الكبيرة ، التى دعا إليها هيرودس أنتيباس أصدقاءه الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين الرسميين ، الذين كانوا ضالعين معه فى خداع الشعب والظهور أمامه بالتقى والصلاح .

كان هيرودس يتأهب للاحتفال بعيد ميلاده ، محاكيا الأباطرة الرومان ، ولما كان يتملق شعبه ، ويتظاهر أمامه بأنه فريسى متمسك بالدين والتوراة ، فلم يستطع أن يقيم ذلك الحفل فى قصره ، فأقامه هنا فى قلعة ماكيروس ، الشامخة على جبل عال فى جوف الصحراء .

كانت تلك القلعة مسارح للهو والعبث والانطلاق ، يختلس فيها هيرودس اللذة بعيدا عن رقابة شعبه الذى لا حديث له إلا الحرام والحلال ، وكانت سجنا رهيبا للثوار الخارجين على السلطان ، والأنبياء ، كانت كامرأة ذات وجه بسام وقلب مظلم رهيب ، لا يشرق فيه بصيص من نور الرحمة ، ولا تعرف الشفقة إليه سبيلا .

ذهب هيرودس وهيروديا وبطانتهما إلى القلعة ، يستقبلون الزوار ، ووفدت إلى رأس هيرودس أفكار ، صرخ فيه يحيى فى هذا المكان أن هيروديا لا تحل له ، إنه يخشى أن تنزل به لعنة موسى فلا يعقب منها ، وهو يشتهى أن ينجب من يرث بعده ولايته . كان هيرودس كثير التطير ، طلبت منه هيروديا أن يقتل يحيى ، الذى يقلب عليه بنى إسرائيل ، وطلب منه السنهدرين أن يقتله ، حتى لا يثير بين الناس فتنة ، وأشار عليه أصدقاؤه الرومان بقتله قبل أن يؤلب

الشعب على رومية ، ولكنه كان يرتعد فرقا إذا فكر فى قتله ، كان يصدق ما قيل من أن يحيى هو إيليا ، بعث بعد موته يدعو الناس إلى الصلاح ، فخاف أن يمد إليه يده ، فينزل عليه خسفا من السماء .

لم يكن يذكر خوفه إذا هب يدافع عن وجهة نظره ، بل كان يتسربل بالدهاء ويقول إن من الحكمة أن يترك يحيى فى سجنه حتى ينساه أتباعه — وما أكثرهم — فبساطة تعاليمه ومطابقتها لناموس اليهود ، جعلت تصديقه أمرا سهلا ، حتى إن كثيرا من الفريسيين المتزمتين المتعصبين صدقوه وأصبحوا له أتباعا . فالأمل فى أن يخرج من سجنه يوما منع أتباعه من إعلان ثورتهم ، أما إذا قتل فستندلع لهيب الثورات ، فموته أخطر من حياته . ودمه أفصح من مواعظه التى يخرج بها حواريوه إلى الناس . قد تكدر تعاليمه الصفاء ، أما دمه فيزلزل العروش والتيجان .

وأتى المساء وأضيئت المشاعل فى القاعة العليا المقامة على أعمدة من رخام ، وبدت من الشرفة الصحراء المترامية فى سكونها ، والسماء المزينة بمصابيحها ، والبحر الميت يعكس أضواء النجوم المتلألئة ، ومدت الموائد وتكدست فوقها صحاف الفضة وأوانى الذهب ، ملئت بالفواكه والمآكل والشراب .

ووفد المدعوون ؛ الرومان والأمراء وأعيان الجليل ورجال الدين السائرون فى ركاب السلطان ، وتحلقوا حول الموائد ، وامتلأت البطون ، ولعبت الخمر بالرءوس وجاءت الراقصات يرقصن وهن شبه عاريات رقصات خليعة ماجنة ، فاتسعت عينا هيرودس ، ولاح فى وجهه انشراح ، كان ينفعل لكل مايحرك جذوة الشباب الذى ولى .

كانت هيروديا إلى جواره تعابث ابنتها سالومى ، التى كانت رائعة الحسن ، كزنبقة نابتة فى الصحراء ، والتفت هيرودس إليها فوقعت عيناه على عينيها السوداوين كليل الربيع الساحر ، وقفزت إلى ذهنه المخمور فكرة ؛ لماذا لا ترقص سالومى فى عيد ميلاده ، وقد ذاعت شهرتها كراقصة ماهرة ، حتى قرعت أبواب القياصرة فى رومية ؟

مال نحوها وقال لها :

— ارقصي لي يا سالومى .

— لا أشعر برغبة فى الرقص .

— ارقصي لى .

— لا أستطيع .

— إذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين .

فقالت فى مرح :

— حقا ؟

— أقسم لك يا سالومى .

— بماذا تقسم ؟

— أقسم لك بآلهتى ، ما سألتنى شيئا إلا أعطيتك .

— لقد أقسمت .

— أقسمت يا سالومى . وما حنثت فى قسمى قط .

رقصت سالومى فى خفة الطيف . وتثنت كأفعى ، وهيروديا ترمقها وفى رأسها أفكار خبيثة ، وهيرودس ينظر فى ابتهاج ، وحبست الأنفاس ، فسالومى ترقص فى حرارة كأنما تتدفق فى عروقها نار ، تميل فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت إلى هيرودس وحنت رأسها أمامه ، فقال لها فى انشراح :

— انهضى لأمنحك ما تطلبين .

احتارت سالومى ، فما تدرى ماذا تطلب . فذهبت إلى أمها تسألها ، وما كانت هيروديا فى حاجة إلى تفكير . فقد فكرت ودبرت ، فقالت لسالومى همسا : « اطلبي رأس يحيى » .

عادت سالومى إلى هيرودس ، فقال لها وهى تبتسم :

— هيه ، ماذا تطلبين ؟

— هدية فى طشت من فضة .

فغمغم الملك فى دهش :

— هدية فى طشت من فضة ؟ وما هذه ؟

— رأس يحيى .

فاربد وجه هيرودس . وطارت الخمر من رأسه ، وقال فى فزع :

— لا . . لا . . غير هذا يا سالومى .

— أريد رأس يحيى فى طشت من فضة .

فقال هيرودس وهو يهتز رعبا :

— لا . . لا . إنه رجل صالح ، إنه قديس ، غير هذا يا سالومى . اسألى نصف مملكتى . اسألى أى شىء غير هذا .

فقالت هيروديا فى إصرار :

— لقد أقسمت .

وأيدها أصدقاؤها الرومان والرهبان ، الوالغين فى الإثم والعدوان .

— أقسمت قسما عظيما ، فبر قسمك .

ثارت فيه بربريته ، فلم يشأ أن يحنث أمام مدعويه فى قسمه ، ولو كان الحنث أشرف من سفك دم برىء ، فقال فى صوت خافت خائف :

— أعطوها ما طلبت .

وهبط الجنود إلى القلعة ، وساد القاعة صمت ووجوم . وانقشعت النشوة ، وحل قلق ورهبة ، وانقضى الوقت وئيدا بغيضا ، وإذا بالجنود يعودون يحملون طشتا من فضة ، فوقه رأس يحيى ، وتناولت سالومى الطشت ، وعيون الفزع ترمقها ، وذهبت إلى أمها تقدم لها رأس من سبها ، ومرغها فى العار .

ذبح يحيى ، ذبح من قال عيسى عنه : لم تلد النساء مثله ، ذبح وما اقترف إثما ولا خطيئة ، ذبح طاهر الذيل عفيفا ، ولو كانت دعوى الفداء حقا ، وأن الله يريد فداء عن خطيئة آدم ، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء ، لكان ذلك الدم الطاهر ، الذى أهدر بلا جريرة ، أزكى دم يقدم للفداء ، وخير كفارة عن خطيئة آدم ، ولكن ما كان الله ليأخذ الأبناء بجريرة الآباء ، فقد قرر فى التوراة أن النفس التى تخطىء تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب . والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون ، وقرر أن الآباء

لا يقتلون عن الأولاد ؛ ولا يقتل الأولاد عن الآباء ؛ كل إنسان بخطيئته يقتل .

إن الله عادل ، من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . وهو رحيم ؛ فإذا كان آدم قد أخطأ ، فقد نال جزاء خطيئته ، طرد من جنة عدن ، وهبط إلى دنيا الشقاء ، وراح يستغفر الله ، ويذرف دموع الندم ، ولما كان الله يغفر الذنوب جميعا ، فقد عفا عن زلة عبده ، « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم » .

obeikandl.com

٢٣

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »
(حديث شريف)

شباب بنى إسرائيل الرافل فى العز يحاول أن يتحرر من ربقة الدين ، فهم يكونون طبقة تتطلع إلى محاكاة الرومان الحاكمين ، فوطأة التقاليد ثقيلة بغيضة ، تسكبت العواطف المذخورة المشبوبة بين الضلوع ، إنهم يريدون أن ينفسوا عن غرائزهم ، وأن يقضوا أيامهم فى متعة وسرور . فأجسادهم متعطشة إلى البهجة ، وأرواحهم ظمآى إلى النشوة ، والناموس حائل بينهم وبين الانطلاق المنشود ، فليهجروا الناموس ، وليفعلوا ما يبغون .

كونوا حلقات منهم ، وراحوا يمضون الأمسية فى بيت من بيوت الفاتنات ، اللائى يفتحن دورهن لأصحاب المال والنفوذ ، وكان بيت مريم المجدلية من تلك البيوت ، كانت مريم شابة جذابة ، كأنما صيغت من لبن ودم ، وكانت تمتاز بعينين سوداوين واسعتين ، يتوج رأسها شعر فاحم مسترسل ، يخفى صدرها الناهد البديع .

إذا نسج الليل خيوطه السود على الكون ، انسل الشباب الغنى إليها ، وراحوا يمضون ليلتهم فى سمر وحديث ومجون ، بين قرع الكئوس ، وتثنى الراقصات ، وأنغام الموسيقى التى تحرك الغرائز ، وتبعث الدفء فى الصدور . .

كان لمريم أكثر من عشيق ، وكانوا يتنافسون فى إرضائها ، فيحملون إليها الهدايا من الذهب واليواقيت ، فكانت تفكر أحيانا فى أن تبعث ببعض المال إلى المعبد ، فكان الكاهن يرد إليها مالها ، فالكل يعرفونها غارقة فى الدنس ، والشريعة تحرم لمس أموال الخطائين .

وتحت شجرة ضخمة وارفة الظل ، وقف عيسى فى السهل المنبسط ، الذى

اصفرت فيه سنابل القمح ، فبدا كأنما ارتدى حلة من الذهب ، واجتمع حوله الجموع يصغون إليه ، ومرت مريم المجدلية ، فألفت جمهرة ، فانطلقت فى خفة الغزال تنظر ، فرأت شابا ، لم يكن مثل الشباب الفارغ التهافت عليها كالذباب ، بل كان وجهه ينطق بالطهارة والرزانة ، ولفت نظرها عيناه ، كانتا صافيتين صفاء غريبا ، حتى ليكاد يبدو منهما فؤاده ، وأدامت النظر إليه فشعرت بمهابة ، ووقفت ترنو إليه لحظة ، ثم همت بالانصراف وإذا بصوت عميق يقرع أذنيها ، فتحس كأنما أريقت فى جوفها كلماته . كانت مواعظ قوية أخاذة ، تستحوذ على النفوس ، وتنزل بالقلوب رهبة .

تسمرت مريم فى مكانها ، وأطرقت برأسها ، وأرهفت سمعها ، فأحست كأنما ينتشلها من دنياها ، أصغت إلى هلليل وإلى شماى وإلى الوعاظ من الكتبة والفريسيين ، فلم يطرق أحدهم باب قلبها ، كانت مواعظهم كالطبل الأجوف ، تدوى لحظة وسرعان ما تمحى ، أما ما تسمعه الساعة فينفذ إلى أعماقها ، وتنفعل له كل خالجة وجارحة ، ويبدد الظلام المتراكم فى جوف صدرها ، إنها تشعر أن مواعظه تغسل روحها ، وتخلقها خلقا آخر

وانتهى عيسى من دعوته ، وانصرف وحواريوه حوله ، وانتشر الناس فى الأرض ومريم ذاهلة ، فصوته العميق الطاهر لا يزال يرن فى أعماقها ، وانتبهت فوجدت نفسها وحيدة ، فسارت وهى مشغولة بأفكارها .

وجاء المساء ، فتواتر العشاق على دارها ، والتفوا بها ، لينعموا بمرحها ، فإذا بها مطرقة ساهمة ، يحادثونها وهى شاردة ، فجعلوا يتظرفون ليبددوا كآبتها ، ولكن هيهات ، كانت غائبة بروحها ، وإن كانوا يحلقون حول جسدها .

وولد النهار ، فخرجت مريم إلى الجليل تبحث عمن فجر فى نفسها نبعا من الخير ، فقد باتت تستشعر مشاعر فاضلة ما كانت تعرفها ، وانطلقت تنقب عمن أحيا موات نفسها ، حتى وجدته يعظ الناس ، فهرعت خافقة القلب تصغى إليه .

أحست نحوه إحساسا غريبا ، شعرت بحب يملأ جوانحها ، ولكنه ما كان كذلك الحب الحسيس الهابط بها إلى حمأة الرذيلة ، بل حبا رافعا ينتشلها من وهدتها إلى عالم صاف من الطهر ، إن نورا يسكب فى روحها ، فيفر أمامه ذلك

الظلام الذى ران على حياتها ، وغشاوة الدعارة تنهتك عن عينيها ، فترى جمال العفة ، وحرارة كلماته تبخر مستنقع الدنس الراكد فى أغوارها ، فتحس كأنما صارت فى خفة الطيف أو الملائكة .

وعادت إلى بيتها ، وأغلقت عليها بابها ، ولم تفتحه لطارق ، وصمت آذانها عن توسلات أخدان الليل ، وفى السكون الهاجع طفقت تناجى الله مستغفرة ، تبكى فى حرارة ، فقد عرفت عيونها منذ عرفته الدموع .

وخرجت وقد عزمت أن تنطلق إليه ترفع إليه شكرها على تخليصها من أدرانها ، ولكن لما وجدته يعظ الجموع أحجمت . كانت تعرف قسوة الناس . فإذا ماتقدمت إليه ارتفعت أصوات الهزء والسخرية ، فهم يعرفونها امرأة خاطئة ، وبالقسوة الحكم على الخطاء فى مجتمع مراء يتظاهر بالطهر والعفاف .

وانتشرت الجموع فى الطرقات ، وسار وحواريوه وبعض الرجال ، ومريم فى إثره ، ترجو أن تنفرد به ، لتخر ساجدة تقبل قدميه ، فقد أخرجها إلى النور من دياجير الظلمات .

ودعاه فريسى إلى داره ، فدخل وحواريوه حوله ، ولم يقدم لهم الفريسى ماء ليغسلوا أرجلهم ، فما من ضيف يدخل بيت عارف بالناموس إلا يقدم إليه الماء ، ولم يقبلهم ، فالضيوف يستقبلون بالقبلات ؟ .

وقفت مريم تنظر ، وأفكارها تراودها ، إن هى عادت إلى بيتها فربما لاتتاح لها فرصة مثل هذه ، وإن هى أقبلت فماذا يقول الرجال عنها ؟ وبقيت فى حيرة ، تترجح بين الإقدام والإحجام ، وتغلب إيمانها ، فتقدمت نحو الدار .

سارت وقلبها يدق فى صدرها ، مريم المجدلية الجميلة التى عنت لها الرقاب ، تتقدم واجفة ، فى يدها صندوق من المرمر فيه طيب ، وفى جوفها قشعريرة ورهبة ، ودلفت إلى المكان ، فألفت عيسى ، النبى الذى بذر فيها الإيمان ، متكئا على أريكة ، فركعت خاشعة ، وصبت الطيب على رجليه ، وانهمرت دموعها ، فانتثرت كاللؤلؤ على قدميه ، فتلفتت تبحث عن شىء تجفف به دموعها التى تساقطت ، فلم تجد شيئا ، فحلت شعرها وجعلت تجفف به رجليه .

رمقها سمعان الفريسى فى شزر وزراية ، ولكنها لم تلحظه . كانت ذاهلة عنه

بالفرح المنبثق فى صدرها ، فتلك الدموع الطافرة من مآقيها غسلت روحها ، حتى صيرتها أنقى من البلور . وخطر للفريسى خاطر : لو كان عيسى نبيا لعرف أى امرأة هى تلك التى تغسل قدميه بالدموع .

رفع عيسى بصره إلى الفريسى وقال له :

— يا سمعان ، عندى شىء أقوله لك .

— قل .

— كان لدائن مدينان ، على أحدهما خمسمائة دينار ، وعلى الآخر خمسون ، ولم يكن لهما ما يوفيانه ، فسامحهما ، فأيهما يحبه أكثر ؟

— الذى ترك له أكثر .

— نطقت صوابا .

فطن الفريسى إلى مايرمى إليه ، فهذه المرأة المثقلة بالآثام ، إذا غفر الله لها ، فسيكون حبها له بمقدار عظم خطاياها التى غفرت .

وقال له عيسى :

— أترى هذه المرأة ؟

فلم ينظر إليها الفريسى ، كأنما النظر إليها نجاسة تحتم التطهير ، فاستمر عيسى فى حديثه :

— إنى دخلت بيتك ولم تقدم لى ماء لأغسل رجلى ، أما هي فقد غسلتهما بالدموع ، وجففتهما بشعرها ، لم تقبلنى قبلة وهى لم تكف عن تقبيل رجلى ؟ لم تدهن رأسى بزيت ، أما هى فقد دهنت بالطيب قدمى .

كان عيسى يعرف أن الله غفور ، يحب توبة الخطائين ، تاب على آدم ، وتاب على موسى لما قتل المصرى ، وتاب على داود ، وإنه ليتوب على مريم المجدلية ، التى خشعت باكية مستغفرة ، فقال لها :

— مغفورة لك خطاياك .

وخرجت مريم فرحة مستبشرة ، تحس أنها خلقت خلقا آخر .

٢٤

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » . (قرآن كريم)

كان الوقت صبحا ، النسيم يهب رخاء ينعش الأفئدة ، وصفاء ماء بحيرة جيسارت يقرض النفوس صفاء ، وروعة المشاهد تهز المشاعر ، وتغريد الأخيل الأزرق تنسكب فى الآذان ، فتنشرح له الصدور ، كأنما كان ابتهالا وتسبيحا .

وعلى شاطىء البحيرة ، وقف عيسى فى ثوبه الأبيض ، تتدلى منه الأهداب ، وعلى رأسه غطاء ، وبالقرب منه يوحنا وسمعان ، وحوله باقى حوارييه ، وعلى بعد خطوات وقفت نسوة محجبات ، يتبعنه أينما يذهب ، إنهن مريم المجدلية ، وسالومى زوجة زبدى ، ويونا زوجة جوزى ياور هيرودس ، كن صاحبات أموال ، فأخذن يصرفنها فى سبيل الدعوة .

وجاء الناس إليه من كل قرية ومن كل مدينة ، يصغون إليه ، ويشاهدون آياته ، فراح يعظهم ، ويضرب لهم الأمثال ، فقال لهم :

خرج الزارع يزرع زرعه ، وفيما هو يزرع سقط بعض البذور ، فأكلته طيور السماء ، وسقط بعضها على الصخر ، فلما نبتت جفت ، لأنها لم تسق بالماء ، وسقطت بذور وسط الشوك ، فنبت معها الشوك وخنقها ، وسقطت بذور فى الأرض الصالحة فلما نبتت أخرجت مائة ضعف .

وصمت قليلا ثم قال :

— من له أذنان للسمع فليسمع .

واستمر عيسى يضرب الأمثال للناس ، وحواريوه ينظرون إليه فاغرى الأفواه ، لا يفهمون كل ما يقول ، كانوا صيادى أسماك أغفالا ، لم يتلقوا علما إلا فى مدرسته ، لذلك كانوا إذا خلوا به سألوه عن تأويل أمثاله .

وتفرقت الجموع ، وبقى عيسى وتلاميذه وحدهم ، فقالوا له :

— ماذا تقصد بمثل الزرع والزارع ؟

فرنا إليهم فى ود وقال :

— لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله(١) .

فأصاخوا بسمعهم ، وبان فى وجوههم الاهتمام ، إنه يبشرهم باقتراب الملكوت ، وعلمهم أن يبتهلوا إلى الله فى صلاتهم ضارعين « فليأت ملكوتك » وقد آن أن يكشف لهم عن سر الملكوت ، ذلك السر الذى لا يعرفه إلا إياه ، أشار إليه فى مثله ، ومر المثل دون أن يفطنوا إليه ، كسائر الناس الذين حسبوه وسيلة للتعليم وتقريب الأشياء إلى الأذهان ، قال :

— يعرف الباقون الملكوت بأمثال ، حتى إنهم مبصرين لا يبصرون ، وسامعين لا يفهمون .

وصمت قليلا ، ثم أفضى إليهم بالأسرار :

— الزرع : هو كلام الله . والذين على الطريق : هم الذين يسمعون ، ثم يأتى إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم . والذين على الصخر : هم الذين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح ، وهؤلاء ليس لهم أصل ، فيؤمنون إلى حين ، وفى وقت التجربة يرتدون . والساقطون بين الشوك : هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولا يثمرون . أما البذور التى سقطت فى الأرض الطيبة : فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها فى قلب مؤمن صالح ، حتى تثمر بالصبر .

هذا هو سر ملكوت الله الذى يبشر به ، ويدعو الله فى صلاته أن يرسله للناس ، ذلك الملكوت الذى شريعته البيضاء « كلام الله » ، الزرع سينبت فى الأرض الصالحة ، ويثمر أطيب الثمار بالصبر والإيمان .

كانوا يتلهفون على إعلان ملكوت الله فى حياتهم ، على تأسيس شريعة جديدة ، تحكم فى الأرض ، تستمد سلطانها من السماء ، وينظم المعاملات فيها كلام الله ، كانوا يأملون أن يروا بأعينهم السراج الوهاج الذى قال عنه : « ليس لأحد

---

(١) لوقا (٨ : ١٠ — ٦٥) .

يوقد سراجا ويغطيه ، أو يضعه تحت السرير ، بل يضعه على منارة ، ليهتد الداخلون بالنور » .

عرفوا أسرار الملكوت ، فلن يأتى ملكوت الله . إلا إذا نزل إلى الأرض كلام الله ، وسادت شريعته ، ونبتت تعاليمه فى الأرض الطيبة ، ولن ينال ذلك إلا بالصبر ، والصبر الطويل .

وانطلق عيسى وحواريوه إلى منزل متى ، فقد أعد لهم وليمة ، وكان بين المدعوين بعض حوارى يحيى وبعض الفريسيين ، وكان أغلب المدعوين من الفقراء والخطائين ، فما كان متى يعرف إلا أبناء طبقته .

اتكأ عيسى إلى الوليمة ، منشرح الصدر ، وأقبل على هؤلاء الفقراء والخطائين يبادلهم الحديث فى عطف ، فقلبه الكبير ينفتح لهم ، ويغمرهم بحنان دافق ، وراح يشاركهم الطعام والشراب ، بينما وقف الفريسيون بعيدا فى كبريائهم وعجرفتهم ، فالاختلاط بأمثال هؤلاء الخطائين يخدش كرامتهم ، وينال من صلاحهم وتقاهم ، أما حواريو يحيى فقد نظروا فى إنكار إلى ما يجرى أمامهم ، فأمثال هذه الولائم لا تتفق مع دعوى النسك والتقشف التى نادى بها يحيى .

واقترب الفريسيون من بعض حواريى المسيح ، وقالوا لهم فى استخفاف :

— لماذا يأكل مرشدكم مع الخطائين ؟

لاحظ عيسى تقارب الرءوس ، والهمس والمناجاة ، ففطن إلى ما يدور بين الفريسيين وتلاميذه من عتاب ، فقال :

— لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ، إنى أريد رحمة لا ذبيحة ، لم آت لأدعو الأبرار ، بل جئت أدعو الخطائين إلى التوبة .

فقال له تلاميذ يوحنا :

— لماذا نصوم كثيرا نحن والفريسيون ، بينما تلاميذك لا يصومون ؟

فقال لهم فى رقة :

— هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا ما دام العروس فيهم ، ولكن ستأتى أيام حين يرفع العروس عنهم ، فحينئذ يصومون .

وصمت قليلا ، ثم قال :

— بمن أشبه أناس هذا الجيل ، وماذا يشبهون ؟ يشبهون أولادا جالسين في السوق ، ينادى بعضهم بعضا ويقولون : زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنا لكم فلم تبكوا ، لأنه جاء يحي لايأكل خبزا ولايشرب خمرا ، فقالوا عنه : إن به شيطانا ، وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ، فقالوا : هذا إنسان أكول وشريب خمر .

ودخل يايروس ، رئيس المجمع ، مضطربا وفى وجهه هلع ، فلما رأى عيسى هرع إليه ، وارتمى على أقدامه وقال له فى توسل :

— ابنتى تجود بأنفاسها ، أضرع إليك أن تنقذها .

أثر حزن الوالد الحزين فى قلب عيسى ، فقام معه ، وسار يتبعه حواريوه وحواريو يحي وبعض الفريسيين ، وفيما هو فى انطلاقه أحس يدا تلمسه ، كانت لمسة إيمان عميق ، فالتفت إلى من حوله وقال :

— من الذى لمسنى ؟

فقال بطرس :

— الناس يحشرون حولك ، ثم تسأل عمن لمس طرف ثوبك ؟

وتقدمت امرأة أنفقت كل ماجمعت لتبرأ من مرضها ، كانت تنزف دما طوال السنين ، فرأت أن تلمس ذلك النبى الكريم لعلها تبرأ مما بها ، فنظر إليها عيسى فألفى فى وجهها إيمانا عميقا ، فقال لها :

— اذهبى ، بارئة بإذن الله .

وفى الطريق جاء رسول إلى يايروس ، يحمل إليه الخبر الفاجع ، قال له :

— ماتت ابنتك .

وقال ليايروس وهو يلتفت إلى عيسى ؟

— لماذا تتعب السيد ؟

فقال عيسى لرئيس المجمع :

— لا تخف . آمن .

فقال الرجل فى حرارة :

— آمنت .

وبلغ الحشد بيت يايروس ، فإذا ضجيج العويل يتجاوب فى الفضاء ، فتقدم عيسى ولم يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا ، وقابلته النائحات الباكيات ، فقال لهن :

— لماذا تبكين ؟ إنها نائمة .

فظهر فى العيون من خلل الدموع استخفاف ، ولم تكدره تلك النظرات ، بل طلب من الجميع أن يخرجوا ، وذهب إلى الصبية وخلفه أمها وأبوها وصحابته ، فإذا هى مسجاة فى فراشها ، فأمسك بيدها وقال :

— قومى بإذن الله .

وخفقت القلوب وحبست الأنفاس ، واتسعت العيون ، وإذا بالفتاة تتحرك ، ثم تقوم ناهضة ، وفى الوجوه دهش واستغراب .

obeikandl.com

« لأورشليم جعلت مبشرا »
(أشعيا)

أشرقت شمس دعوته فى بنى إسرائيل ، فالجموع تحشر تصغى إليه وتصدقه ، وصفت سماؤه لم يكدرها بعد عداوة أعدائه وحساده ، فإذا كان أهله لم يصدقوه ولم يؤمنوا به ، فقد كان ذلك سحابة عابرة ، وشرحت صدره تلك البداية الموفقة لرسالته ، فدعا حواريه ، ليبعثهم إلى بنى إسرائيل داعين إلى الله ، مبشرين باقتراب ملكوت السموات .

كان تلاميذه لا يفهمون أمثاله ، بل كانوا يستفسرون منه عما يرمى إليه بتلك الأمثال إذا ما خلوا به . فكيف يبلغ هؤلاء عنه رسالته ؟ إن الأفكار تنبثق من القلب ، وتصقل فى الرأس ، وتخضع للطبع ، فكيف يبلغ يعقوب المندفع ، وبرثلماوس الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، وبطرس المتحمس ، واندراوس المفكر ، وفيليبس المؤمن ، ويهوذا القلق المضطرب ،أفكارا واحدة ، أفكار عيسى النابعة من رقراق نفسه ، الغلفة ، برقة طبعه ، المصقولة بصفاء ذهنه ؟

حرم المسيح عطف الأهل ونعمة الأبوة ، فاتخذ هؤلاء التلاميذ أهلا ، ووجد فيهم منفسا لعواطفه ، فكان يرعاهم رعاية الأب لأبنائه ، يحس نحوهم إحساسات الحب الأبوى ، فكانوا جميعا فى عينيه كاملين .

حتى يهوذا الأسخريوطى ، ذلك الذى جعله أمينا لصندوق جماعته ، كان لم يحرم حبه ، بل كان يقربه ويدنيه .

جاء الجليليون الأغمار ، الذين أوحى الله إليهم أن آمنوا به وبرسوله ، يصغون إلى نبيهم ، الذى راح يرسم لهم الطريق ، قال :

obeikandl.com

— إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ، وفيما أنتم ذاهبون « عظوا » قائلين : إنه قد اقترب ملكوت السموات .

بصرهم بهدف رسالته ، أن يبشروا بنى إسرائيل ، وبنى إسرائيل فقط ، باقتراب ملكوت السموات ، فقد أرسله الله رسولا إلى بنى إسرائيل ، أما الأمم ؛ الشعوب الأخرى ، فسيرسل الله إليها « مشتهى الأمم » الذى بشر به النبى حجى .

كان المسيح يعرف أغراض رسالته ، فما بعث إلا لشعب الله المختار ، وسيرسل الله إلى الأمم الآخر ، الذى قال عنه لبنى إسرائيل على لسان موسى : « سوف أقيم لهم نبيا مثلك ، من بنى إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه[١] ، ذلك الآتى من البرية من الديار التى سكنها قيدار[٢] « من جزيرة العرب » . ذلك الذى بشرت به البشارات ، بأن الله جعله عهدا للشعب ، ونورا للأمم .

حذر تلاميذه أن يذهبوا إلى طريق الأمم ، فالذاهب إلى طريق الأمم هو عبد الله ومختاره الذى بشر به أشعيا : « هوذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم . . . لا يكل ولا ينكسر ، حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته[٣] »

واستمر فى وصيته :

— لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا .

وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا عمن فيها ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا ، ولا تدخلوا بيوتا حتى تستأنسوا وتسلموا ، فإن كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه ، وإن لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم إليكم ، فإذا قيل لكم اخرجوا فاخرجوا وانفضوا غبار أرجلكم .

هأنذا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات ، وبسطاء كالحمام .

فقال بطرس باندفاعه المعهود :

---

(١) تثنية (١٨ : ١٨)
(٢) تكوين (٢٥ : ١٣)
(٣) أشعيا (اصحاح ٤٢)

— وإذا مزقت الذئاب الخراف ؟

— لن ينالوا إلا أجسادكم ، أما أرواحكم الطاهرة فتحيا عند الله .

واستأنف وصيته :

— احذروا الناس ، سيسلمونكم إلى مجالسهم ، وتجلدون فى مجامعهم ، وتساقون أمام الولاة والملوك من أجلى ، لتشهدوا لهم وللأمم ، فمتى أسلموكم فلا تهتموا بما تقولون ، فسيوحى إليكم ما تنطقون ، لأنكم لستم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم .

سيسلم الأخ أخاه إلى الموت ، والأب ولده ، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم . وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ، ولن يخلص إلا من يصبر إلى المنتهى .

ومتى طردوكم من هذه المدينة ، فاهربوا إلى الأخرى ، فإنى الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان .

ليس التلميذ أفضل من المعلم ، ولا العبد أفضل من سيده .. لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا ، فإنى جئت لأفرق بين المرء وأبيه ، والابنة وأمها ، والكنة وحماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته .

من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى .

كان يدعوهم أن يحملوا أرواحهم على أكفهم ، فالخارج فى سبيل الله واهب روحه لله ، فمن يتعرض لوعظ الناس ، فليأخذ صليبه الذى سيصلب عليه إذا ثار الناس ضده ، وليتأهب للموت ، ويأخذ معه أكفانه .

من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ، من يقبل نبيا باسم نبى فأجر نبى يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار ، فأجر بار يأخذ .

وانتهت وصيته ، فخرج تلاميذه إلى بنى إسرائيل ، اثنين اثنين ، حتى إذا أخطأ أحدهما هداه الآخر إلى المحجة ، انطلقوا يبشرون بملكوت الله ، يدعون إلى إله واحد ، لا يدعون معه إلها آخر ، فما حدثهم المسيح فى وصية إلا عن الله الواحد ، وعن رسوله الذى أرسله .

(١) يلاحظ أن عيسى عليه السلام يستعمل دائما لفظة أب بمعنى رب .

٢٦

« ظهر الفساد فى البر والبحر ، بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم
بعض الذين عملوا لعلهم يرجعون »

(قرآن كريم)

كانت نفسه صافية ، جموع الناس تهرع إليه تصغى إلى مواعظه ، ونظرات الحب والإعجاب ترمقه من هنا وهناك ، فتسقى الأمل ، فينمو ويزدهر . لم يمض على رسالته غير سنة واحدة ، وإذا بدعوته صارت حديث بنى اسرائيل ، حديث القرى والمدن ، حديث الأكواخ والقصور .

إن تلاميذه ينتشرون فى الأقاليم يعظون ويبشرون ، ويعلنون للناس اقتراب ملكوت السموات ، فلو رحبت الجماهير بهم ، وألقوا إليهم السمع والأفئدة ، لرفرفت دعوته على الشعب المختار — انفرجت شفتا المستقبل عن أسنانه ، فحسب كل من يحسن به الظن أن سيشهد مولد بسمة راضية .

واستمر فى رحلته الدائمة ، يعظ ويبشر باقتراب ملكوت السموات حتى لاحت له قباب الهيكل ، فانطلق خافق القلب ، تداعبه آمال ، كان يرجو أن يؤمن به أهل أورشليم ، فتصبح المدينة المقدسة قلب دعوته النابض ، تتدفق منه إلى الولايات بشاراته ومواعظه .

كانت أورشليم معقل الصدوقيين والفريسيين ، وحصن أعضاء السنهدرين الذين يستمدون سلطانهم من السلطة الحاكمة ، فلو أن مواعظه وتعاليمه دكت هذه المعاقل ، لفتحت له القلوب أبوابها .

سار فى طرقات المدينة الخالدة ، فإذا اليهود فى مرح وحبور ، كانوا يحتفلون بعيد البوريم ، وهو عيد ليس من الأعياد الدينية ، بل هو عيد لهو وسخرية ، كانوا فى ذلك العيد يتحررون من القيود ، انطلاق وخلاعه ، ضحكات ومغازلات ، مداعبات وقبلات ، حفلات صاخبة ماجنة ، دعارة سافرة أغلقت دونها الأبواب .

والفريسيون والصدوقيون فى الطرقات يتجسسون على الشعب . ليطمئنوا إلى أن كل شىء قد غسل جيدا بالماء . وأن كل شىء طاهر ، وأن شريعة موسى نافذة !

كانت عيونهم المفتوحة ترى خلاعة الإسرائيليات فى ذلك العيد ، وعربدة الشباب الماجن الفارغ ، وكانت آذانهم المرهفة تستقبل ضحكات الإغراء والنداء ، ولكنهم ما كانوا يحركون ساكنا ، كانوا يعتقدون بقدسية ماجاء فى التلمود من أن « خطيئة الزنا مباحة ما دامت تقترف فى الخفاء » كان كل ما هو مكتوب مقدسا عندهم ، ولو كان ذلك المكتوب يسخر بالعقول ، ويسفه الأحلام .

قلب وجهه فيما حوله ، فأحس أسى ، فقد ظهر فى الأرض الفساد ، شريعة موسى اندثرت ولم يبق منها إلا حروف وألفاظ ، أزهق روحها الصدوقيون والفريسيون ، وأعضاء السنهدرين الذين يتمسكون بالناموس إذا كان فى التمسك به جلب مغنم ، أما إذا تعارض مع مصلحتهم فما أيسر إيجاد المحللات .

وجاء يوم السبت فارتدت المدينة المقدسة ثوب الوقار ، انطلق الكتبة إلى الهيكل فى طيالسهم الفضفاضة ، والكهنة فى جبهم السود ، والرجال وقد وضعوا على أكتافهم مشامل الصلاة ، وشدوا إلى أذرعهم التفلين ، وهى صناديق صغيرة تضم الشريعة ، وتدلت من أطراف الأثواب الهدب ، والشارات الزرق التى يحتمها الناموس ، انطلقوا مطرقى الرءوس متظاهرين بالخشوع كأنهم ملائكة ، متناسين عيد البوريم الذى كانوا فيه شياطين ، فترك فى عيسى أثرا عميقا ذلك الرياء البغيض .

وقضيت الصلاة ، فذهب عيسى إلى بعض معارفه فى بيت صيدا ، يمضى عندهم يوم السبت فى حديث ، فالسبت عند اليهود يوم مقدس ، يوم راحة ، فمن عمل فيه عملا أو حمل حملا خرق الناموس ، ومن يخرق الناموس يرجم . انطلق وفى الطريق قابل مفلوجا ممددا على سريره ، كان بائسا يائسا ، فحرك إبؤسه قلب عيسى ، فدنا منه وقال له فى صوت رحيم .

— قم ، واحمل سريرك .

أحس المفلوج كأن حياة جديدة دبت فيه ، فأطرافه تتحرك ، فراح يرفعها ويخفضها وقد انتشر فيه فرح عظيم ، وقعد فى سريره ، ثم قام والدموع تنهمر

من مآقيه ، وحمل سريره وسار منشرحا يكاد يطير من السرور .

لمحه اليهود وهو يحمل سريره فى السبت ، فثار الغضب فى الصدور ، إنه يخرق بذلك العمل والناموس ، فاليهود المتمسكون بحرفية الشريعة لا يليسون يوم السبت حذاء به مسمار . لأن ذلك المسمار حمل ، فكيف يسير الرجل وعلى كتفه سرير ؟

هرعوا إلى الرجل وأمسكوا به ، وقالوا له فى عنف :

— إنه سبت ، لا يحل لك أن تحمل سريرك .

— قال لى الذى أبرأنى : احمل سريرك وامش .

— من هو ؟

— لا أعرفه .

كان عيسى فى رحلة دائمة ، لا يستقر فى مكان ، حتى إن صورته لم تثبت فى الأذهان ، وإن كان اسمه يتردد على كل لسان ، وانصرف الرجل وذهب إلى الهيكل يقدم شكره لله ، ولمح الرجل الذى شفاه ، فدنا منه حتى عرفه ، فلم يكتم أمره ، بل ذهب إلى رؤساء اليهود ، وعلم عليه ، فالشر فى الإنسان .

وجاء رسل اليهود وأمسكوه ، وذهبوا به ليحاكموه لكسره السبت المقدس ، واتجه إلى الكهنة العظام ، فسألوه عن خرقه الناموس فى السبت ، فقال لهم إن الله يعمل كل يوم ، وإن الله رب الأيام ، هو رب السبت أيضا ، وراح يناقش لهم اعتقادهم الخاطىء بأن الله خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى يوم السبت ، وقال لهم إن الله خلق العالم فى ستة أيام ولم يمسه تعب ولا لغوب .

وألفى الكهنة يصغون إليه ، فرأى أن يدعوهم إلى الله ، فقال :

— الحق الحق أقول لكم ، إن الذى يسمع كلامى ، ويؤمن بالذى أرسلنى ، فله حياة أبدية .

إن كنت أشهد لنفسى ، فشهادتى ليست حقا ، ولكن يشهد لى آخر ، وأنا أعلم أن شهادته هى الحق ، أرسلتم إلى يحيى فشهد للحق ، وأنا لا أقبل شهادة من إنسان . لى شهادة أعظم من شهادة يحيى ، جئت من الله بالآيات التى تشهد لى ، فالله أرسلنى ، والله نفسه الذى أرسلنى يشهد لى ، لم تسمعوا صوته ولم تروه

ولم تثبت كلمته فيكم ، لأنكم لا تؤمنون بمن أرسله ، فتشوا الكتب ، فهى تشهد لى .

لاتظنوا أنى أشكوكم إلى الآب (١) ، يوجد من يشكوكم وهو موسى ، الذى عليه رجاؤكم ، لو كنتم تصدقون موسى لصدقتمونى ، لأنه بشر بى ، فإن كنتم لا تصدقون كتبه ، فكيف تصدقون كلامى .

وانصرف عيسى والكهنة ينظرون ، يصرفون أسنانهم ، ولا شىء غير الحنق الشديد ، حتى إذا اختفى عن عيونهم هبوا ليمسكوه ويقتلوه ، ولكن كان قد مضى .

وما كانت الدعوة تنتشر بالتسامح والموعظة الحسنة ، فهؤلاء الأقوياء سادرون فى عداوتهم وطغيانهم ، يريدون أن يقتلوه ليطفئوا نور الله بأفواههم ، فلو كانت تظاهره قوة لتحدى طغيانهم وثبت فى أورشليم يدك حصونهم ، فلا يفل القوة إلا القوة ، وما كانت تعاليمه تنهاه عن أن يقاتل الذين يريدون أن يقتلوه ، فقد قال : « لاتظنوا أنى جئت ألقى سلاما على الأرض بل سيفا » ؛ ولكن ما كان يمتلك ذلك السيف الذى يلقيه ، فلم يكن أمامه إلا أن يغادر أورشليم .

وكان هيرودس فى قصره ، يرى رأس يحيى فى طشت من فضة أينما توجه بصره فى رقعة السماء ، أو فى صفحة الماء ، أو فى سكون الليل ، أو فى جلبة النهار ؛ كان منظره يطارده فى اليقظة وفى المنام ، فلما رفع إليه أن نبيا جديدا بعثه الله بالآيات ، هبت مخاوفه ، فقال لمن حوله :

— هذا هو يحيى الذى ضربت عنقه قد قام من الأموات !

وعاونه تطيره على نمو تلك الوساوس فى نفسه ، فكان يرى يحيى قادما ينتقم لدمه الذى أهدر من غير ذنب ، وضاق بمخاوفه ، وأراد أن يضع لها حدا ، فأوحى إلى من حوله رغبته فى أن يرى ذلك الذى اختلف فيه الناس ، وقالوا عنه إنه إيليا ، بل إرميا ، بل نبى من الأنبياء .

وعاد عيسى إلى الجليل ، ووافاه تلاميذه ، بعد أن خرجوا ليحملوا إلى بنى إسرائيل البشارة ، وأقبلوا عليه يسردون أخبارهم ، لم تتدفق الكلمات من

---

(١) آب (غير أب) بمعنى الله .

أفواههم حارة نابضة ، بل كانت هادئة مغلفة بالأسى ، ما كانت أنباؤهم مفرحة ، بل كانت إقرارا بالإخفاق .

كانوا أتقياء أصفياء ، كل مميزاتهم عمق الإيمان ، وما كانوا صالحين لقيادة الناس بالوعظ والإرشاد ، كانت أعباء الرسالة فوق طاقتهم ، فالله يصطفى رسله من أولى العزم من الناس .

أحس مرارة العداوة بعد المحبة ، ومرارة إخفاق تلاميذه بعد النجاح ، هبت العواصف ، وثارت الأنواء ، وتلبدت سماؤه بغيوم ، حجبت شمس الأمل ، وأسدلت أستار الظلام ، فتيقن أن الطريق طويل ، محفوف بالمخاطر والأهوال . فتدرع بالصبر ، لعله ينجح فى أن يبلغ رسالات الله .

obeikandl.com

٢٧

« إذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » .
(قرآن كريم)

تجاوب صياح الديكة فى كفرناحوم ، ولاح فى الأفق الشرقى ضياء فضى باهت يزاحم عتمة الليل ، وكان فى السماء نجم واحد يتلألأ ، لم يفضحه النور ، وعوت الكلاب فهتكت حجاب السكون ، وترددت أنفاس الفجر ندية عاطرة .

وخرج عيسى إلى البحيرة الهادئة ، كان سطحها مصقولا ، لم يقو النسيم الواهن على تجعيده ، أو مداعبة سعف النخيل ، ولم تكن البحيرة صافية الزرقة ، فقد انتثرت فيها دوائر داكنة ، ودوائر باهتة ، وتجمعت المراكب عند شاطئها ، إرصادا لطلوع النهار .

ووافاه تلاميذه ، فدعاهم إلى الخروج إلى مكان هادىء منعزل ، ليفقههم فى أمر دينهم ، بعيدا عن جلبة الجموع ، فى أحضان الطبيعة الساكنة ، فصعدوا إلى المركب ، وانسلوا فى عمامة الصبح ، يشقون بحيرة جنيسارت . وأخذ النور يراق على الأرض والماء ، والطيور ترفرف فى الفضاء ، والصقور السود تنقض كالشهب ، وسرعان ما تعرج إلى السماء ، ودبت فى الميناء الحياة ، وعيسى وحواريوه فى طريقهم إلى سهل البطيحة العارى الموحش ، البادى كناسك خلع زينته فى هذه البقعة الغنية بالجمال .

وتهادى المركب حتى إذا بلغت الشاطىء ، هبط عيسى وتلاميذه ، وذهبوا إلى مرتقى من تل ، وجلسوا يصغون إلى رسول الله ، كان يعلمهم أوامر الدين ونواهيه ، وفيما هم آخذون بأطراف الحديث ، قال أحد التلاميذ :

— كتب فى كتاب موسى ، إن العهد صنع بإسحاق [1] .

---

(١) هذا الحوار من إنجيل برنابا .

فقال عيسى فى أسى :

— هذا هو المكتوب ، ولكن موسى لم يكتبه ، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله .

الحق أقول لكم : إنكم لو أمعنتم النظر فى كلام جبريل تتحققون من خبث كتبتنا وفقهائنا ، لأن جبريل : قال « يا إبراهيم ، سيعلم كل العالم أن الله يحبك ، ولكن كيف يعلم مقدار محبتك لله ؟ فعليك أن تفعل شيئا تظهر به محبة الله » فقال إبراهيم : « إنى سامع مطيع لأوامر الله » . فقال الله لإبراهيم : « خذ ابنك بكرك إسماعيل(١) واصعد الجبل ، وقدمه ذبيحة لله » . فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟ !

فقال له تلاميذه :

— إن خداع الفقهاء لجلى ، قل لنا أنت الحق ، لأننا نؤمن أنك رسول الله .

فقال عيسى :

— الحق أقول لكم : إن الشيطان يحاول على الدوام تعطيل شريعة الله ، لذلك نجس ، هو وحزبه والمراءون الأشرار ، كل شىء ، المراءون بتعاليمهم الكاذبة والأشرار بحياة الخلاعة والمجون ، حتى ضاع الحق . ويل للمرائين . »

واكتشف الناس مكان خلوتهم . فجاءوا يتراكضون ، وغص السهل بالجموع ، فقام عيسى يعظهم :

— السلام عليكم يا بنى إسرائيل ، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ، ولاعجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتى ؟

— أين بيتك ياروح الله ؟

— بيتى المساجد ، وطيبى الماء ، وإدامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس . وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصون ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الزمنى والمساكين ، أصبح وليس لى شىء ، وأمسى وليس لى شىء ، وأنا طيب النفس غير مكترث ، فمن أغنى منى وأربح ؟ لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن ، كما لايستقيم الماء والنار

---

(١) فى التوراة : خذ ابنك بكرك اسحاق .

فى إناء ، طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ازداد عطشا ، حتى يقتله . إن الشيطان مع الدنيا ، وفكره مع المال ، وتزينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات .

طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته ، وحفظ لسانه ، ووسعه بيته .

طوبى لعين نامت ، ولم تحدث نفسها بالمعصية ، وانتبهت إلى غير إثم .

وسرت النشوة فى صدور الناس ، فصاحت امرأة :

— طوبى لحجر حملك ، ولثدى أرضعك .

— طوبى لمن يسمع كلام الله ويعمل به .

واستمر فى موعظته :

— الحق أقول لكم : من طلب الفردوس ، فخبز الشعير ، والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير .

لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله ، فتقشعر قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد من الله ، ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان : معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية .

اعملوا لله ، ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلى هذه الطير ، تغدو وتروح ، لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها ، فإن قلتم : نحن أعظم بطونا من الطير ، فانظروا إلى هذه الجماعات من الوحوش والحمر ، فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها .

عجبت من ثلاث أناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وبانى القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه ، ابن آدم لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك .

إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإن قلب الرجل حيث كنزه .

لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه ، فردوا علمه إلى الله عز وجل .

لاتطرحوا اللؤلؤ إلى الخنازير ، فالخنازير لا تصنع باللؤلؤ شيئا ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ . ومن لا يريدها شر من الخنزير .

أنتم ملح الأرض ، فإذا فسدتم فلا دواء لكم .

ونظر فإذا بعض الكتبة والفريسيين بين الجموع ، فقال :

— يا علماء السوء ، جعلتم الدنيا على رءوسكم ، والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء ، وعملكم داء ، مثلكم مثل شجرة الدفلى ، تعجب من رآها ، وتقتل من أكلها .

يا علماء السوء ، جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ، ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه .

واستمر فى وعظه ، والناس يلقون إليه السمع ويقولون : « هذا هو النبى الآتى إلى الناس » ومالت الشمس للمغيب ، واختفت خلف التلال الغربية ، والجماهير فى مكانها لا تريم ، ونظر الحواريون ، فأعجبتهم كثرة بنى اسرائيل الذين جاءوا يسمعون المسيح ، إنهم يذكرونهم بآبائهم الذين خرجوا مع موسى ، ها هى ذى الصحراء ، وها هى ذى جموعهم ، وهاهو ذا رسول الله ، ولكن أين المن والسلوى ؟ أطعم الله آباءهم من السماء ، فلماذا لا يطعمهم كما أطعم الآباء ، فذهبوا إلى عيسى وقالوا له :

— يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

فنظر إليهم فى عتاب ، وقال :

— اتقوا الله ، إن كنتم مؤمنين .

قالوا :

— نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين .

فاعتزل وأطرق رأسه ، وأسبل عينيه ، وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال ، قال عيسى بن مريم :

— اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا ، لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين .

قال الله :

— إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين .

رأى عيسى فى نزولها نقمة لا رحمة ، فذهب إلى حوارييه ، وأخبرهم بما أوحى الله إليه ، فخافوا وأبوا نزولها ، وقالوا :

— جاع الناس ، فاصرفهم يبتاعوا لهم خبزا ، فليس عندهم ما يأكلون .

وقال أحد تلاميذه :

— أنمضى نبتاع لهم بمئتى دينار خبزا ؟

فقال عيسى :

— كم رغيفا عندكم ؟ اذهبوا وانظروا .

وعاد إليه أندراوس ، وقال له فى قنوط :

— إن صبيا معه خمسة أقراص من شعير ، وسمكتان .

فقال المسيح :

— ليتكىء الناس .

فبان الدهش فى وجوه الحواريين ، ولكنهم لم ينبسوا بكلمة ، وذهبوا إلى الجموع يقسمونهم فرقا فرقا .

واتكئوا بثيابهم الزاهية ، فبدوا كأحواض الزهور المتناثرة فى حديقة ساعة الأصيل ، وتناول أقراص الشعير ورفع عينيه إلى السماء وشكر الله ، وراح يكسر الخبز ، فباركه الله حتى أشبع الجميع .

وأمر تلاميذه أن يركبوا السفينة ويتركوه ، وانسل من الناس واعتزلهم ، كان يشعر براحة كلما أمضى الليل قائما يناجى ربه . وخشع الكون ، ونامت العيون ، إلا عيناه ، كانتا شاخصتين إلى السماء ، وسكت كل لسان إلا لسانه ، كان يقول :

— اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى . اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى .

٢٨

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل لله ما فى السموات والأرض كل له قانتون ، بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »

(قرآن كريم)

وجاء الهزيع الأخير من الليل ، فهبت الرياح وصفرت فى الفضاء ، وعيسى فى خشوعه يدعو الله ، حتى إذا انتهى من مناجاته وصلاته قام ذاهبا إلى البحيرة . فرأى المراكب فى الغبش تعابثها الرياح ، والأمواج ثائرة مزمجرة ، ترفعها فى غضب وتحطها فى استياء ، ولمح حواريه يغالبون الموج ، والموج يغلبهم ، فانطلق إليهم يمشى على الماء .

نظر الحواريون فألفوا شبحا يسير على الماء ، عليه كساء ، نصفه إزار ، ونصفه رداء ، فانقبضت قلوبهم خوفا ، وصرخوا فى رعب فقد حسبوه خيالا ، فإذا بصوته العذب يمس آذانهم :

— لا تخافوا .

فنزلت بهم طمأنينة وأمن ، وهدأت مخاوفهم ، وصاح بطرس باندفاعه المعهود .

— يامعلم ، إن كنت أنت هو ، فمرنى أن آتى إليك .

فقال له عيسى :

— تعال .

فنهض بطرس ، ووضع إحدى رجليه على الماء ، ثم ذهب ليضع الأخرى فخفق قلبه واضطرب ، فصاح وهو يهوى :

— غرقت يا نبى الله ، نجنى .

— أرنى يدك يا قصير الإيمان .

ومد يده وانتشله ، وصعدا إلى السفينة ، فالتفت كل من فيها حوله يرمقونه في دهش ، فالتفت إليهم وقال :

— لوكان لابن آدم من اليقين قدر شعيرة لمشى على الماء .

وسكنت الرياح ، واستوت السفينة على الماء ، وانسابت في طريقها ، والمسيح يحدث تلاميذه وهم يصغون ، لم يكتبوا أقواله ، لأن ملكوت السموات صار قريبا .

وبلغت السفينة الشاطىء وقد ولد فجر يوم جديد ، وهبط عيسى وتلاميذه ، فلما رآه الناس دهشوا ، فتلاميذه أقلعوا وهو على الشاطىء ، وقد تفرقوا وهو في الفضاء وحده يناجي ربه ، فكيف لحق بحواريه ؟

وتجمعت الجموع حوله وانطلقوا إلى مجمع كفر ناحوم ، وانتشر خبر إطعامه الناس ، فأقبلت الوفود ، يداعب نفوسهم الجشعة أمل إطعامهم ، وكأنما قرأ عيسى ما تخفي صدورهم ، فقال لهم :

— الحق الحق أقول لكم ، أنتم تطلبونني لا لأنكم رأيتم آيات ، بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم .

وقلب ناظريه فيهم ، ثم رأى أن يرفعهم إلى عالمه الروحي المتحرر من الماديات ، فقال لهم :

— اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقي ، للحياة الأبدية ، الذي يعطيكم ابن الإنسان . ذلك الطعام الذي باركه الله .

— ماذا نفعل حتى نعمل أعمالا ترضى الله ؟

فقال لهم :

— أن تؤمنوا بمن أرسله .

— أرنا آية حتى نؤمن بك . آباؤنا أكلوا المن في البرية .

كان عيسى يحاول أن يحلق بهم في عالم الروح ، وهم لا يريدون إلا أن يهبطوا إلى عالم الماديات ، إلى إشباع البطن ، إلى الطعام البائد .

— لم يعطكم موسى الخبز من السماء ، ولكن الله يعطيكم الخبز الحقيق من السماء ، لأن خبز الله النازل من السماء يهب حياة خالدة .

لم يفهموا ما يرمى إليه . حسبوه يعدهم خبزا يشبع بطونهم ، لا خبزا يشبع أرواحهم ، فقالوا له :

— أعطنا هذا الخبز فى كل حين .

فقال لهم فى صوت عميق :

— أنا هو خبز الحياة ، من يقبل إلى فلن يجوع ، ومن يؤمن بى فلن يعطش إلى الأبد . إنى جئت من السماء لا لأعمل مشيئتى ، بل مشيئة الذى أرسلنى .

وتذمر اليهود ، فهو ينال من مقدساتهم دون أن يمنحهم خبزا ، قال لهم إن موسى لم يعطهم خبزا من السماء ، فسكتوا حاسبين أنه سينزل عليهم من السماء الخيرات ، فلما قال إنه هو خبز الحياة ، لم يبق من الغضب مفر ، غضبوا لتسفيه معتقداتهم ، وتذمروا ، وزاد فى تذمرهم قوله إنه جاء من السماء ، وكأنما أراد أن يوضح لهم كلامه ، فقال لهم :

— الحق الحق أقول لكم ، من يؤمن بى فله حياة أبدية ، أنا هو خبز الحياة .

وزادت ثورتهم ، فما كانوا يريدون ذلك الخبز الواهب الحياة الأبدية ، بل يريدون خبز البطون ، فقال لهم يشرح الخلود :

— آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا . أما الخبز النازل من السماء فمن يأكل منه لا يموت .

كانوا فقراء أغفالا ، لا يفهمون الأمثال ، وما من حديث ألقى إلى من لا يفهمه إلا كان له فتنة ، لذلك تخاصم الناس ، وارتفعت فى المجمع المشادات والمناظرات ، جلجلت أصوات الكتبة والفريسيين بالاعتراض ، صدقوا أن يحيى رسول الله ، فقد كانت تعاليمه سهلة لا تنافى الشريعة ، ولكنهم لن يصدقوا رسالة من جاء ينقض الناموس ، ويقول إن موسى لم يعطهم المن من السماء ، وإنه خبز الحياة .

وانفض الناس من المجمع ، غاضبين ثائرين ، حتى بعض تلاميذه تركوه ، لم يفهموا قوله إنه جاء من السماء ، ولم يقبلوه ، وخرج عيسى وحوله حواريوه ، وانطلقوا صامتين ، وفطن إلى أنهم يكتمون تذمرهم ، فقال لهم :

— الروح هو الذى يحيا ، أما الجسد فلا يفيد شيئا ، الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة . ولكن منكم قوم لا يؤمنون .

وساروا لا ينبسون بكلمة ، وضاق عيسى بصمتهم ، فقال لهم :

— لعلكم تريدون أن تمضوا ؟

فقال له بطرس فى فزع :

— يا روح الله إلى من نذهب ؟ عندك كلام الحياة الأبدية ، وقد آمنا وعرفنا أنك رسول الله .

وتبخر القلق المنتشر فى صدورهم ، وشاعت فيهم طمأنينة عجيبة ، وحل بهم إيمان عميق ، فرفعوا وجوههم إلى السماء ، وقالوا :

— ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين .

obeikandl.com

« واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت
إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ،
كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » . (قرآن كريم)

أورشليم غارقة في المشاحنات الدينية ، مناظرات بين أتباع هلليل وأتباع شماى ، وعداوات بين الصدوقيين الشعبيين وبين الفريسيين الطائفيين ، وبنو إسرائيل يرسفون في أغلال هؤلاء الكهنة راضين ، فقد ثبتوا في أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس .

راحوا يشغلون الناس بالمحظورات والمحرمات ، ويقسمونها إلى أقسام ودرجات ، فشماى في تزمته يمنع في يوم السبت عيادة المريض ، بل يحرم فيه الدفاع عن النفس ، وقتال الأعداء وإن جاءوا للبلاد محتلين ، والشيوخ يحرمون حمل شيء فيه ، وإن كان إبرة ، أو كان قطعة من قماش زينت ثوب امرأة ولم تثبت فيه ، حتى الأسنان الصناعية كانت حملا لا ينبغي حمله في السبت المقدس .

أظهروا التقشف رياء للناس ، وتظاهروا بالتقوى وحماية الشريعة ، حتى إن فريق « الجباه الدامية » من الفريسيين ينطلقون في الطرقات مغمضي العيون ، لكيلا تقع عيونهم على النساء ، فيتخبطون في سيرهم ، وبالجدران يرتطمون ، فتسيل الدماء على الجباه إرضاء للناموس .

وإمعانا في النفاق تمسكوا بحرفية الناموس ، مضحين بالروح على مذبح الرياء ، فإذا جاع يهودي يوم السبت ولم يكن عنده ما يأكله ، فخير له أن يموت جوعا من أن يطهى طعامه ويكسر السبت ، لأن كاسر السبت يستحق الرجم ، وأما من مات في سبيل حفظه فهو شهيد .

وكان بنو إسرائيل يعتقدون أن عداوة الصدوقيين والفريسيين في سبيل

الشريعة والتلمود ، ولكن ماقامت تلك العداوة إلا للتنافس على المغانم ، والإثراء من غفلة الناس . كان الصدوقيون يحتكرون بيع الحمام فى الهيكل ، فضاعفوا المناسبات التي يقدم فيها إلى الله تقربا وزلفى ، فهب أعداؤهم الفريسيون يعملون على نقص تلك المناسبات ، ليلحقوا بتجارة أعدائهم البوار ، فكانت المناسبات المقدسة فى أيدى حماة الشريعة منافسة ، يرفعها فريق ويحطها فريق .

يا ويل من يكسر يوم السبت من رجال الدين ! لن يطمئن إيمانهم حتى يرجموه ، ففى كسر السبت إثم كبير ، ولكن ماحرموه على الناس أحلوه لأنفسهم ، وما أيسره من عمل أن يضعوا قاعدة جديدة « لاسبت فى الهيكل » فيوقدوا النار ، ويذبحوا الذبائح ، ويختنوا الأطفال ، ويتناولوا النذور .

وذاع بين أروقة الهيكل أن نبيا قام فى الجليل ، يبشر كيحي باقتراب ملكوت السماء ، ويشجع الناس على ترك الذبائح ؛ يعلمهم أن الله لاينال من لحوم الأضحيات ولا من دمائها ، وإنه لا يريد من عباده إلا التقوى ، فثار أعضاء السنهدرين ، أولئك الذين ورثوا شيوخ بنى إسرائيل ، ولكن لم يعملوا عملهم ، بل كانوا فى الفساد غارقين .

ساءهم أن يقوم ذلك النبى الجديد يفتح عيون بنى إسرائيل فيزعزع سلطانهم ، ويقوض صرحهم الذى أقاموه على الخداع ، ويفضح تعاليمهم ، ويسد منافذ الخير فى وجوههم ، فلو قر فى أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون ذبيحة ، ودون وساطة الكهان ، لبارت تجارتهم ، وذابت قدسيتهم ، وجف نهر الأموال المتدفق عليهم ، لذلك بعثوا إليه فريسيين متعصبين ، يتجسسون عليه ، حتى إذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه ، واستراحوا من خطره الذى أرقهم ، وأطار النوم من العيون .

أرسل أعضاء السنهدرين جواسيس يتربصون به ، وأرسل إليه هيرودس أنتيباس يدعوه أن يأتى إلى قصره ، لا ليستمع إلى تعاليمه ، فما كان مهتما بتلك التعاليم ، ولكن لأن شبح يحي الذى يطارده فى اليقظة وفى المنام أفزعه ، وجعله يعتقد أنه قام من الأموات يثأر لدمه ، فأراد أن يرى ذلك النبى ، ليستريح من هواجسه التى تضنيه ولكن عيسى لم يستجب لدعوته .

وفى الجليل حشد الناس يصغون . وأقبل جواسيس أورشليم يسمعون ، فراح يعظ الناس :

— إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته . ويمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستر بابه . فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

واستمر فى موعظته ، ثم خرج هو وتلاميذه إلى الحقول ، كان اليوم سبتا . فراح يفقه حواريه فى الدين ، إنهم لا يفهمون أمثاله ، فيشرح لهم فى خلوته ما استغلق عليهم ، وما دق على أفهامهم ، واستمروا فى درسهم ، وجواسيس أورشليم على البعد يرصدونهم ، يترقبون أن يقيموا عليه الحجة ليحاكموه .

كان عيسى يدعو بنى إسرائيل إلى الله الواحد ، إلى ما دعا إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والنبيون ، فلو أنه دعا مع الله إلها آخر ، لوجد الفريسيون فى ذلك الشرك ما يبرر قتله ، ولكنه يؤكد فى كل مواعظه أنه جاء بشيرا ، وأنه ماجاء لينقض شريعة موسى ، بل ليكملها ويثبتها ، فكان من العسير أن يتهموه بالمروق والخروج على الدين .

عض الجوع الحواريين ، فهبطوا إلى حقل ، وقطفوا بعض سنابل القمح ، ثم فركوها وذروها وأكلوها ، ورأى الفريسيون المتجسسون أن التلاميذ قد جاءوا أمرا إدا ، فالحصاد والدراس فى السبت من المحرمات ، وما قام به التلاميذ من قطف وفرك إن هو إلا حصاد ودرس ، كسر الناموس فى يوم السبت ، وهى جناية تنطبق لها السماء على الأرض .

هرع الفريسيون إلى عيسى غاضبين ساخطين ، وقالوا :

— فعل تلاميذك ، ما لا يحل فعله فى السبت .

كان عيسى يفهم عقليتهم ، إنهم يخاصمون بالتوراة ، ولا يقبلون إلا حكم التوراة ، فلو أنه حاول أن يبرىء تلاميذه بالمنطق والعقل ، لوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، ولأعرضوا عنه ، ولجوا فى اتهاماتهم ، لذلك رأى أن يبرئهم ، بتذكير هؤلاء الغاضبين بحوادث مماثلة وقعت لأنبيائهم ، فقال لهم فى هدوء :

— أما قرأتم مافعله داود حين جاع هو والذين معه ، كيف دخل بيت الله

وأكل خبز التقدمة ، الذى لا يحل له أكله ، ولا للذين معه ، لأنه للكهنة فحسب ؟ أو ما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت يدنسون السبت فى الهيكل ؟ إنى أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل . لقد جعل السبت للانسان ، ولم يجعل الإنسان للسبت ، والله رب الأيام هو رب السبت أيضا .

وصمتوا كأنما ألقمهم حجرا ، وانسلوا يطوون صدورهم على حقدهم ، فإن كان قد هزمهم هذه المرة ، فلن يهزمهم مرة أخرى ، سيتربصو به الدوائر ، وسيسقط فى أيديهم يوما ، ويومذاك لن ينقذه حرصه أومعرفته الناموس ، وابتعدوا يرقبونه ، يحصون حركاته وسكناته .

خفقت شمس الأصيل ، ونفضت على الأفق الغربى نبتا أصفر ، وراحت تلم أشعتها لتودع الدنيا ، فانطلق عيسى وحواريوه إلى المجمع ، ودلفوا إليه ، فإذا الكتبة والفريسيون فى الصفوف الأولى ، وما تقدم عيسى خطوات حتى أسرع إليه بناء به حادث ، وتوسل إليه أن يشفيه ، فقال له :

— اذهب وقم فى وسط المجمع .

فذهب الرجل والفريسيون والكهنة يرمقون عيسى فى اهتمام ، يترقبون أن يشفى الرجل ، فيكون ذلك حجة على تدنيس السبت ، فالتفت عيسى إلى الفريسيين الشامخين غرورا وقال لهم :

— أيحل فى السبت فعل الخير أم فعل الشر ؟ تخليص نفس أم قتلها ؟

لم ينبسوا بكلمة ، بل ظلوا ينظرون ، فما جاءوا ليناقشوه ويناظروه ، بل جاءوا يترقبون خطأه ، ليقبضوا عليه ويحملوه إلى السنهدرين .

فرماهم بنظرة حادة وقال لهم :

— إذا كان لأحدكم خروف وسقط فى حفرة فى يوم السبت ، ألا ينتشله ؟

أغرقوا فى الصمت ، بقيت عيونهم مثبتة به ، فنبت فى صدره غيظ ، ولكنه كظم مابه وقال :

— انقاذ إنسان أفضل من إنقاذ خروف ؛ إذا يحل فعل الخير فى السبوت .

وقال للبناء فى رفق :

— مد يدك .

فراح الرجل يمد يده ، فإذا اليد اليابسة تتحرك ، وعادت سيرتها الأولى ، وتحرك الغيظ فى صدر أعدائه ، فمالت رءوسهم ، وطفقوا يتشاورون ، حتى إذا اتفقوا على قتله وهموا به ، ألفوه قد غادر المجمع ، واختفى عن العيون .

obeikandl.com

٣٠

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه »
(قرآن كريم)

مواعظ تتدفق من قلب مشتعل بحب الإنسانية ، ملتهب بالعشق الإلهى ، وأفئدة مؤمنة ، تفتحت لغيث الرحمة والعفو والصدق والإحسان ، وقلوب قاسية ملئت كبرياء وحقدا . كان عيسى يدعو بنى إسرائيل إلى الصلاح ، ويشرح الشريعة الموسوية ، ويعيد الكلم إلى موضعه ، ويبث فيها روحا جديدا ، والمؤمنون يتهللون من عذب تعاليمه ، والأعداء من الكتبة والفريسيين فى جبههم السود ، قلوبهم غلف ، يترصدون له أن يخرق الناموس ، ليقودوه إلى حتفه .

كان يسلط نور تعاليمه على التقاليد البالية ، فيفضح رياء من نصبوا أنفسهم حراسا على الدين ، أخذ يمجد الروح ، ويعلم الملأ أن الروح يحيا ، أما الجسد فيبلى ، ولا يفيد شيئا ، والكهنة يقدسون القبور ، ويبالغون فى تزيينها ، ويعظمون الموتى . كان لا يخشى فى الله لومة لائم ، وهم يتملقون العامة جلبا للثناء والمديح ، يخزهم وخزا قاسيا ، ولكنهم ما كانوا قادرين على إقامة الحجة عليه .

الفريسيون يهتمون بالنظافة ، فقبل الأكل يغسلون أيديهم ، وإذا عادوا من السوق غسلوا أيديهم ، وإذا تنجست الأوانى المعدنية غسلوها بحسب ما تقضى به القواعد الموضوعة ، وإذا كانت الآنية النجسة من الفخار حطموها . ومبالغة فى الطهارة غسلوا « شمعدانات » الذهب ، حتى إن أعداءهم الصدوقيين قالوا عنهم ساخرين : سيغسلون الشمس عما قليل .

ودعا الفريسيون عيسى وتلاميذه إلى وليمة ، ليتناظروا فى أمر الدين ، فراح الفريسيون يغسلون أيديهم قبل الدخول ، أما تلاميذه فقد دخلوا وجلسوا إلى الطعام دون أن يغسلوا أيديهم ، فأسرع الفريسيون إلى عيسى ، وقالوا له فى عجرفة وكبرياء :

— لماذا يتعدى تلاميذك سنن الشيوخ ؟ لم يغسلوا أيديهم قبل الأكل .

فرمق المتمسكين بالتفاهات فى زراية وقال :

— وأنتم لماذا تتعدون وصية الله . وتتمسكون بسننكم ؟

فاتسعت عيونهم . كأنهم يسألونه أن يفسر دعواه . فقال لهم :

— تقولون لأبناء الفقراء : انذروا للهيكل نذورا . فيذرون القليل الذى يجب أن ينفقوه فى عول آبائهم . فإذا احتاج الآباء إلى هذه النقود . صرخ الأبناء منذرين : هذه النقود نذر لله . فيصيب الآباء ضيق . إن الله يقول : أكرم أباك وأمك . ولكنكم بسننكم حرمتم الآباء بر الأبناء .

أيها الكذابون ، أيستعمل الله هذه النقود ؟ إن الله هو الغنى الوهاب . إنه يقول على لسان داود : « لا ينال الله لحوم الثيران ولا دماؤها .

أيها المراءون ، عطلتم كلام الله وأحييتم سننكم . لقد تنبأ أشعيا عنكم . قال : « هذا الشعب يسبح لى بشفتيه ، وقلوبهم غلف ، يعبدونى بالباطل . فتعاليمهم وصايا الناس » .

التزموا الصمت ، فما ناقشهم إلا أفحمهم ، إنه يقوض سننهم فوق رءوسهم ، وما يملكون إلا الصمت ، والصمت البليغ . وتضاءلوا كتلاميذ أمام عالم كبير ، وراح يعلمهم :

— اسمعوا وافهموا : ما يدخل فم الإنسان لا ينجسه ، بل ينجسه ما يخرج من الفم .

فهم الفريسيون ما يرمى إليه ، كانوا أهل ثقافة ، وما قتلهم إلا غرورهم ، فرحوا بما عندهم من علم ، فأعرضوا عن الآيات ، أما حواريوه فلم يفهموا شيئا ، كانت عقولهم الضعيفة لا تتفتح للحكمة ، فانتظروا حتى إذا خلوا به سألوه ماذا يريد بهذا مثلا .

أحس الفريسيون مرارة الهزيمة ، فتفرقوا . والحواريون يرمقون عيسى فى غبطة ، كان نصره عليهم مبينا ، وتقدم إليه تلاميذه وقالوا فى مرح :

— لما سمع الفريسيون قولك نفروا .

فقال عيسى فى هدوء :

— كل غرس لم يغرسه الله يقلع . دعوهم . هم عميان يقودون عميانا ، وكل أعمى يقود أعمى فى الهاوية يتردى .

وانطلقوا ، فسأله بطرس :

— فسر لنا ذلك المثل .

فرمقهم فى عطف ، كان يحبهم ، يحب إخلاصهم ، يحب إيمانهم ، وإن كانوا لا يفقهون أمثاله . قال :

— ألا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضى إلى الجوف ، ثم إلى الخارج ، وأما ما يخرج من الفم فيصدر من القلب ، وذاك ينجس النفس ، فمن القلب تخرج أفكار خبيثة : قتل ، زنا ، فسق ، سرقة ، شهادة زور ، كفر . هذه هى التى تنجس الإنسان ، وأما الأكل بأيد لم تغسل فلا تنجس الإنسان .

وسار عيسى فى رحلته الدائمة ، انطلق إلى نواحى صور وصيدا ، وهو يحادث حواريه ، وإذا بامرأة كنعانية تركض وراءه قائلة :

— ارحمنى يا سيدى ، يابن داود ، ابنتى تتعذب كثيرا .

فلم يلتفت إليها ، ما كان ذلك عن قسوة ، بل أراد أن يثبت فى أذهان تلاميذه الذين لا يمتازون بالفطنة ، حقيقة طالما رددها عليهم ، واستمرت المرأة الكنعانية فى توسلاتها :

— ارحمنى يا سيدى .

وصم أذنيه عن توسلاتها ، لأنها لم تكن إسرائيلية ، حتى إن تلاميذه عجبوا من أمره ، فما كان فظا غليظ القلب ، وظلت المرأة فى صياحها :

— ارحمنى يا سيدى ، ارحمنى يابن داود ، ابنتى تتعذب .

وضاق تلاميذه بها ، فقالوا له :

— اصرفها لأنها تصيح وراءنا .

فقال لهم :

— لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة .

هذه هى الحقيقة التى يريد أن تقر فى أذهان حواريه . قال لهم قبل أن يرسلهم مبشرين : إلى طريق أمم لا تمضوا . إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل بالحرى اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة[1] . وها هو ذا يعيد عليهم قوله مؤكدا أن الله بعثه رسولا إلى بنى إسرائيل .

فسجدت المرأة عند أقدامه وقالت :

— سيدى أغثنى .

ولم تنهض المرأة إلا بعد أن اطمأنت إلى أنه قد شفى ابنتها بإذن الله[2] .

---

(١) إن كل الآيات المضادة لهذه الآيات إما محرفة أو زائدة ، ويؤيد ذلك ماجاء فى « قاموس الكتاب المقدس » للدكتور جورج بوست الأمريكى ، فقد ذكر أن خاتمة الإصحاح السادس عشر (مرقص ١٦ : ٩ — ٢٠) لم تكن فى نسخ إنجيل مرقص القديمة ، بل أضيفت إليه فيما بعد .

(٢) جاء فى إنجيل متى : فأتت وسجدت له قائلة : ياسيدى أعنى : فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت : نعم ياسيدى ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم إيمانك . ليكن لك كما تريدين ؛ فشفيت ابنتها من تلك اللحظة .

وأرجح أن يكون هذا قد صدر عن الرسول الكريم ، فما يصدر هذا القول من إنسان ذى قلب كبير ، وإذا كان المسيح قد قال ذلك كان وصمة لكل من اتبعوه من غير بنى إسرائيل .

« وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » . (قرآن كريم)

الليل والشجر ساجدان ، والكون خاشع تدثره قدسية وجلال ، وعيسى شاخص إلى السماء يناجى الله ، فالغيوم تتكاثف حول رسالته ، والعداوات المريرة أطلت بوجهها البغيض ، فخلا بربه يستمد منه عونه وتأييده .

كان يدعو الناس بالحسنى والموعظة الحسنة ، كان رقيقا شاعرا ، يبغى أن يجلب للبشر سعادة ، رءوفا رحيما ، يتحاشى إيلام الناس ، ولكن أعداءه أعلنوا الحرب عليه ، وأشعلوا نار العداوة والبغضاء ، فلم يعد للسلم مكان ، سيقابل العداوة بالعداوة ، وإذا أمده الله بسلطان ، فسيقابل القوة بالقوة حتى يضع الحق ، فما كانت الشرائع الصالحة تغرس فى الأرض بأغصان الزيتون ، ومعسول الكلام .

للباطل جنوده وأعوانه ، وهم قساة غلاظ القلوب ، فجرة لا يرعون حرمة ، ولا يقفون فى عداوتهم عند حد ، فإذا لم يحشد الحق أعوانه ، ويشهرها على الباطل حربا لا هوادة فيها ، فسيزهق الحق ، ويتمكن للباطل فى الأرض ، ويسود العالم الفساد .

وانبثق الفجر ، وعيسى فى خشوعه فأحس كأن قوة أريقت فى جوفه ، فتيقن أن الله رب الحب ، هو رب القوة أيضا ، أمده بسلطان ليصرخ فى وجوه أعدائه بالحق دون أن يخشاهم ، ذلك السلطان المهيب الذى أمد به من أرسلهم من قبله . وقام عيسى فأسرع حواريوه إليه ، وراحوا يصلون ، ولما قضيت الصلاة ، انطلقوا يستقبلون عهدا جديدا من الجلاد والكفاح والاضطهاد ، فى سبيل التبشير باقتراب ملكوت السموات .

وجاءت الجموع زمرا تعيره السمع ، وجاء جواسيس أورشليم مثقلين بالرياء ، يترقبون من الناس الاحترام والتوقير ، وقد ملأت قلوبهم الإحن . يصغون إليه ، ليقيموا عليه الحجة ، وما كانوا مصدقيه ، ولو جاءهم ملائكة من السماء يشهدون له .

وقام الرسول يعلن الملأ بالحقيقة الجديدة :

— من ليس معى فهو على .

رمقه الناس فى دهش ، كانت فى عينيه الصافيتين قوة ، وبدا الحمل فى إهاب أسد ، عودهم ناعم القول ، والمواساة والعطف ، والتسامح وحب العدو ، وإذا به اليوم يعلنها مدوية : أنه لم يعد ذلك المتشبث بأهداب السلام ليهنأ بالسلامة ، بل رجل الحرب الذى يبرز للنزال ، فإما انتصر فى سبيل مبدئه أو هلك دونه .

وران على الجميع هدوء ، كانوا يقبلون إليه يرشفون من نبع حكمته ما يملؤهم نشوة ، ثم يدعونه ويعودون إلى دورهم آمنين ، وما كان فى ذلك نصب لهم ، بل كان فيه لذة ، أما أن يدعوهم إلى الانضمام إليه على السلطة ورجال الدين ، فدون ذلك مخاطر وأهوال ، وما كانوا يركبون الصعاب طائعين ، فقال لهم :

— اجعلوا الشجرة طيبة وثمرها طيبا ، أو اجعلوا الشجرة خبيثة ، وثمرها خبيثا ، لأن من الثمرة تعرف الشجرة ، يا أولاد الأفاعى ، كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة ، فمن فضلة القلب يتكلم الفم ، الصالح يخرج الصالحات من الكنز الصالح فى القلب ، والطالح يخرج الشر من الكنز الخبيث .

أقول لكم : إن كل كلمة خبيثة ينطق بها المرء يحاسب عليها يوم الدين .

انفعلت الجموع ، كأنما لا تنفعل إلا بالقوارع . إن هذا الصوت يذكرهم بصوت حبيب ، بصوت يحيى الشهيد ، « يا أولاد الأفاعى » كانت لها فى نفوسهم أثر السحر ، إنها الوصف الذى ألبسه يحيى للفريسيين الوافدين إليه من السنهدرين ، وهو نفس الزجر الذى يوجهه عيسى إلى جواسيس أورشليم . وكادت الجماهير تتجاوب لدعوته ، وكادوا جميعا يعلنون فى ثورة حماستهم ، أنهم معه على أعدائه وأعداء الدين ، وفطن الفريسيون إلى ما يعتمل فى نفوس الجموع ، فأرادوا أن يريقوا على الجذوة المتأججة فى الصدور ماء باردا ، فقالوا :

— نريد أن نرى منك آية .

خبت النار المتدلعة فى الأجواف ، ثما يطلبه الفريسيون حق . جاء أنبياء بنى إسرائيل بالآيات ، وقد سمعوا أنه شفى المرضى ، وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ، ولكنهم لم يروا بعيونهم شيئا ، فلو شاء أن يتبعوه ، وأن يكونوا معه لا عليه ، فليأتهم بآية من ربهم ليصدقوه وتطمئن قلوبهم .

واتسعت العيون واشرأبت الأعناق ، وكتمت الأنفاس ، وساد المكان ترقب وانتظار . كأنما الآيات شعوذة مشعوذين ، أو سحر ساحرين ، وما دار بخلدهم أنه ما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله .

ورنا عيسى إلى الجموع الغارقة فى الجهالة رنوة غضب ، ثم قال :

— جيل شرير فاسق ، يطلب آية ولا تعطى له .

وارتفعت أصوات الحنق والغضب ، وراح الفريسيون يزكون ثورة الجماهير ، ويفضون الناس من حوله ، فانجابت الجموع كما ينجاب السحاب ، وبقى عيسى وحيدا وحوله حواريوه وفى القلب أسى ، وفى الوجوه أمارات الحزن العميق ؛ واقترب فريسى من عيسى كالأفعى ، وأظهر له الود ، ودعاه إلى الغداء ، ولو كان مخلصا لدعى حواريه معه ، ولكنه دعاه وحده .

ودلف الرسول إلى بيت الفريسى ، فألفى نفسه بين أناس يتطلعون إليه فى تحد ، فى عيونهم شر ، وفى جلوسهم كبر ، ووجوههم تنضح بخبث مافى القلوب ، فلم يضطرب ، ولم يراء مثلهم ، فلم يذهب ليغسل يديه ، بل انطلق إلى المائدة وجلس .

ارتسمت بسمات الزراية على الشفاه ، وقام إليه أحدهم وقال :

— لم تغسل يديك قبل الأكل .

فأدار عيسى عينيه فى المتكئين إلى المائدة وقال :

— إنكم أيها الفريسيون تطهرون القصعة وخارج الكأس ، أما بواطنكم فمملوءة شرورا وخبثا ، يا أغبياء من صنع الظاهر صنع الباطن ، تصدقوا بما عندكم يتطهر كل شىء ، ولكن ويل لكم أيها الفريسيون ، يامن تعشرون النعنع والسذاب وكل البقول ، وتتجاوزون عن محبة الله والحق . كان عليكم أن تعملوا هذه ولا تتركوا محبة الله والحق .

ويل لكم أيها الفريسيون ، يامن تحبون الصدارة فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم مثل قبور مخفية . من يمشون عليها لا يعلمون .

فظهر الغضب فى وجه واحد من الناموسيين ، وقال قاطعا نهر توبيخاته المتدفق :

— إنك تشتمنا نحن أيضا بهذا القول .

لم يقف هذا الاعتراض فى وجه النهر ، بل حوله بكل قوته وكل اندفاعه ؛ فراح عيسى يكيل للناموسيين المتزمتين التهم :

— وويل لكم أيها الناموسيون ، تضعون على عوائق الناس أحمالا لا يطاق حملها ، وأنتم لا تمسونها بإصبعكم . ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم ، كأنما تشهدون وترضون بأعمال آبائكم ، كذلك قالت حكمة الله : إنى أرسل إليهم أنبياء ورسلا ، ففريق يقتلون وفريق يكذبون . ليقع على هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ الخليقة ، من دم هابيل إلى دم زكريا[1] .

ويل لكم أيها الناموسيون ، أخذتم مفتاح المعرفة ، فما دخلتم ، وما تركتم غيركم يدخلون .

وفاض مرجل غضب الفريسيين والكتبة ، فقاموا ليبطشوا به ، وإذا بأصوات تلاميذه وأنصاره تصك آذانهم ، فخافوا أن يمسوه بسوء خشية ثورة المؤمنين ، وغادرهم وخرج ، وهم يصرفون أنيابهم فى حنق شديد .

خشى الحواريون أن يكون الفريسى قد دعا الرسول وحده ، لينفرد به أعداؤه ، وينالوه بمكروه ، فجمعوا أنصاره وعند باب البيت وقفوا ينتظرون ، فلما انقضى بعض الوقت ولم يعد ، تناجوا وارتفعت أصواتهم حتى وصلت إلى مسامع المتآمرين ، فملأت قلوبهم رعبا ، فخرج الرسول مرفوع الجبين .

نظر عيسى إلى الجموع ، ولا تزال جذوة الغضب مندلعة فى صدره ، فقال :

— تحرزوا من الرياء ، خمير الفريسيين . ما تبطن يظهر ، وما تخف يعلن ،

---

(١) يلاحظ أن زكريا لم يقتل ، وقيل إنه يقصد زكريا آخر غير النبي ولو كان ما قيل صحيحا لوجب أن يقول « إلى دم يحيى » فيحيى آخر من قتل والظاهر أن هذه عبارة زائدة .

لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور ، وما كلتم به الأذن فى المخادع ، ينادى به على السطوح .

واستمر فى موعظته حتى قاطعه أحد السامعين :

— قل لأخى يقاسمنى الميراث .

لم يكن عيسى مأمورا بتأسيس شريعة جديدة ، ولم يأت بدين ناسخ لدين موسى ، ما جاء إلا ليبشر بقرب ملكوت الله ، ذلك الملكوت الذى يوحد الدين والدولة معا ، ذلك الملكوت الذى سينظم الميراث ، لذلك قال للرجل :

— يا إنسان ، من أقامنى عليكما قاضيا أو مقسما .

ما جاء عيسى لينظم ويشرع ، بل جاء بالإنجيل ، بالبشارة بالأمل ؛ بالسعادة الحقيقة ؛ بالأمر العظيم .

٣٢

« إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل »
(قرآن كريم)

تغشت السماء بسحب دكناء ، وخيم على الكون ظلام ، وانسابت السفينة فى بحر لجى ، ظلمات فوقها ظلمات ، وجلس عيسى وحواريوه مطرقين ، إنهم قليل مستضعفون فى الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، لقد اضطهدهم الفريسيون فى كفر ناحوم ، ولاحقوهم بالعداوة والبغضاء حتى اضطروهم إلى الفرار إلى الوثنيين ، إلى نواحى صور وصيدون .

عاشوا بين عبدة الأوثان آمنين ، كانوا أرأف بهم من شيوخهم وأحبارهم ورهبانهم ، ومن أقاموا أنفسهم حراسا على تراث موسى التليد ، وما دار بخلدهم أن ذلك الذى يحاربونه أحق بموسى منهم ، فهو رسول وموسى رسول .

لم يركن عيسى إلى الراحة والدعة ، فقد اصطفاه الله ليبلغ رسالته ، ولم يختره ليفر من الاضطهاد إلى الأمن والهدوء ، فلو أن الله أرسله إلى الأمم لبقى بين هؤلاء الوثنيين يهديهم إلى نور التوحيد ، ولكن الله أرسله إلى بنى إسرائيل ، فعاد إلى السفينة بعد أن التقط أنفاسه ، وانطلق إلى الجليل ، إلى أعدائه الفريسيين لينازلهم ، فإما قهرهم وإما قهروه .

لم يذهب إلى كفر ناحوم ، فأعداؤه هناك يترقبون ، فاتجه إلى مجدلة ، إلى بلدة مريم ، ليعظ الناس ويجد فى بيتها بعض الراحة التى فقدها بعد أن هجر بيت أمه فى الناصرة ، يجوب البلاد اليهودية يبشر باقتراب الملكوت .

واقتربت السفينة من الشاطىء ، وما مست أرجلهم الأرض حتى وجدوا أعداءهم ينتظرونهم ، كانوا يتجسسون عليهم ، ويعدون حركاتهم ، فعرفوا وجهتهم ، وسبقوهم ليقابلوهم فى تحديهم المقيت .

ولم يكن الفريسيون وحدهم ، بل كان معهم أعداؤهم الصدوقيون ، نسوا ما بينهم من إحن ، وطووا فى أكبادهم مرارة النفوس ، واتحدوا لمكافحة العدو المشترك حتى إذا فرغوا منه ، عادوا سيرتهم الأولى من التنافر والتشاحن ، وما كانت تلك العداوة التقليدية تزعزع سلطانهم ، أو تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

لم يعادوه لأنه جاءهم بدين ينقض دينهم ، أو لأنه أنكر أنبياءهم ، أو دعاهم إلى عبادة إله آخر غير إلههم ، فما فعل شيئا من ذلك ، فهو يحفظ الشريعة ، ويتمثل بأقوالها ، ويدعو إلى مادعا إليه الرسل من قبله ، ويحاول إصلاح بنى إسرائيل ، وتقرير أن الشريعة ليست حروفا بل روح . ولكنهم عادوه واتفقت كلمتهم عليه ، لأنه جاء يعلم الناس أن يتقربوا إلى الله دون وساطة ، ولو اتبع الناس تعاليمه لاندثرت مكانتهم ، ودرست سطوتهم ، وخلعوا المسوح التى تمكنهم من أكل أموال الأرامل واليتامى ، كانوا فى حربهم له يذودون عن كيانهم وعما هم فيه من رغد ونعيم .

واجتمع الناس إليه ، وهم بأن يعظهم ، فقال له الفريسيون :

— لن نصدقك حتى تأتينا بآية من السماء .

فطلبت الجموع منه أن يأتيهم بآية ، فران الحزن عليه ، ولاح الأسى فى وجهه وقال فى مرارة وهو يتنهد :

— لماذا يطلب هذا الجيل آية ، الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية .

كانوا يريدون أن يروا برق البروق وقصف الرعود ، أو نزول مائدة من السماء ، أو يرزقهم المن والسلوى ، فالتفت إلى الغرب ، فرأى آية الله : الشمس غارقة فى بحر الدماء ، فأشار إلى تلك الآية ، ولكنهم أعرضوا عنه ، ومنحوه ظهورهم ، فعاد إلى السفينة مطرق الرأس ، يحز فى نفسه أعراض الناس عن دعوته .

وأقلعت السفينة والشمس تنحدر ، وتصبغ الماء بلون الأرجوان ، وراحت تغوص فى الماء حتى أطبق عليها اليم ، وساد الظلام والسكون ولم يعد يسمع إلا أصوات المجاديف ، وزفيف النسيم .

وفى غبش الليل لاح لعينيه كفر ناحوم ، مدينة الذكريات الحبيبة ، ذكريات شروق دعوته ، ذلك الشروق الرائع الذى كان يغرى بالتفاؤل ، والإغراق فى التفاؤل . ولكن ما أقصر ذلك الشروق ، تجمعت سحب المقاومة ،

لتحجب بينه وبين أنصاره ومريديه . إن قلبه يخفق لكفر ناحوم ، وروحه تهفو إلى شاطئها ، وكل خالجة فيه تحن إلى سفح جبالها ، تلك البقعة المباركة التى طالما وعظ فيها الملأ من بنى إسرائيل .

إنه يحس فى تلك اللحظة إحساسات الواقف على أطلال مدينة كانت عليه عزيزة ، فالأسى ينداح فى جوفه ، حتى لتكاد دموع الحزن تطفر من مآقيه ، لو خلى أعداؤه بينه وبين ما يريد لذهب إلى مجمع كفر ناحوم يعظ الجموع ، ولكن الفريسيين والصدوقيين هناك ، بعداواتهم يتربصون .

وبلغ الظلام الشاطىء الجميل ، واستمرت السفينة فى شرود حتى إذا بلغت بيت صيدا ألقت مراسيها ، وهبط عيسى وحواريوه ، وانطلقوا فى المدينة التى بدت كأنما استعارت من رومية مبانيها ، ولبثوا فيها يوما أو بعض يوم ، ثم انطلقوا حتى بلغوا أرباض قيصرية . وفى الطريق التفت إلى أصحابه وقال :

— أيعرف الناس من أنا ؟

أحس حواريوه مرارة ، أيقولون له إن الذين يعظهم فى غدوه ورواحه لا يعرفونه ، وصمتوا قليلا ، وكان الصمت أمر من الكلام ، فقالوا :

— يقولون إنك يحيى ، وآخرون يقولون إنك إيليا ، وآخرون يقولون إنك نبى من الأنبياء .

يا للمرارة ، يذوب من أجل الناس وهم لا يعرفونه ، وقال لحوارييه .

— وأنتم ماتقولون ؟

فقال بطرس فى اندفاعه :

— أنت المسيح .

اتحد الفريسيون والكتبة والصدوقيون لمحاربته ، ولجوا فى العداوة والبغضاء ، وراحوا يطاردونه فى كل مدينة وهم يحسبونه نبيا من أنبياء بنى إسرائيل ، أو دعيا من أدعيائهم ، فإذا بلغهم أن أنصاره يقولون إنه المسيح أجج ذلك نار عداوتهم ، ونفخ فى جمرة بغضائهم ، وزاد فى مقاومتهم ، وما كان باحثا عن إضرام العداوات ، بل كان يرجو أن يبلغ رسالته ، ويخالفه التوفيق ، فقال لتلاميذه محذرا :

— لا تذكروا ذلك لأحد .

وطوى الحواريون صدورهم على سره .

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة ، قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هى إلا فتنتك ، تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين »
(قرآن كريم) .

غسق الليل بعد ذهاب النهار ، ونفضت الرمال عنها حرارة الشمس ، وأراق القمر أشعته ، فانداحت حتى وسعت الأرض والماء والجبال ، وألبست السكون ثوبا رائعا من الحسن .

وشمخ جبل حرمون فى كبرياء ، فما كانت يتطاول إليه ما حوله من تلال وجبال ، وقد أكرمه الله ، فتوجه بتاج متألق ناصع من جليد ، كان يعتز به ، لا يخلعه فى صيف أو شتاء .

كانت سفوحه مرتعا من مراتع الحسن ، تنمو فيها الأزهار والنوار ، وتترنم فيها الطيور بعذب الألحان ، وتجرى فيها جداول رقراقة صافية هاطلة من القمة الخيرة الجوادة بماء الحياة ، كان حرمون وحى الخيال ، فألهم الشعراء الغناء والتسبيح بالجمال .

وانطلق عيسى وبطرس ويعقوب ويوحنا فى سكون الليل ، فبدا لهم جبل حرمون فى فوف من ضوء القمر رائعا يهز المشاعر ، وراحوا يصعدون فيه ، يخترقون السفوح الخضر ، وزرعا مختلفاً ألوانه ، ويملئون صدورهم بأنفاس عطرها أريج الزهر ، ورطبها برد الثلج ، فانتشت أرواحهم ، وأثرت تلك الروعة فيهم ، فتفتحت نفوسهم ، واستعارت القلوب من الرقة السائدة عذوبة وسلاما .

انطلقوا وكأنما هدأ كل شىء ، وأصاخ السمع لوقع أقدامهم ، فهم خارجون إلى حرمون لميقات ربهم ، كما خرج موسى وقومه إلى طور سيناء ليروا الله وتطمئن قلوبهم .

انطلقوا حتى إذا بلغوا مرتقى عاليا . وقف بطرس ويعقوب ويوحنا ، واستمر عيسى فى رقيه ، يبدو لعيونهم كشبح أسود انطبع على صفحة الجليد الناصعة ، ووقف وراح يدعو الله قائما آناء الليل ساجدا وقائما . يرجو رحمة ربه . ودثر السكون قدسية . وبدا كأنما الأرض تتأهب لاستقبال وحى السماء ، صفاء وخشوع وطمأنينة وسلام .

ونامت عيون بطرس ويعقوب ويوحنا . كان ذلك الجمال يغرى بالنوم . ولذيذ الأحلام ، تهكنهم الرحلة الدائمة . فما انتهوا من صلاتهم ، ومست جنوبهم العشب الأخضر الحنون ، حتى راحوا فى سبات .

نامت كل العيون إلا عين عيسى ، كانتا معلقتين بالسماء ، يستشف الحكمة ، ويستمد القوة ، ويستلهم وحى الله ، وصفت روحه حتى كانت أصفى من الجليد ، وهدأت نفسه حتى كانت أهدأ من السكون الهاجع ، وانسكبت فيه طمأنينة عجيبة ، فقد كان فى تلك اللحظة أقرب ما يكون إلى الله .

وسقط من السماء ضوء باهر ، وغرق الجبل فى غمرته ، وكان سناه قويا حتى إن النوم هبوا من نومهم ، وفتحوا عيونهم ، فألفوا عيسى يتألق فى الضوء ، فرمقوه فى دهش ، وإذا بالضوء يزداد فيغشى عيونهم ، وإذا بأرواحهم لا تطيق ذلك السنا ، فأخذتهم رجفة ، وخروا على وجوههم صعقين ، فقد أرسل الله على عبده سكينة مضيئة بهرتهم ، وكأنما سلبت منهم الروح .

غشى عليهم ، وظلوا غائبين عن الدنيا حتى هبط إليهم عيسى ، وراح يطمئنهم ، ويسكن خوفهم ، فلما أفرخ روعهم ، قاموا يرنون إليه فى إجلال ، رأوا ما كانوا يقرءون عنه فى التوراة ، رأوا السكينة التى أرسلت إلى موسى ، وخروا ، كما خر قوم موسى ، صعقين .

وهبطوا من الجبل صامتين ، كانت حادثة الليلة عجيبة ، استبدت بجوارحهم وأفكارهم ، وفيما هم منطلقون ، قال لهم عيسى :

— لا تذكروا لأحد شيئا مما رأيتم .

كان يخشى أن يقع الحسد فى قلوب حوارييه ، فتدب بينهم العداوة والشقاق ، وتنزل صدورهم الإحن ، فتزداد متاعبه . يريد أن يأتيه حواريوه بصدر سليم ، وكفاه عداوة الفريسيين والصدوقيين والناموسيين .

تحقق الليلة لهم أنه المسيح ، النبي الذي سيرسله الله خاتما لأنبياء بني اسرائيل لقد قالت البشارات إنه نبي عظيم ، وثبتت الليلة عظمته ، أكرمه الله بما أكرم به موسى الكليم .

وقفزت إلى أذهانهم اعتراضات الكتبة والكهنة والفريسيين ، وخطر لهم أن يسألوه ، ولكنهم كانوا يحسون منه رهبة ، وإن كان يعطف عليهم ويواسيهم ويفتح لهم قلبه الكبير . وطووا تلك الاعتراضات التي راحت تحتل تفكيرهم ، ولجوا في صمتهم .

الطريق طويل ، والهدوء شامل ، ولا شيء غير التأمل والتفكير ، ودوت في نفوسهم اعتراضات المكذبين برسالته ، ولم يقووا على خنق ذلك الدوي المتردد في رءوسهم ، فقالوا له :

— لماذا يقول الكهنة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولا ؟

كان الاعتقاد السائد أن ايليا ينهض من الأموات ويرد إلى بني إسرائيل التابوت فيه سكينة وبعض ما ترك موسى وهارون ، فالنبي ملاخي يقول على لسان ربه : «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب ، اليوم العظيم » ، فإذا كان هو المسيح المنتظر ، فكيف لم يأت إيليا قبله ؟

فقال لهم عيسى في هدوء :

— إن إيليا يأتي أولا ويرد كل شيء . ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا .

وصمت قليلا ، ثم قال :

— كذلك ابن الإنسان سيتألم منهم .

ترى أيحدثهم عن الاضطهادات التي يقاسيها ، أم يتنبأ عن الاضطهادات المطوية في الغيب القريب ؟

وأراد تلاميذه أن يسألوه عن إيليا الذي سبقه ، ولكن هيبته عقلت ألسنتهم فصمتوا ، واقنعوا أنفسهم أنه يقصد يحيى ، يحيى الذي جاء قبله يبشر باقتراب ملكوت السموات ، يحيى الشهيد .

٣٤

« إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

(قرآن كريم)

نودى فى القرى اليهودية وفى المدن وفى أورشليم : « اخرجوا إلى الجبل ، وأتوا بأغصان زيتون ، وأغصان زيتون برى ، وأغصان آس ، وسعف النخل وأغصان أشجار لعمل مظال » فقد كتب الله على بنى إسرائيل ثلاثة أعياد لشكره على إخراجهم من مصر ، وإنقاذهم من العذاب المهين : عيد الفصح ، وعيد الأسابيع ، وعيد المظال .

فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين ، عقب أن يجمع بنو إسرائيل بيادرهم ، وينتهوا من معاصرهم ، يخرجون رجالا ونساء ، وشبانا وأطفالا وشيبا إلى الخلاء ، يعيشون فى مظال ، يقدمون قرابينهم ، ويمضون الأيام فى سرور ومرح ، حتى إذا ما انتهت أيام عيد الحصاد عادوا إلى ما كانوا فيه .

وكان القادرون يشدون الرحال إلى أورشليم ، يصلون فى الهيكل ، ويمضون الأيام فى مظلات أقيمت فى الخلاء ، فراح الناس يتأهبون للخروج ، واجتمعت الجموع فى أورشليم ، ووافى يوم العيد ، فانطلق الناس إلى الهيكل ، وقرعت الطبول ، فدبت الحماسة فى الصدور ، كانت طبول الهيكل تدق نشيد النصر ، وبدأت الصلاة ، فراح الجميع يرددون فى خشوع : « اسمع يا إسرائيل ، إلهنا إله واحـد . . . » والأطفال يرددون « آمين » ، وقضيت الصلاة ، فقام القراء يقرءون الناموس ، وذبح فى المذبح ثلاثة عشر ثورا ، فالشريعة تقضى بذبح سبعين ثورا فى أيام العيد قربانا لله ، على أن تنقص القرابين قربانا كلما انقضى يوم من أيام العيد .

وغادروا الهيكل إلى مظالمهم ، وراحوا يتسامرون ، ويتناجون ويتساءلون فى همس . عن عيسى الذى أقلق الكهنة ، ويقولون : «أين ذاك ؟» ، كانوا يحسبون أنه قادم فى العيد ، يدعو الناس إلى الذى أرسله ، ولكن انقضى اليوم الأول ولم يظهر ، وانقسموا فيه : فريق يقول : إنه صالح ، وفريق يثور ، ويتهمه بأنه أضل الجميع .

وكان حديثهم نجوى ، لايقدرون أن يرفعوا أصواتهم بذلك الحديث ، لخوفهم من رؤسائهم ، فما كانوا يجرءون على إعـــلان رأى إلا إذا وافق عليه أعضاء السنهدرين ، المجلس الموقر !

كان العيد للعبادة والشكر ، ولكنه انقلب إلى عيد لتحصيل اللذة ، الفتيات والفتيان فى ضوء القمر يتناجون ، وأنغام الموسيقى الناعمة التى تلهب الحواس ، تهتك سكون الليل وقدسية المكان ، والنشوة تعبث بالرءوس . فيتبخر التحفظ والوقار ، أصبح العيد رمزا للحرية والتحرر والانطلاق .

انقضى من العيد أيام ، واطمأن أعداؤه الفريسيون والصدوقيون والكتبة ، إلى أنه لن يقدم يكدر صفو العيد ، وإذا به قد جاء إلى أورشليم ، وراح يمر بين الجموع التى تموج بها المدينة ، لايلحظه أحد ، كانوا يعرفون اسمه ، ولكن ماأقل من يعرفون هيئته ، فما كان يميزه عن آلاف الرجال شيء ، فالعين لا ترى عظمة النفس ، وانطلق حتى أتى الهيكل ، ودوت الطبول ، وقرئت الشمة والناموس ، وقام عيسى فى رواق من أروقة الهيكل يعلم الجماهير ، فحشر الناس زمرا يصغون .

انقلب سرور أعدائه غما ، كانوا يحسبون أن العيد سينقضى دون أن يقدم ليفسد عليهم الملأ من بنى إسرائيل ، وإذا الجموع تتهافت عليه ، وتظهر إعجابها بما يقول ، وراحوا يقولون :

— ما أعجب تعاليمه ، إنه ليجمع بين مدرسة هلليل ومدرسة شماى .

— كيف يعرف الكتب ولم يتعلم ؟

— أليس هذا عيسى الناصري ؟

— وهل يخرج من الناصرة شيء صالح ؟

وفطن عيسى إلى همسهم ، وحزر ما يدور بينهم ، فقال :

— تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى ، من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق .

وتحرك الفريسيون ، والشرر يتطاير من عيونهم ، ووقعت عيناه عليهم ، فقال :

— لماذا تطلبون قتلى ؟

لم يكن يخشى الموت ، ولكنه يريد أن يمكن لدينه فى الأرض ، لم يكن أمامه فسحة من الوقت ليبلغ رسالته ، ويعلنها ساطعة ناصعة ، واتباعه من الأغفال ، الذين لا يفهمون تعاليمه كل الفهم ، كلما ضرب لهم مثلا سألوه عن تأويله ، إنه لا يطمئن أن يترك هذا الدين وديعة فى أيديهم ، وخاف الفريسيون ثورة الجماهير المفتونة به ، وما أيسر أن تثور ، فقال الفريسيون مظهرين العجب :

— بك مس ، من يطلب قتلك ؟ !

كان يعرف ، أن الحجة التى يقيمونها عليه ، هى العمل فى السبت ، ولا حجة غيرها ؛ فقال لهم مبررا كسره ذلك اليوم المقدس :

— أعطاكم موسى الختان ، والختان ليس من موسى ، بل من الآباء ، ففى السبت تختنون الأولاد . فإذا كان الإنسان يقبل الختان فى السبت ، لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لأنى شفيت إنسانا فى السبت ، لا تحكموا بالظواهر ، بل احكموا حكما عادلا .

فقال قوم من أهل أورشليم :

— أهذا الذى يطلبون أن يقتلوه ؟

وراح عيسى يقول :

— لم آت من نفسى ، بل أرسلنى الحق ، الذى لا تعرفونه .

ثار اليهود ، فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معرفة بالله ، وها هو ذاك القادم من الناصرة يتهمهم بأنهم لا يعرفونه ، يتهمهم بالكفر به ونكرانه ، وهجموا عليه ليمسكوه ، ولكنه اختفى دون أن يروه ، فقد كان قادرا على الإفلات من أيدى الأعداء ، فظهر على وجوههم ذهول ، وغمغموا .

— هذا سحر مبين .

---

(١) المقصود أن الختان من الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، لا من الكهان الآباء ، كما فهم بعضهم ، فحرموا الختان .

وذهب عيسى إلى المظال ، فإذا صخب ماجن ، وضوضاء فاجرة ، وضحكات خليعة فاسقة ، وأغانى ماجنة ، كان المكان المقدس أشبه بملهى من ملاهى الوثنيين ، تعرض فيه ألوان الفسق والفساد ، والفريسيون والكتبة والصدوقيون يجوسون خلال المظال صامتين خاشعين ، كأنما كانوا فى محراب مقدس .

لم يرتفع لأحدهم صوت اعتراض ، كأن ما يقع تحت أبصارهم لا يخدش الناموس ، ولا ينقض شريعة موسى ، أما إذا قام هو فى الهيكل يعظ الناس ، ويدعوهم إلى الله الواحد ، فقد تصدعت الشريعة ، وتلمسوا الأسباب ليقتلوه ، ويستريحوا من دعوته ، التى ماجاءت إلا لتفض الناس من حولهم ، وتنزع منهم السلطان .

وفى الصباح ، بعد أن دقت الطبول ، وقدمت القرابين ، وقضيت الصلاة ، جلس يعظ الناس ، غير هياب ولا وجل ، أرسله الله لايخشى فى الحق لومة لائم ، فليصرخ بها فى وجوه الجميع مدوية .

ورفع بصره ، فإذا جموع قادمة تدفع امرأة ، والمرأة تخفى وجهها بيديها وشعرها ، ووقفت المرأة ذليلة ، خافضة الرأس ، فتحركت شفقته ، وأقبل نحوه الفريسيون ، وقالوا فى قسوة :

— هذه المرأة وجدناها فى زنا ، وناموس موسى يأمر برجمها ، فماذا تقول أنت ؟

كان ذلك الناموس معطلا ، عطله رئيس كهنتهم ، بعد أن حاكى بنو إسرائيل الرومان حتى فى المفاسد ، فتفشى الزنا فيهم ، وكان الفريسيون يعلمون ذلك ، لكنهم أرادوا أن يحرجوه بخبثهم : إذا أمر بتركها ثاروا للناموس ، وأرغوا وأزبدوا ، وطالبوا بدم المارق ، الناقض للشريعة ؛ وإذا أمر برجمها تحدى السلطة التى عطلت هذا الحد من الحدود .

ولم يرفع عيسى رأسه ، وإن كان بسريرته يلحظ الرياء الذى يقطر من وجوههم ، وساءه أن يقيم الخطاءون من أنفسهم حكاما للخطيئة ، ولم يحترم المرأة التى اقترفت الزنا ، ولكنه يرى أن متهميها لا حق لهم فى رجمها ، كلهم غارقون فى الدنس ، وما ثاروا ثورتهم إلا رياء ، فى ظهره ، وراح يكتب بإصبعه على الأرض :

— من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .

وكأنما غشاوة الرياء تمزقت عن أعينهم . فتمثلت لهم خطاياهم ، رأى كل منهم نفسه فى حمأة الفسق . فتديت جباههم خجلا ، وأطرقوا رءوسهم خزيا . وطفقوا ينسلون واحد إثر آخر .

وبقى عيسى مطرقا ، والمرأة واقفة ترتجف عارا ، وقام عيسى ونظر ، فإذا المرأة وحدها فى وسط الهيكل ، فقال لها :

— أين الذين جاءوا بك ؟ أما دانك أحد منهم ؟

— لا يا سيدى .

— وأنا لا أدينك . اذهبى ولا تخطئى ثانية .

ومشت المرأة تجر ذيولها ، وخرج عيسى إلى الوفود يدعوهم إلى تصديق رسالته ، وجاء اليوم الثامن ، فهب الناس فى البكرة ، فى ثيابهم الجدد ، فى أيديهم «اللبلاب» مجدول من لباب النخيل ، وراحوا يتدفقون على الهيكل ، وبدأت المراسيم ، ووضعت تقدمة الصباح على الهيكل ، وحمل كاهن كبير إبريقا من الذهب ، وسار فى موكب عظيم حتى غادر الهيكل ، وذهب إلى جبل صهيون ، وفى بركة سلوام اغترف ثلاث غرفات فى خشوع ، وعاد الموكب العظيم ، وانسابت الأنغام المتدفقة من الأبواق المقدسة ، والكاهن يتقدم . وقد غمر الجموع فرح ، فراحوا يلوحون بما فى أيديهم من «لبلاب» ، وصب الكاهن الماء فى وعاء فضى ، وصب خمرا فى وعاء آخر ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل ، ذلك التهليل الذى رجعه داود ، صاحب المزامير .

هللويا ، سبحوا يا عبيد الرب .

سبحوا اسم الرب .

ليكن اسم الرب مباركا ، من الآن وإلى الأبد .

من مشرق الشمس إلى مغربها ، اسم الرب مسبح .

الرب عال فوق كل الأمم ،

فوق السموات مجده .

واستمروا فى التهليل ، حتى إذا انتهت المراسيم ، قام عيسى يقول :

— إن عطش أحد ، فليقبل إلى ويشرب ، من آمن بى ، كما قال الكتاب ، تجرى من بطنه أنهار ماء حى .

لم يكن هذا القول جديدا عليهم ، كان يفرحهم أن يقتبس من كتبهم ، ففى ذلك توكيد منه بأنه ماجاء لينقضها ، وفى هزة الفرح قالوا :

— هذا نبى حقا .

— هذا هو المسيح .

— أيأتى المسيح من الجليل ؟

— قال الكتاب إنه من نسل داود ، يأتى من بيت لحم ، مدينة داود .

واندس الفريسيون بين الجماهير ، يوغرون صدورهم عليه ، وتغيرت القلوب وما أيسر أن تتغير ، فرددت جوانب الهيكل زمجرات ، واندفعوا ليمسكوه ، ولكنهم لم يجدوه ، مضى من بينهم دون أن يروه ، وتركهم حيارى يعجبون .

وجاء المساء ، وأضيئت المصابيح ، فاض النور من الهيكل حتى عمر المدينة ، ووقف اللاويون على الدرجات المؤدية إلى الرواق ، يرددون ترانيم المصاعد :

أرفع عينى إلى الجبال من حيث يأتى عونى .

معونتى من عند الرب خالق السموات والأرض .

لا ينعس حافظك .

إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل .

وراح الفريسيون والناس يرقصون نشوة حول المصابيح ، فقام عيسى يدعوهم إلى الحق :

— أنا هو نور العالم ، من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة ، بل يكون له نور الحياة .

فهب الفريسيون يعترضونه . قالوا :

— أنت تشهد لنفسك ، شهادتك ليست حقا .

فقال لهم :

— إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق ، لأنى أعلم من أين أتيت ، وإلى أين أذهب ، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا إلى أين أذهب .

أنتم تدينون حسب الجسد ، أما أنا فلا أدين أحدا ، وإن كنت أنا أدين فدينونتى حق ، لأنى لست وحدى ، بل أنا والآب[1] الذى أرسلنى .

---

(١) الآب غير الأب : بمعنى الله .

مكتوب فى ناموسكم : إن شهادة رجلين حق . أنا هو الشاهد لنفسى ، ويشهد لى الذى أرسلنى .

لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم . ولكنكم تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . هـذا لم يعمله إبراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم .

فزاد غضبهم ، فهو يتهمهم أنهم ليسوا أبناء إبراهيم ، وكل فخرهم أنهم من نسله . فقالوا فى حنق :

— إننا لم نولد من زنا ، لنا أب(١) واحد هو الله .

— لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ، لأنى خرجت من قبل الله وأتيت . لم آت من نفسى ، بل ذاك أرسلنى . لماذا لا تفهمون كلامى ؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى . أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا .

إن كنت أقول الحق فلماذا لا تؤمنون بى ، الذى من الله يسمع كلام الله ، وأنتم لا تسمعون كلامه ، لأنكم لستم من الله .

فقالوا :

— ألسنا نقول حقا ؟ إنك سامرى بك مس .

— ليس بى شيطان ، ولكنى أكرم الله وأنتم تهينونى . الحق الحق أقول لكم : إن كان أحد يحفظ كلامى ، فلن يرى الموت أبدا .

— الآن علمنا أن بك شيطانا . مات إبراهيم والأنبياء ، وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامى ، فلن يذوق الموت أبدا . لعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذى مات ، وقد مات الأنبياء ، من تحسب نفسك ؟

— إن كنت أمجد نفسى فليس مجدى شيئا . ربى الذى يمجدنى ، الذى تزعمون أنتم أنه إلهكم ولا تعرفونه ، وأما أنا فأعرفه . إن قلت إنى لا أعرفه أكن مثلكم كاذبا ، لكنى أعرفه وأحفظ قوله ، أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى ، فرأى وفرح .

ماجوا لما سمعوا قوله ، عاد يرميهم بالجهل بالله ، وزاد على ذلك أنه ادعى أن إبراهيم رأى يومه وفرح ، فقالوا ساخرين :

---

(١) يلاحظ أن لفظة « أب » تستعمل بمعنى رب .

— ليس لك بعد خمسون سنة ، أرأيت إبراهيم ؟

ورفعوا الحجارة ليرموا من قال لهم إنهم أبناء إبليس ، ومن أنكر عليهم معرفة الله ، ونظروا فلم يجدوه ، اجتاز فى وسطهم ، ومضى دون أن يروه ، فارتفعت الأصوات .

— إنه ساحر .

— هذا سحر مبين .

obeikandl.com

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا » .

(قرآن كريم)

حشر الناس إلى الهيكل وفدا ، فاليوم سبت . وقعد أمام باب الهيكل رجل أعمى يتكفف ، ترمقه العيون ، فتتردد فى الرءوس أسئلة : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ ورآه عيسى فأشفق عليه ، ورد فى نفسه على أسئلة الناس : لا هو أخطأ ولا أبواه ، ولكن لتظهر معجزة الرب فيه .

وتقدم إلى الأعمى ، وقال :

— ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى ما دام نهار ، يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل .

وتفل على الأرض ، وجعل من التفل طينا ، وطلى به عينى الأعمى ، وقال له :

— اذهب اغتسل فى بركة سلوام .

وذهب الأعمى إلى جبل صهيون ، واغتسل فى البركة ، فإذا به يرى دنيا لم يرها قبل الآن : سماء وماء ، وأشجار وتلال وضياء ، وحسن وبهاء ، فخفق قلبه فى قوة ، وغامت عيناه بدموع الفرح ، ورفع يده يجفف دموعه ، فما عاد يطيق غشاوة عبراته ، التى حالت بينه وبين النور لحظات .

ورجع الرجل إلى باب الهيكل وقعد ، وخرج الناس بعد انقضاء الصلاة ، ونظروا إلى الأعمى ليقوم فى أنفسهم نفس السؤال : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ فإذا به يستقبلهم بعينين مفتوحتين ، فقالوا :

— أهذا الذى كان يجلس يسأل الناس ؟

— لا . ليس هو .

— بل هو .

— إنه يشبهه .

— سلوه .

واقتربوا منه يسألونه ، فقال لهم :

— رد عيسى إلى بصرى .

— متى ؟

— اليوم .

— فى السبت ؟ !

وانقسم الناس بين مكذب ومصدق ، وأخذوا الرجل ، وقادوه إلى الهيكل ، ودخلوا على الفريسيين ، وقالوا لهم :

— يزعم هذا أن عيسى رد إليه بصره اليوم .

فقال له رجال السنهدرين :

— كيف أبصرت ؟

— طلى عينى بالطين ، وأمرنى أن أغتسل فى سلوام ، فلما اغتسلت أحسست كأن غشاوة عن عينى تنجاب ، وإذا بدنيا زاهية جميلة ، دنيا ما كنت أتخيلها ، تبدو لى ناصعة رائعة ، ما أجمل أن يرى الناس !

بان فى وجوه الفريسيين قهر ، وقال بعضهم فى حنق :

— إنه ليس من الله ، فهو يكسر السبت .

وقال آخرون :

— كيف يقدر إنسان خاطىء أن يقوم بمثل هذه الآيات .

ودارت مناظرات ، ودب بين الفريقين خصام ، وكأنما أرادوا أن يضعوا حدا لتلك الفرقة ، فقالوا للرجل :

— ماذا تقول أنت عنه ؟

فقال الرجل فى حماسة :

— إنه نبى .

فصاح صائح منهم :

— لا تصدقوا دعواه ، إنه أحد تلاميذه ، جاء يلقى بينكم العداوة والبغضاء .

— فلندع أهله .

وأرسل أعضاء السنهدرين فى طلب أهله ، فجاء أبواه يضطربان ، فقالوا لهما :

— أهذا ابنكما ؟

— نعم .

— أولد أعمى ؟

— نعم .

— فكيف يبصر الآن ؟

— لا نعلم ، اسألوه فهو كامل السن .

وناديوا الرجل ، فدخل ، فقالوا له :

— نعلم أن هذا الذى تزعم أنه رد إليك بصرك خاطئ .

فقال الرجل فى تهكم :

— لا علم لى بذلك ، ولكنى أعلم أنى كنت أعمى وأنه رد إلى بصرى .

فقالوا فى ضيق :

— ماذا صنع بك ؟ كيف فتح عينيك ؟

— قلت لكم ، وكررت القول : لعلكم تريدون أن تصبحوا له تلاميذ !

فسبوه ، وقالوا له :

— بل أنت تلميذه ، أما نحن فتلاميذ موسى ، نحن نعلم أن موسى كليم الله ، أما هذا فلا ندرى من أين هو ؟

فقال الرجل دون أن يخشاهم :

— هذا أمر عجاب ، لا تعلمون من أين هو ، ولكنه فتح عينى ، والله لا يستجيب للخاطئين ، الله يلبى دعوة من يتقى الله ، لم نسمع من الأزل أن أحدا فتح عينى من ولد أعمى . لو لم يكن مرسلا من الله لعجز عن أن يفعل شيئا .

أخذتهم العزة بالإثم ، فصاحوا :

— أخرجوه ، أخرجوا من ولد فى الخطايا وجاء يعلمنا .

كانوا يعتقدون أن الله يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فما أعماه الله إلا لأن أباه كان خطاء ، ولد ذلك الأعمى فى الخطايا ، وقام فى الهيكل يبصر أعضاء السنهدرين الكرام ، فما جزاؤه إلا الطرد المهين .

وخرج الرجل ، وقابله عيسى ، فدنا منه يدعوه للإيمان ، وقال له :

— أتؤمن برسول الله ؟

— من هو ؟ وأين هو ؟

— قد رأيته ، الذى يكلمك .

وعرف الرجل عيسى ، ذلك الذى رد إليه بصره ، وقال عنه أمام السنهدرين إنه نبى ، آمن به قبل أن يدعوه إلى الإيمان ، فرفع بصره إلى السماء يعلن إيمانه ، ويشكر الله .

ورأى الفريسيون عيسى والرجل يتناجيان ، فهرعوا إليهما يصغيان ، قال عيسى للرجل :

— أتيت ليبصر الذين لا يبصرون ، ويعمى الذين يبصرون .

فقال له الفريسيون :

— لعلنا نحن أيضا عميان !

فقال لهم عيسى : لا تثريب على من ولد أعمى ، ولكن اللوم كل اللوم على من أعمته الخطيئة .

وذهب عيسى ، والريح تصفر ، ولكن صدى كلماته فى آذانهم كان أعلى من زئير الريح ، وراح يبتعد وهم يرمقونه ، حيارى لا يدرون : أهو خاطىء كما يزعمون ، أم رسول رب العالمين ؟

واعتزل عيسى يصلى لله ، ويفكر فى أمر الناس ، أعلن لهم وأسر لهم إسرارا ، ودعاهم جهارا ، ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا إنكارا واستكبارا ، يدعوهم إلى الله فيرمونه بالضلالة ، فغشاه حزن ، ونزل به هم ثقيل .

وفكر فى أن يغادر أورشليم ، فعداوة الفريسيين والصدوقيين والكتبة مريرة ، ولكنه رأى أن يعود إلى الهيكل يستأنف دعوته وجهاده ، فلو قبلوه قبله الجميع ، لو لان قلب أورشليم القاسى ، لتفتحت له جميع القلوب .

وذهب إلى الهيكل ، ووقف يدعو الناس ، فاجتمعوا حوله ، قال :

— من لا يدخل من باب حظيرة الخراف ، ويأتيها من مكان آخر ، فهو سارق ، أما من يدخل من الباب فهو راعى الخراف . يفتح له البواب الباب ،

وتسمع الخراف صوته ، فإذا دعا خرافه بأسمائها خرجت له ، فيمشى أمامها وهى خلفه . لأنها تعرف صوته . أما الغريب فلا تتبعه ، بل تهرب منه . لأنها لا تعرف صوت الغرباء .

رمقوه فى تساؤل ، فما عرفوا ماذا يريد بهذا مثلا ، ولمح الحيرة فى وجوههم ، فقال لهم :

— الحق أقول لكم : إنى أنا باب الخراف(١) ، فمن دخل منى يخلص ، يدخل ويخرج ويجد مرعى . السارق لا يأتى إلا ليسرق ويذبح ويهلك ، أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة ، أنا هو الراعى الصالح ، والراعى الصالح يكرس نفسه للخراف ، أما الأجير إذا رأى الذئب مقبلا ترك له الخراف وهرب ، الأجير يهرب ، لأنه أجير ، ولا يبالى بالخراف ، أما أنا فإنى الراعى الصالح ، أعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى ، كما أن الآب(٢) يعرفنى ، وأنا أعرف الآب .

وضاق الفريسيون به ، فقال فريق منهم :

— إنه يهذى ، به مس . لماذا تعيرونه السمع ؟

وقال فريق :

— ليس هذا كلام من به شيطان . أيقدر شيطان أن يفتح أعين العميان ؟ !

وهاج الناس فى الهيكل وماجوا ، وترقب عيسى ثمرة ذلك الجدال ، ومر الوقت ، واشتدت المناقشات ، ثم راحت تخفت وتخفت وتخبو ، كنار أكلت الحطب ، وأخذت تأكل نفسها ، وهدأ كل شىء ، كأنما أريق على المكان ماء بارد ، وانفض الناس من حوله ، وإذا به قائم فى الهيكل وحده .

وخرج مطرقا ، وسار حزينا ، يعرج فى الطريق ، حتى إذا غادر أسوار المدينة ، وبلغ قمة جبل الزيتون ، نظر خلفه يرمى أورشليم بنظرة وداع ، وفى قلبه لوعة ، وفى نفسه حزن ، وهاجت شجونه ، فقال :

يا أورشليم ، يا أورشليم .

---

(١) جاء فى إنجيل يوحنا . جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص ، ولا يعقل أن المسيح عليه السلام يقول إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ويحيى جميعهم لصوص .

(٢) الآب = الله .

يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين .

أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولكنهم أبوا وأعرضوا .

ها هو ذا بيتك يترك للخراب .

وانحدر من الجبل ، يدثره حزن . أعرضت أورشليم عنه ، وأصمت آذانها عن دعوته ، وكذبته وناصبته العداء ، فسار مطرقا وقد طفرت من مآقيه دموع غالية عزيزة .

obeikandl.com

٣٦

« ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك »
(قرآن كريم)

ودع اليهودية ، واخترق السامرة ، وعند بئر يعقوب حط رحاله يستريح ، لم تكن هناك امرأة سامرية تجادله فى الدين ، تقول له آباؤهم سجدوا فى هذا الجبل بينا يقول اليهود فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه ، فيبشرها باقتراب اليوم الذى يسجد فيه الناس فى أى مكان وكل مكان . كان منفردا بأفكاره ، وكانت أفكارا مغلقة بقتام ، أعرضوا عنه فى أورشليم ، لم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ، وكفروا به فى الناصرة ، وحتى الجليل الذى استبشر لدعوته ، عبس وقطب بعد أن راح الفريسيون يلحون عليه أن يريهم آية ، أن ينزل عليهم بروقا ورعودا ، كأنما السماء رهن بنانه ، وكأنما هو ليس بشرا مثلهم يوحى إليه ، يؤيده الله — إن شاء بآياته ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله .

وأشرف على الجليل ، رأى بحيرة جنيسارت صافية كعين زرقاء ، والعصافير والطيور ترنم التسابيح الخالدة الأبدية ، والمروج زاهية تياهة بالشباب ، ورود متفتحة كالخدود ، ونرجس كالعيون ، وأغصان مسترسلة كالشعر تنوس لعبث النسيم الهفهاف ، والرجال فى غدو ورواح ، يحملون خيرات السهل إلى السفن الراسية فى الميناء ، ومحصلو الرسوم يزنون ويفحصون ، صور حبيبة إلى نفسه ، فأشرقت وانداحت فيها نشوة ، ولكن سرعان ماتبخرت البهجة ، لم يعد قادرا على أن يذهب إلى هؤلاء الأغفال الأتقياء يعظهم دون أن يكدر صفو التلاقى الفريسيون والصدوقيون والأعداء .

وسار على شاطىء البحيرة ، ولمحه الناس ، ففتنوا به ، وقبل أن يتركوا أعمالهم ويلتفوا حوله ، زجرهم رؤساؤهم ، فاستأنفوا ماكانوا فيه من أعمال ، وهرع إليه

حواريوه وأنصاره ، وألقوا إليه سمعهم ، ينهلون من المورد العذب ، وفيما هم فى حديث ودرس ، إذ أقبل قوم فى وجوههم عبوس وقلق ، فنظر إليهم متطلعا ، فقالوا له :

— ذبح بيلاطس الجليليين فى المعبد ، خلط دمهم بدماء ذبائحهم .

كانوا يعتقدون أنه ما من مصيبة تنزل بالمرء إلا لخطيئة اقترفها ، فإذا كان بيلاطس قتل هؤلاء الجليليين ، فما مكن الله له فيهم إلا لأنهم قارفوا فى حق الله ذنبا ، وصمتوا يسمعون رأيه ، قال :

— أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا أعظم خطيئة من كل الجليليين ، لمكابدتهم هذا القتل ؟ أقول لكم : كلا . وإن لم تتوبوا تهلكوا جميعا ، أتحسبون أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج فى سلوام وقتلهم أعظم خطيئة من جميع سكان أورشليم ؟ كلا . فإن لم تتوبوا تهلكوا جميعا .

وراح يضرب لهم الأمثال :

— كان لامرئ شجرة تين ، أتى يلتمس ثمرها فلم يجد لها ثمرا ، فقال للكرام : أتيت ثلاث سنين[1] ألتمس من هذه التينة ثمرا فلم أجد عندها ثمرا ، أقطعها . قال له الكرام : يا سيد ، دعها هذه السنة أيضا حتى أصلح لها الأرض ، وأضع حولها زبلا ، فإن أثمرت أبقيت عليها ، وإلا فاقطعها .

ورمقوه بعيون واسعة ، ولم يسألوه تأويل مثله ، ترى أفهم تلاميذه أنه ضرب لهم هذا المثل ، ليشرح لهم أن الله يمهل عبده ، عله يستغفره ويتوب إليه ، أم لم يفهموا شيئا ، ولاذوا بالصمت حياء وهيبة !

والتفت به الجموع ، وخشى الفريسيون أن يفتن الناس ، وأن يهتك الأستار التى يسدلونها فى مهارة ورياء لإخفاء الحقيقة ، فرأوا أن يرهبوه حتى يغادر الجليل ، ويتركه لهم مرتعا خصيبا ، يبذرون فيه البدع والأوهام ، ويجنون منه المال والنفوذ والسلطان ، فجاءوا إليه فى ثياب النصحاء الأصدقاء ، وقالوا :

— اذهب من هنا ، لأن هيرودس يريد أن يقتلك .

لو كان هيرودس يريد قتله حقا ، لأخفوا عنه تدبيره ، وهل كانت أمنيتهم

---

(١) أول بعضهم هذا المثل بأنه دلالة على أن مدة بعثه ثلاث سنين .

إلا قتله ؟ اختلقوا هذا الخبر ليرهبوه ، ويرغموه على الفرار . فينقذوا أنفسهم من وخزاته ولدغاته . كانت سخريته أمضى من السيوف ، وما كان يشتد إلا إذا قرعهم ، وسلط أنواره على رياءهم ، فيبدو عاريا بغيضا ، لم يرهبه تخويفهم إياه « بالثعلب » الرواغ ، هيرودس أنتيباس ، المتطير الرعديد ، الذى يخشى الأوهام ، ويقبل على قتل الرجال والأنبياء . ولم يلق بالا إلى تهديدهم ، بل استمر فى وعظ الملتفين حوله .

ورأى أن يبعث تلاميذه إلى بنى إسرائيل مبشرين باقتراب ملكوت الله ، فعين سبعين ، وراح يعظهم .

— الحصاد كثير ، والفعلة قليلون ، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده ، اذهبوا ، هأنذا أرسلكم كحملان بين ذئاب ، لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية ، ولا تسلموا على أحد فى الطريق ، وأى بيت دخلتموه فألقوا عليه السلام ، فإن كان هناك ابن السلام يحل سلامكم عليه ، وإلا فيرجع إليكم ، وأقيموا فى ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم ، فالفاعل مستحق أجره .

لا تنتقلوا من بيت إلى بيت ، وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم ، فكلوا مما يقدم لكم ، وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله ، وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم ، ولكن اعلموا هذا : إنه قد اقترب منكم ملكوت الله . وأقول لكم إنه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة .

وخرجو اثنين اثنين يبشرون باقتراب ملكوت الله ، ولم يأمرهم أن يذهبوا إلى الأمم أو إلى السامريين ، ولم ينههم فقد اتضحت رسالته لتلاميذه ، عرفوا أن الله لم يبعثه إلا إلى بنى إسرائيل رسولا .

وراح يجول على شاطىء البحيرة ، يعظ الناس ، ولكن ما أقل المؤمنين الذين كانوا يصغون إليه ! انفض عنه الناس لما لم يأتهم بآية ؛ نجح الفريسيون فى بذر بذور الشك فى القلوب التى كانت مهيأة للإيمان ، وفى سكون الليل انطلق وحده والحزن يعصر قلبه ؛ أتى الناس بالهداية فرفضوه ، هداهم الطريق القويم فأبوا إلا أن يتنكبوا الطريق ، دعاهم إلى الله الواحد ، فأبوا إلا أن يشركوا

مع الله أحبارهم ورهبانهم . واكتأبت نفسه . كان يرجو أن يتم رسالة ربه ، وأن يثبت أركانها ، ولكن بدا لعينيه أن مستقبل رسالته تلبد بالغيوم ، كفر الناس به بعد أن صدقوه ، وفروا منه بعد أن كانوا يقبلون عليه ، ويقتتلون ليلمسهم يده أو ليفوزوا بلمس شيء منه ، ولو طرف ثوبه أو جلد نعله .

حتى في الجليل رفضوه . لو أمر بدعوة الأمم لانطلق يهديهم إلى الله ، فقد تكون قلوبهم أرحم من قلوب هؤلاء القساة الجاحدين . ولكنه لم يرسل إلى الأمم ، فليس أمامه إلا أن يجوب البلاد اليهودية يتلقى الاضطهاد .

واقترب عيد التجديد ، فليترك الجليل ليعود إلى أورشليم ، ولئن كان أمامه فسحة من الوقت ، لم يعد الانتظار في الجليل محتملا ، عزيز عليه أن يعيش بين أناس جحدوه وطووا عنه كشحهم ، سيذهب في البلاد يعظ هنا وهنا ، حتى يوافي العيد ، فيقوم في الوفود داعيا ، فقد يجني ثمرة الكفاح .

وتأهب للرحيل ، ووقف ينظر إلى بحيرة جنيسارت وإلى مدن الجليل القائمة على شاطئها ، فانبثقت في حوفه ينابيع الحزن ، وكانت أغزر ينابيع نفسه ، كان نبي الأحزان ، ولم يجد منفسا لأساه إلا الكلمات ، فقال وهو يرنو إلى الجليل في لوعة :

ويل لك يا كورزين !

ويل لك يا بيت صيدا !

وأنت يا كفر ناحوم . المرتفعة إلى السماء !

ستهبطين في الهاوية !

وانطلق يغادر الجليل دون أن تلوح له يد واحدة بالوداع ، حتى أغصان الأشجار وسعف النخيل لم تهتز ، خفت النسيم ، فبدا كأنه قد مات .

٣٦

« قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر »

(قرآن كريم)

ليل سرمد لا يتخلله بصيص نور ، أرض تطوى ، وشمس تقبل لتغيب وأناس يحشرون يصغون ثم ينفضون ، وفريسيون قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، ونور الإيمان لا يزحزح ظلمات النفوس ، وبعثت الشمس رسلها . ولكن دثر الكون ليل سرمد .

ولاحت له أشجار نخيل عين غانم ، مفتاح السامرة ، فراح يرقى التل يداعبه أمل ، أضافه السامريون ثلاثة أيام ، يوم قابل السامرية عند بئر يعقوب ، واكتشفت أنه نبي ، كرموه على الرغم من العداوة القاتلة بينهم وبين اليهود ، فلو أحسنوا استقباله لمسحوا عن صدره آلام الجفوة التي قاساها في أورشليم ، وفي الجليل ، وفي كل مكان ، فينبثق شعاع من نور في الظلام الدامس الثقيل .

وقابله تلميذاه يعقوب ويوحنا ، ودخلوا عين غانم ، وقام عيسى بين الناس يعظهم ويدعوهم إلى الله ، فوضعوا أصابعهم في آذانهم ، وطلبوا منه أن يغادر قريتهم ، وبدت العداوة منهم ، فنكص على عقبيه مقهورا .

علم السامريون أن وجهتهم أورشليم لحضور العيد ، وما كان السامريون يعترفون بالهيكل المقدس ، فهم يقولون إن الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب سجدوا هنا في جبل شكيم ، وما الهيكل إلا معبد بناه سليمان الحكيم ، فلو شاء اليهود أن يسجدوا ، فليس هناك إلا مكان واحد للسجود ، حيث سجد الآباء في جبلهم المقدس .

سبق أن قال عيسى للسامرية عند البئر : تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله ، فلماذا لا يدعو بهذا جهارا ؟ لماذا لا يقول للناس إن

أورشليم إن هى إلا مدينة فتحها داود ، وما قدسها إلا الكهان والتقاليد ، فلو فعل ذلك لأيد دعواهم ، ولأصاخوا له . ففى ذلك بعض النصر لهم ، ولكنه لم يفعل . فهو يخرج إلى أورشليم حاجا كآلاف الحجاج من بنى إسرائيل ، فغير ذلك صدورهم عليه ، وما دار بخلدهم أن زمان ملكوت السماء ، الذى يجعل الأرض كلها مسجدا ، قد ظلل الدنيا بعد . وما جاء عيسى ليضع تعاليمه ، بل أرسل به بشير .

أبوا عليه أن يخترق السامرة . حتى الطعام رفضوا أن يمدوه به ، لم ينظروا إليه نظرة الود السابقة ، لا لخشونة فى طباعهم ، ولا لقساوة قلوبهم ، بل لأنه جاء إلى بلادهم حاجا إلى أورشليم ، وما كانوا منطقيين مع أنفسهم لو أنهم آووه وأكرموه ودعوه يخترق ديارهم معززا مكرما وهو لا يحترم معتقداتهم .

لو أكرموه وتركوه ينطلق إلى أورشليم لكان ذلك شاهدا على تهاونهم فى أس العداوة المريرة ، المشتعلة بينهم وبين من كانوا لهم إخوانا فى اليهودية ، قبل أن يقع الخلاف بينهم ، على شكيم وأورشليم والتوراة التى جاء بها موسى ، والتوراة التى كتب بعض إصحاحاتها مردخاى تمجيدا لإستر التى أنقذت بجمالها شعبها .

وحنق تلميذاه يعقوب ويوحنا ، وغلى مرجل غضبهما ، فكأن هذه المقابلة الجافة القاسية الجراح ، وجددت الأشجان ، فما بال الله حلما لا ينزل على هؤلاء الجفاة كسفا من السماء ، ما باله لا يدمدم عليهم بذنبهم ، فيسوى أرضهم ؟ وتذكرا أن إيليا ، هنا فى السامرة ، دعا الله أن ينزل على أعدائه نارا تحرقهم ، فاستجاب الله دعاءه ، فلماذا لا يدعو عيسى ربه ، لينزل عليهم من السماء نارا ، فيفنيهم كما فعل إيليا .

غضب عيسى من ذلك الروح الثائر الحانق ، فزجرهما ، وقال لهما :

— ما أرسلت نقمة ، بل أرسلت رحمة .

وانطلقوا ، يدخلون القرى والمدن ، يجتازون السهول والقفار ، ويرقون الجبال ، ويهبطون الوديان ، وعيسى يعظ الناس ، ويبشرهم باقتراب الملكوت ، ويكسر السبت ، يبرىء فيه المرضى ، كأنه ما جاء إلا ليكسر السبت المقدس ، فإذا ثار الفريسيون والناموسيون ، والمراءون ، قال لهم فى سخريته اللاذعة :

— من منكم يسقط حماره أو ثوره — فى يوم السبت — فى بئر ولا ينتشله ؟

كانت أجوبته تفحمهم . فيصمتون على مضض ، يتربصون به الدوائر . فقد يأتى يوم يخرق فيه الناموس ، ويقصر فيه بيانه عن إقامة الحجة المتألقة . فيقتلونه ويستريحون من ذلك القلق الذى بذر بذوره فى أعماقهم .

واستمر فى رحلته ، فهو من يوم أن بعث فى رحلة دائمة . ولاح فى الأفق جبل الزيتون بأشجاره . إنها أورشليم معقل أعدائه ، ذات القلب القاسى الذى كان أقسى من الصخر الذى بنى به أسوارها . كان مكدودا من الرحلة الطويلة ، التى قطعها على قدميه . فشاء أن يستريح قبل أن يدخل متحديا قوات الفريسيين فى عقر دارهم .

كان لعازر من أنصاره . وكان له بيت فى أرباض المدينة المقدسة . فانطلق يستجم هناك بعد التعب ، وما دلف إلى الدار حتى هرعت مرثا ومريم المجدلية ، أختا لعازر ، تستقبلان الضيف العظيم فى ابتهاج ، وأسرعت مرثا تحضر الماء تغسل له رجليه ، وذهبت تعد له طعاما . توقد النار وتبعث فى شراء ما تحتاج إليه ، وتغدو هنا وتروح هناك ، بينا مريم جلست عند أقدامه صامتة ، تصغى إلى عذب حديثه الذى يتدفق من فمه إلى قلبها .

نسيت كل شىء إلا ذلك الضيف العظيم الذى كان بيانه سحرا ، تفتحت نفسها ، وهامت روحها فى سماوات من النقاء ، كان حديثه وحيا من السماء ، يرفعها إلى أجواء عالية ، فتمتلىء نشوة عارمة .

ارتبكت مرثا واحتاجت إلى عون أختها ، فارتفع صوتها بالنداء :

— مريم ، مريم .

ولم تسمع مريم نداءها ، كانت غائبة عن كل ما حولها بكلماته التى تنفذ إلى قلبها قطرة قطرة ، وارتفع النداء وهى فى شرودها ، طغت شخصيته فذابت فيها ، كأنما لم يعد لها كيان .

وضاقت مرثا باعراض أختها عنها ، فاندفعت إليها كالعاصفة ، وقالت للسيد :

— قل لها أن تعيننى ، تركتنى أخدم وحدى .

ماهذا الذى تفعله مرثا ؟ لقد شغلت نفسها فى إعداد طعام فاخر ، حتى إنها تطلب عون أختها ، فمن قال لها إن السيد يحفل بذلك ، كانت مريم تؤدى له خدمة أجل

مما تؤديه مرثا ، كانت تخدمه خدمة روحية ، تصغى إليه وهو يحدثها حديث الشريعة فى إقبال ، فقد أصبح فى حاجة إلى من يقبل عليه ، بعد الإعراض والجفوة .

كانت مريم منهللة ، فالنبى الكريم يحدثها حديث الدين ، على الرغم من المثل المتداول بين الربيين « خير لك أن تحرق الناموس من أن تعلمه امرأة » .

ونظر عيسى إلى مرثا فى إشفاق ، وقال لها :

— مرثا مرثا ، إنك مهتمة ومشتغلة بأمور كثيرة ، والحاجة إلى واحد[1] ، أما مريم فقد اختارت النصيب الصالح ، ولن ينزع منها .

كانت هذه الزيارة روضة الحنان فى صحراء دعوته الماحلة ، التى لم تنبت فيها مشاعر الود والحنان ، كانت النهلة العذبة الروية للصادى الظمآن ، كانت لروحه المعذبة البرد والسلام ، كانت الخيط الأبيض فى الليل البرمد .

---

(١) قامت حول هذه الجملة مناظرات كثيرة ، قال رؤساء الكنيسة فى روما إنها تفضيل لحياة الفكر على حياة العمل ، وقال آخرون إن القصد منها أن المرء لا يحتاج إلى أكثر من نوع واحد للغذاء ، ومن يدرى فقد يقوم من يقول إنها دعوة إلى التوحيد !

obeikandl.com

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك . ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب » (قرآن كريم)

كان غسق الدجى ينحسر ، وعيسى على جبل الزيتون خاشع . لا حسيس ولا تأمة ، والنجوم أفلت ، والسماء صافية ، للشمس تترقب ، وارتفع صياح الديكة فى أورشليم ، فتجاوبت الأصداء فى الجبل ، وزقزقت العصافير ، وتنفس الصبح ، فبعث أشعته خافتة توسوس للأرض بسر ، حتى إذا ذاع انتشر ، واشتعل الأفق الشرقى ، وحامت الطيور فوق الجبل ، وجعلت تحط على أسوار المدينة العتيقة ، ودوى فى الفضاء قرع طبول منبعث من قلعة أنطونيا ، يدعو جنود الرومان إلى مغادرة الفراش .

وقام عيسى ونظر إلى المدينة . كان الهيكل يتلألأ ، الضوء ينبعث من شرفاته ، فقد أضيئت جميع ثرياته احتفالا بالعيد ، وحمل النسيم روائح البخور ، فملأت خياشيمه ، وبدت القباب كمزيج من الجليد والنضار ، بياض ناصع وذهب وهاج .

أنهار الناس من كل فج تصب فى الهيكل ، الرجال فى ثياب زاهية ، قد ثبتوا التفلين فى أذرعهم ، ووضعوا المشامل على أكتافهم ، والنساء محجبات ، والأطفال فى ثياب العيد ، وفى أيدى الجميع غصون أشجار الليمون ، وفروع الأزهار وسعف النخل ، يهزونها فى مرح ، فاليوم عيد التجديد ، ذكرى تطهير يهوذا المكابى الهيكل ، بعد أن دنسه أبيفانوس .

وسار عيسى فى الطريق الجميل المؤدى إلى البيت المقدس ، وبلغت مسامعه صلوات الجموع وابتهالاتهم ، ودقت الطبول معلنة أن أول ضحية من أضحيات

اليوم الأول قدمت إلى الذبح ، وراحت أقداح الدم تتنقل بين أيدى الكهنة حتى يد الكاهن الأكبر ، ليسكبها فى المذبح الكبير ، وقضيت المراسيم ، وانتشر الناس فى الأروقة ، وكانت جدرانها مزدانة بالسيوف ، تخليدا لذكرى الشجعان الذين خلصوا الهيكل مع يهوذا المكابى ، وراح عيسى يغدو ويروح فى رواق سليمان ، والفريسيون يرمقونه ، ولما لم يقف بعض الناس ، ذهبوا إليه وقالوا له :

— إلى متى تعلق أنفسنا ؟ إن كنت أنت المسيح ، فقل لنا جهرا .

— قلت لكم ولا تؤمنون ، لأنكم لستم من خرافى ، خرافى تسمع صوتى ، وأنا أعرفها فتتبعنى ، وأنا أعطيها حياة أبدية ، ولن تهلك إلى الأبد ، ولا يخطفها أحد من يدى . ربى[1] الذى أعطانى إياها هو أعظم من الكل ، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد ربى ، أنا والآب واحد .

ثار الفريسيون ، إنه كفر وادعى أنه إله ، خق رجمه . فتناولوا حجارة ليرجموه ، فالشريعة تقضى برجم من يدعى النبوة كذبا ، فما بالك بمن يدعى الألوهية . نظر إليهم فى دهش وقال :

— أريتكم أعمالا كثيرة حسنة من عند ربى ، بسبب أى عمل منها ترجموننى؟

— لا نرجمك لعمل حسن ، بل لأنك كفرت[2] ، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلها .

— أليس مكتوبا فى ناموسكم : « أنا قلت إنكم آلهة » . قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله .

كان عيسى يتمثل بالتوراة فى كل أقواله . فما ادعى أنه إله لما قال لهم أنا والآب واحد ، أراد أن يقول لهم على طريقة داود إنه رسول الله . فقد قال داود فى مزاميره على لسان الله تعالى :

أنا قلت إنكم آلهة ،

وبنو العلى كلكم ،

لكن تموتون مثل الناس ،

وكأحد الرؤساء تسقطون .

---

(١) ذكر فى إنجيل يوحنا أبى . وآب بمعنى الله . وآب و vater, father تشبه فاطر .

(٢) الكلمة « تجدف » والتجديف بمعنى الكفر بنعمة الله ، لا الكفر إطلاقا .

إنه ليستشهد بكتابهم . وما أكثر اقتباساته منه . صرخ فيهم يوما : « ابعدوا عنى ياجميع فاعلى الإثم » . وما كان ذلك القول قوله ، بل قول داود فى مزاميره . وهو الآن يقتبس من داود قوله إن الله يقول لأنبيائه : إنكم كلكم أبناء العلى . ولكنكم لا تخلدون ، بل يحق عليكم الموت كالناس ، والسقوط كالرؤساء . إن هى إلا عصمة من الله واصطفاء .

لم يدع عيسى الألوهية . بل قال كما قال داود : إن الله اصطفاه ، وإذا كان قد قال لهم إنه ابن الله . فما أراد بذلك بنوة حقيقية[1] ، فيا طالما دعا الناس فى أقواله بأبناء الله : « طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون » ، « يأيها الأحباء نحن أبناء الله » ، « وصلوا للذين يطردونكم . . . لتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » . إنها أبوة روحية تظلل الجميع .

وما كانت تلك اللفظة جديدة على مسامعهم ، قال داود فى مزاميره إنه ابن الله :

قال لى أنت ابنى .
أنا اليوم ولدتك .
اسألنى أعطيك الأمم ميراثا لك .
تحطمهم بقضيب من حديد .
تكسرهم مثل إناء من خزف .

لم يدع أن المعجزات التى أتاها من عنده ، بل قال إنه لم يأت بآية إلا بإذن الله ؛ « كل شىء قد دفع إلى من ربى » ، ولم يدع أنه إله ، ولم يدع بنوة حقيقية ، بل بنوة روحية شاركه فيها المؤمنون والأنبياء ، فهم أبناء الله وأحباؤه وعبيده .

وأرخى اليهود أيديهم وهم يعجبون ، هذا الذى لم يتعلم فى مدارس الربيين ، ولم يجلس فى أروقة الهيكل يصغى إلى شماى وهلليل ، أتاه من العلم ما يفوق علم العلماء ورجال الدين ، إنه على علم بكتبهم وناموسهم ، وله بيان عظيم .

أحسوا قهرا ، حسبوه كفر ، وأقاموا عليه الحجة ليرجموه ، وإذا به يبرهن لهم من ناموسهم أنه لم يدع الألوهية ، بل استعار حديثه ممن سبقوه ، ليعلن أنه رسول رب العالمين .

---

(١) أوريغين Origenus هو أول من درس فى فكر الكنيسة (الأبوة والبنوة) الإلهية ، وهو راهب مصرى عاش فى القرن الثانى الميلادى ، وكان خصيا متأثرا بالديانة الفرعونية .

واستأنف دعوته ، وأعلن للملأ رسالته ، فأعرضوا عنه ونبذوه ، لم يصدقوا أن الله أرسله إليهم ، ولما كانت شريعتهم تقضى بقتل الأنبياء الكذبة ، هجموا عليه ليمسكوه ، ولكنه كعادته أفلت من أيديهم ومضى ، وتركهم فى حيرة ذاهلين .

سار عيسى يدثره حزن عميق ، لم يبق أمامه إلا مغادرة أورشليم ، فأعداؤه يطلبونه ، ولكن إلى أين يتوجه ؟ فى الجليل رفضوه ، وفى الناصرة رفضوه ، وفى اليهودية رفضوه ، وفى السامرة رفضوه ، لم يبق أمامه إلا أن يلوذ بالبرية ، أن ينتهى إلى ما انتهى إليه يحيى ، أن ينطلق صوب الأردن حيث بشر يحيى باقتراب ملكوت الله .

خرج عيسى يحس غصة ، وفى صدره جمرة ، وفى مقلتيه دموع ، وفى فؤاده حزن عميق ، وابتعد عن أورشليم رويدا رويدا ، حتى ابتلعه الليل السرمد المطويل .

٣٨

« والذين يكنزون الذهب و الفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله
فبشرهم بعذاب أليم » (قرآن كريم)

سحاب ثقال فى السماء يتلبد ويزداد قتاما ، فيدثر الأردن ظلام ، وهو هناك فى البرية يعلم تلاميذه ، ويعظ الذين يدفعهم الشوق إلى الحج إليه ، فيصغون إلى حكمته ، وتنفتح قلوبهم لها ، يؤمنون حينا ، حتى إذا عادوا إلى دورهم انقشع سحر بيانه ، وغمرتهم حياتهم الثقيلة ، وجرفتهم فى تيارها .

وهطلت الأمطار غزيرة ، وهبت الرياح عاتية ، كان الوقت شتاء ، وسرعان ما أصبحت السماء صحوا وبزغت شمسها ، أما سحاب دعوته فلم ينقشع ، كان يتكاثف ويتجمع ، ليحجب نور الحق أن يحصحص ويتألق .

وجاءه رسول من مرثا وأختها مريم المجدلية ، يقول له :

— هو ذا الذى تحبه مريض .

علم عيسى أن لعازر سقط مريضا ، فدعا تلاميذه ، وقال لهم :

— لنخرج إلى اليهودية .

فقال له تلاميذه فى فزع :

— اليهود يطلبون أن يرجموك .

وخشى التلاميذ أن يخرجوا ، فقال لهم :

— لعاذر حبيبنا قد نام ، وإنى أذهب لأوقظه .

فقال له تلاميذه فى بساطة :

— إن كان قد نام فهو يشفى .

لم يفهموه ، وما فهموه قبل ذلك ، قال لهم إن لعازر رقد رقدة الموت ، وإنه ذاهب ليحييه ، وهم يحسبون أنه يتحدث عن رقدة النوم ، فقال لهم :

obeikandi.com

— لعازر مات . لنذهب إليه .

نظر بعضهم إلى بعض ، كانوا يخشون الخروج من البرية . فاليهود يطلبونهم ، وصمتوا قليلا ، فقام توما يقطع ذلك السكوت :

— لنذهب لنموت معه .

وخرجوا إلى اليهودية ، فجاءه الفريسيون يسألونه عن الزواج ليحرجوه ، وينفضوا عنه هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون به ، قالوا :

— هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لأى سبب ؟

— خلقهما الله ذكرا وأنثى ، وقال : يترك الرجل أباه وأمه . ويلتصق بامرأته ، ويصبح الاثنان جسدا واحدا . لم يعودا بعد اثنين بل جسد واحد ، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان .

كان ذلك يخالف شريعة موسى ، فقال الفريسيون :

— فلماذا أوصى موسى أن تطلق بكتاب طلاق ؟

— أذن لكم موسى أن تطلقوا نساءكم لقساوة قلوبكم . وأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى ، ومن يتزوج من مطلقة يزنى .

ظهر الدهش فى وجوه تلاميذه . فما يقرره الساعة لا يطاق . فمن ذا الذى يقدم على زواج وهو لا يدرى أيوفق فيه أم يخالفه الإخفاق ، ثم يقال له : لا تترك زوجتك إلا بسبب الزنا ، قد يحل الشقاق والنفرة بينه بين تلك الزوجة ، أيعيش فى جحيم الحياة ؟ وقد تسقط فريسة لمرض عضال فماذا يفعل ؟ فقالوا له مستنكرين :

— إن كان هذا أمر الرجل مع المرأة ، فخير للمرء ألا يتزوج .

فقال لهم شارحا رأيه :

— لا يقبل الجميع هذا الكلام ، بل الذين أعطى لهم . يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل .

وفيما هو يتحدث إلى حوارييه ، أقبل عليه أولاد يلتمسون منه البركة ، فانتهرهم التلاميذ ، فقال لهم :

— دعوا الأولاد يأتون إلى . ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات .

وانطلق فى رحلته الدائمة ، إلى بيت عنيا ، بأرباض أورشليم ، حيث دار حبيبه لعازر ، إلى تلك الدار التى يتفيأ فيها ظلال الراحة والأمن ، وفيما هو فى طريقه ، إذ قابله رجل غنى ، فدنا منه . وقال له :

— أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟

فقال له عيسى :

— لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحد صالحا إلا واحد ، وهو الله ، إن أردت أن تدخل الحياة ، فاحفظ الوصايا .

— أية وصايا ؟

— لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد الزور . أكرم أباك وأمك . وأحب قريبك كنفسك .

— هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فماذا يعوزنى بعد ؟

— إن أردت أن تكون كاملا ، فاذهب وبع أملاكك ، وأعط الفقراء . فيكون لك كنز فى السماء . وتعال اتبعنى .

أطرق الرجل ، وعلاه وجوم ، فأمواله كثيرة ممدودة ، وإنه لعزيز عليه أن ينفق كل ماله فى سبيل الله ، فانسل مطأطىء الرأس حزينا : فقال عيسى لتلاميذه :

— عسير أن يدخل غنى ملكوت السموات ، إن مرور جمل من سم الخياط ، أيسر من أن يدخل غنى ملكوت السموات .

وانطلقوا حتى لاحت لهم قمة جبل الزيتون ، حيث يرقد خلفها بيت لعازر ، وذهب الرسول إلى مرثا وأخبرها أن عيسى قادم ، فتركت المعزيات والمعزين الذين جاءوا للعزاء ، فقد مات أخوها منذ أربعة أيام ، وذهبت لاستقبال النبى ، وبقيت مريم المجدلية فى البيت ، فما بلغها نبأ وصوله .

قابلته مرثا ، وقالت له :

— لو كنت ههنا لما مات أخى .

فقال لها فى هدوء :

— سيقوم أخوك .

فقالت فى حزن :

— أعلم أنه سيقوم فى اليوم الآخر .

وذهبت إلى أختها ، وأسرت لها أن عيسى رسول الله قد حضر . وهو يدعوها ، فما إن مس اسمه أذنيها حتى هبت تهرول إليه . فحسب من كانوا فى الدار أنها منطلقة إلى القبر ، تبكى هناك ، فخرجوا فى أعقابها .

قابلته مريم ، وقالت له :

— لو كنت ههنا ، لما مات أخى .

وانهمرت دموعها على خديها ، فأثرت فيه دموعها ، فاضطرب شفقة وقال :

— أين وضعتموه ؟

— تعال وانظر .

وعند القبر تجمع اليهود الذين خرجوا خلف مريم ، ونظر عيسى ، فجرت دموعه الغالية ، فهمسوا :

— انظروا ، كيف كان يحبه .

رنا إلى القبر مدة ، كان كهفا عليه حجر ، ثم قال :

— ارفعوا الحجر .

فهرعت إليه مرثا منزعجة ، وقالت :

— له أربعه أيام .

كانت تخشى أن تفوح رائحته ، فقال لها :

— ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله ؟

فرفعوا الحجر ، ورفع عينيه إلى السماء ، وقال فى حرارة :

— إلهى لك الشكر على ما منحتنى ، أبتهل إليك أن تستجيب دعائى ، ليؤمنوا أنك أرسلتنى .

وصرخ صرخة عظيمه :

— هلم اخرج .

وإذا لعازر يخرج ملفوفا فى أكفانه ، والناس فى دهش وذهول ، فقال :

— فكوه .

فأسرعت مرثا ومريم إلى أخيهما ، تفكان أربطته فى انفعال ، والدموع تغسل الوجوه ، وذهب فريق إليه خاضعا يظهر إيمانه ، واستكبر فريق ، وأبى أن يصدق ذلك الذى أيده الله بالمعجزات .

وذهب الذين كفروا إلى الفريسيين ، يخبرونهم بما رأوا ، لعل عندهم له تأويلا ، فقالوا لهم إن هو إلا سحر مبين ، وصدورهم ضيقة من الغيظ ، وذاع أمر إحياء لعاذر ، فانطلق الناس إلى بيت عنيا يعلنون إيمانهم برسول رب العالمين.

وحقد عليه الفريسيون ، وأفزعهم انشقاق الناس فى أمره ، فذهبوا إلى قيافا رئيس الكهنة يشكون إليه الفتنة الكبرى ، فأطرق قليلا ، ثم قال :

— خير لنا أن يموت واحد ، من أن تهلك الأمة كلها .

حرضهم على قتله ، لينقذ الأمة من دعواه التى فرقت بين المرء وأخيه ، وأمه وأبيه ، فلو أنهم خلوا بينه وبين الناس ، لانقسموا إلى فريقين يتجالدون ويقتتلون ، ولكانت ثورة أهلية .

وعلم عيسى بما بيته الفريسيون له بليل ، علم أن قيافا أحل لهم دمه ، وأنهم يتربصون به الدوائر ، فخرج من بيت عنيا يترقب ، وذهب إلى إفرايم ينتظر حلول الفصح بعيدا عن الأنظار ، حتى إذا وافى العيد ، خرج إلى أورشليم ، يهاجم الفريسيين وهو آمن من مكرهم ، فلن يستطيعوا أن يقتلوه بين الحجيج ، خشية ثورة الجماهير ، فالناس وإن لم يؤمنوا به ، يعطفون عليه ، ويصغون إليه ، ولا يجدون فى دعواه ما يوجب إهدار دمه ، إنه يشرح لهم الناموس شرحا أخاذا جذابا ، ويضرب لهم أمثالا تستهويهم ، وما أشد إعجاب الناس بالحكمة ، وإن لم يفهموا مغاليقها !

« وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل ، فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » . (قرآن كريم)

عنو عنه فلم يجدوه ، فضاقت الدنيا فى وجوههم ، ونزل بهم هم ثقيل ، لن يعرفوا طعم الراحة ، ما دام يسعى على الأرض ، ينفث فى الناس دعوته التى تقوض سلطانهم ، ولم يقدروا أن يداروا عداوتهم ، فأعلنوا أنهم يطلبونه ، وأصدروا أمرا بتحريض من يعرف مكنه أن يرشد إليه .

وبدأت قوافل الحجاج تفد إلى أورشليم من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى ورومية واليونان ، ليطهروا أنفسهم تأهبا للفصح ، ومن أفرايم شاهد عيسى جموع الحجاج مخترقة البرية إلى البيت المقدس .

واقترب العيد فرأى أن يذهب إلى بيت عنيا ، إلى بيت لعازر حيث الدعة والهدوء ، ليستجم قبل أن يدخل أورشليم للكفاح المرير .

وخرج ومعه حواريوه ، وانطلقوا فى حذر ، حتى إذا دخلوا بيت لعازر ، راحت مرثا تعد وليمة فاخرة للضيوف ، كانت حريصة على إكرام النازلين عندها ، بتقديم ألوان من الطعام وصنوف ، أما مريم فما عادت تحفل بالطعام وبالشراب ، شغلت روحها ، فاهتمت بغذاء الروح .

رأت عيسى قد اتكأ مع المتكئين ، فأحضرت قارورة ناردين خالص ، ودخلت وأكبت على رجليه ، وراحت تدهن قدميه بالطيب ، وتمسحهما بشعرها ، فعبق البيت بالروائح الذكية النفاذة ، والتفت الحواريون إلى مريم وفى عيونهم شىء من الإنكار ، فما كان لامرأة أن تلمس رجلا غريبا ، لا أن تمسح بشعرها قدميه ، ورأى يهوذا الأسخريوطى ، وكان خازن الجماعة ، أن فى إهراق ذلك الطيب النادر تبذيرا ، فقال :

— لو بعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمائة دينار ، أنفقناها على الفقراء .

نظرت إليه مريم نظرة إنكار ، وبان فى وجهها ضيق ، وساد المكان وجوم ، ولمح عيسى ما فى وجه المجدلية من انفعال ، فقال :

— دعوها ، لماذا تتعبونها ، لقد أحسنت إلى ، الفقراء معكم فى كل حين ، أما أنا فلست معكم فى كل حين .

وسكنت النفوس إلا نفس يهوذا ، رأى فى قول عيسى مجاملة لامرأة على حساب تعاليمه ، فهو يدعو الناس إلى التقشف والزهد والخروج عن أموالهم لله طيبة نفوسهم ، ويدع امرأة تسكب الطيب على قدميه ، دون أن ينهاها عن ذلك التبذير ، ماذا عليه لو أرشدها إلى ما فيه خيرها وخير المساكين ؟

واستولى الغضب على يهوذا واستبد به . وجىء بالطعام ، وبدءوا يأكلون ، وغضب يهوذا يأكله ، وما انتهى الطعام حتى كان قلب يهوذا قد تغير على عيسى ، وإن حاول أن يوهم نفسه أن ما يحسه إن هو إلا غضب وقتى سرعان ما ينقشع .

وهمس الناس فى أورشليم أن عيسى عاد إلى بيت عنيا ، إلى لعازر الذى أحياه من الموت ، فدفع حب الاستطلاع الناس إلى الذهاب إلى هناك ، ليروا الشاهد الحى على عظمة النبى الجديد ، فانسلوا بين التلال ، وقابلوا عيسى ، وآمنوا به ، وبلغ الفريسيون خروج الجماهير إلى بيت عنيا لرؤية لعازر القائم من الأموات ، فتجددت مخاوفهم ، فذلك الرجل يفتن الناس ، فاجتمعوا إلى قيافا رئيس الكهنة يتشاورون ، ولما كان الاغتيال سلاح المغلوبين ، قرروا أن يقتلوه .

كان قيافا رئيس الكهنة عاجزا عن أن يقف فى وجه مناوئيه ، كان كل همه أن يرضى السلطة الزمنية ، وأن يسير فى ركابها ، يشاركها آثامها وخطاياها ، ويقاسمها مغانمها وأسلابها ، فإذا لاح فى الأفق من يعكر عليه صفو الليالى ، أفتى بقتله ، وما أيسر أن يشير الجبناء باغتيال مناوئيهم .

واجتمع الناس فى الهيكل يصلون : « اسمع يا إسرائيل ، إلهنا إله واحد » .

وما قضيت الصلاة حتى انتشروا فى الأروقة يتهامسون ، لم يرفعوا أصواتهم ، كان حديثهم عن عيسى الذى أقام لعازر من الأموات ، وكثر الهمس ، وسرى بين الحجاج أن عيسى هو المسيح ، وراح الناس يتساءلون :

— أيقدم إلى الهيكل فى العيد ؟

وانتشر الفريسيون والصدوقيون يتجسسون ، وحمل الهواء إلى مسامعهم همس الناس ، فتحركت مخاوفهم ، إذا حضر أضعت إليه الجموع ، وعجزوا عن أن يمسوه بسوء ، فمن يدرى ، قد تهب فى أورشليم الثورة إذا قبضوا عليه وقتلوه .

وانتشر فى صدورهم قلق ، وانتابهم حيرة ، أسقط فى أيديهم فما عادوا يعرفون ماذا يفعلون ؟ وراحوا يتساءلون :

— أيقدم إلى الهيكل فى العيد ؟

وفى طرقات أورشليم انطلق رجل طويل القامة ، ناحل الجسم ، به انحناءة خفيفة ، أسود العينين ، تغطى وجهه لحية سوداء صغيرة ، من يراه يحسبه عيسى ، ولكنه لم يكن عيسى ، بل كان يهوذا الأسخريوطى ، فى طريقه إلى بيت قيافا .

كان كل شىء ظلاما ، الطريق الذى يضرب فيه ، وقلبه الذى يخفق بالغضب الأعمى البغيض ، وصدره الذى كان مأوى لخفافيش إحساساته المقيتة ، ساءه أن يتنكر عيسى لتعاليمه ، فأصغى لشيطانه ووهب له نفسه ، وهو يحسب أنه ثار لدين الله ، وأنه يصيخ إلى ضميره .

واستأذن فى الدخول ، فأذنوا له ، فإذا به فى قاعة واسعة ، وجاء رؤساء الكهنة ، وتحلقوا حول مائدة طويلة ، وراح يهوذا يتحدث ، وهم يصغون إليه ، فى وجوههم دهش وحيرة ، لايدرون أيصدقون مايسمعون أم يتلقونه فى حذر ؟ جاء يهوذا الأسخريوطى ، الحوارى الصديق ، يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذى آمن به وأحبه .

« وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

(قرآن كريم)

تنفست المدينة المقدسة ، ودبت فيها الحياة ، وخرج الحجاج إلى الأسواق يشترون العطور والهدايا ، وانتشر الجنود الرومانيون فى طرقاتها الضيقة ، وراح سكان أورشليم يجولون عند مداخل المدينة ، ويشاهدون وفود حجاج الأقاليم ، كانوا يقبلون فرحين مستبشرين ، يرقصون ويرفعون أصواتهم بالغناء والتهليل ، وإذا مالاحت لهم قباب الهيكل ، راحوا يسبحون :

احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته

احمـــدوا إله الآلهة لأن إلى الأبد رحمتـه

احمدوا رب الأرباب لأن إلى الأبد رحمتـه

وتدفقت المواكب تصب فى أورشليم ، مبتهجة بذكرى تخليص بنى إسرائيل من عذاب فرعون المهين ، وأقبل ركب الجليل ، الرجال بشعورهم الطويلة يهزون أعطافهم فرحاوهم سائرون ، كانوا فى تقدمهم يرقصون ، والنساء محجبات على الخيل والبغال والحمير ، والأولاد يهرولون ، وكانت مريم بينهم ، فهى تحج إلى الهيكل فى كل عيد ، أقبلت يداعبها أمل ملاقاة ابنها فى أورشليم .

وعبقت المدينة بالبخور ، ولـكن ما كانت رائحته خالصة ، بل كانت مشوبة بروائح العرق وروث الخيل والبغال والحمير والأغنام التى ماج بها الهيكل ، فـكانت رائحة تضيق الأنفاس ، وتقبض الصدور .

وراح الحجاج يتهامسون ، يتحدثون عن عيسى الذى أحيا لعازر ، وقال الذين ذهبوا إليه فى جنح الليل إنه اليوم إلى المعبد قادم ، فخرج الحجاج يرصدون طريقه يدفعهم حب الاستطلاع ، كانوا جميعا يبغون أن يروا ذلك الذى كثر

الحديث عن آياته ، خرجوا وفى أيديهم سعف النخيل ، وأغصان الليمون ، وكان اليوم أحد . .

وأقبل ركب عيسى ، كان راكبا جحشا وحوله حواريوه ، كان مهيبا يشع من وجهه نور الإيمان واليقين ، فلما رآه الناس استولت عليهم الحماسة ، فراحوا يهزون فى أيديهم الأغصان وسعف النخيل ، وهرع إليه بعضهم يفرشون طريقه بثيابهم ، وارتفعت أصواتهم بتسابيح اقتبسوها من مزامير داود :

— أوصنا (خلصنا) ، مبارك الآتى باسم الرب ، أوصنا فى الأعالى .

وانساب الركب تحوطه الجموع الهاتفة فى طرقات أورشليم ، فخف الحجاج ينظرون ، ويتساءلون :

— من هذا ؟

— عيسى النبى الذى من ناصرة الجليل .

رأى الفريسيون استقبال الناس له ، فأحسوا كمدا ، كانوا يدبرون قتله ، فإذا بالجموع تلتف به ، فلن يستطيعوا تنفيذ خطتهم إلا بعد انصراف الحجاج المفتونين به إلى ولاياتهم ، وانطلق الركب والفريسيون يرقبونه ، ونار الحقد تأكل أفئدتهم ، وغمغموا فى يأس :

— هوذا العالم قد ذهب وراءه .

وهبط عيسى عن جحشه ، وتقدم إلى الهيكل ، فألفى الصيارفة وتجار الحمام والعجول والأغنام قد عادوا لاحتلال أروقته ، فثار غضبه ، طردهم قبل ذلك مرة ، وطهر الهيكل من أدرانهم ، وإذا بهم يعودون إلى ما كانوا فيه ، كان همهم أن يبيعوا الذبائح للحجاج ، وأن يحققوا أرباحهم ، أما نظافة الهيكل فلم تكن موضوعا ذا بال .

وفى ثورته قلب موائد الصيارفة ، وكراسى باعة الحمام ، وأخرج العجول والأغنام وهو يصيح :

— مكتوب : بيتى بيت الصلاة ، فجعلتموه مغارة لصوص .

حتى فى ثورته لم ينس طبعه ، لم يكلمهم بحديث من عنده ، بل استشهد بما هو مكتوب فى ناموسهم ، كانت كل أحاديثه اقتباسا ، ومع ذلك كان لها فى نفوس سامعيه وقع عجيب .

ووقف يعظ الناس ، وأصوات الأطفال تتجاوب فى الهيكل :

— أوصنا . . أوصنا .

غاظ ذلك الترحيب رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين . فقالوا له فى غضب :

— أما تسمع ما يقول هؤلاء ؟

كانوا يحرضونه على أن يزجرهم ، فمن هو حتى يخلصهم ؟ ! ولكن عيسى قال فى هدوء ، مقتبسا من المزامير :

— أما قرأتم قط : من أفواه الأطفال والرضع أعددت تسبيحا .

كان ذلك اليوم نصرا ، وبدا كأنما انقشع ليل دعوته السرمد ، وفود تستقبله فى حماسة استقبال الغزاة الفاتحين ، وجموع تصغى إليه فى خشوع ، والفريسيون والكتبة والأعداء يصرفون الأنياب غيظا . أشرقت شمس دعوته ، ولكن ما أقصر ذلك الشروق .

كان الناس يعيرونه آذانهم وقلوبهم مغلقة ، هتافات تنطلق من الحناجر والأفئدة صامتة ، وحماسة تتهلل بها الوجوه ونفوسهم لا تنفعل لها . كان ترحيبهم به ترحيب جماهير ، وما كان ترحيب إيمان ويقين .

ولم يشأ الفريسيون أن ينقضى اليوم وهو يتألق فى نصره ، فراحوا يجادلونه ويحاورونه ، محاولين أن يشككوا فيه الجموع ، وكانت مناظرتهم له قاسية ، تقطر بالعداوة ، ففطن عيسى إلى ما تطويه صدورهم من خيانة ، فعزم على أن يخرج من أورشليم ، لا يقضى ليله بين جدرانها .

وتقدم بعض الحجاج اليونانيين إلى تلميذه فيلبس ، وقالوا له :

— ياسيد نريد أن نرى عيسى .

فأمهلهم حتى يسأله ، وفى جنح الليل انسل هو وحواريوه إلى جبل الزيتون ، ليمضوا ليلهم بعيدا عن أعدائه وشانئيه .

« وإذ قال الله يا عيسى ، إنى متوفيك ، ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .
(قرآن كريم)

على جبل الزيتون ، وتحت الأشجار نام الحواريون . كان الليل هادئا ، والنجوم ساهرة ، والكون هاجعا غارقا فى الكرى ، وعيسى ساجدا يصلى لله ويدعوه ، وقام ونظر إلى السماء وقد بللت عينيه الدموع ، وإذا بجبريل يهبط إليه يبلغه وحى الله :

— يا عيسى ، إنى متوفيك ، ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

دثره حزن عميق ، كان يبغى أن يتم رسالة ربه ، وإذا بالوحى يخبره أن أيامه على الأرض انقضت ، لم يصدقه الناس ولم يؤمنوا به ، وهو ذاهب إلى ربه ، تاركا للناس حواريه ، إنهم لم يفهموه يوما ، فكيف يدعون الناس إلى الله بعد موته ؟ وفكر فى تلاميذه ، فزاد حزنه ، كان أدرى بهم من أنفسهم ، سيدب بينهم الشقاق ، ويحل الخصام ، وتضيع بينهم تعاليمه . لو مد الله فى أجله لثبت أركان دعوته ، ولتركها واضحة لا يكتنفها غموض ، كانت مدة رسالته قصيرة ، لم تكن كافية ليغرس فى الناس أصول ما يدعو إليه ، حتى حواريوه لم يتمكنوا من أن يعوا كل ما يقول .

وفاض ضوء النهار على جبل الزيتون ، وعيسى فى إطراقه الحزين ، وجاء إليه فيليبس وأندراوس وبعض حواريه ، وقالوا له :

— يطلب الحجاج اليونانيون أن يروك .

فقال عيسى فى أسى :

— أتت الساعة التى يتمجد فيها ابن الإنسان ، الحق الحق أقول لكم : إن لم تقع حبة فى الأرض وتمت ، فهى تبقى وحدها ، ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير ، اضطربت نفسى ، ماذا أقول ؟ . إلهى نجنى من هذه الساعة .

وصمت قليلا ثم قال :

— إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع .

فطن تلاميذه إلى أنه ينعى إليهم نفسه ، فاضطربوا وقالوا :

— سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد ، فكيف تقول : ينبغى أن يرفع ابن الإنسان ؟ من هو ابن الإنسان هذا ؟

لم يجبهم ، بل قال :

— النور معكم زمانا يسيرا ، فسيروا مادام لكم نور ، لئلا يدركم الظلام من يسير فى الظلام لا يدرى إلى أين يذهب ، ما دام لكم النور آمنوا بالنور ، لتصيروا أبناء النور .

وذهبوا إلى أورشليم ، وكانت تموج بالحجاج ، ودخلوا الهيكل وقام عيسى يعظ الناس :

— كان لرجل ابنان ، فجاء إلى الأول وقال له : يا بنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فقال : لا أريد أن أذهب ، ولكنه ندم وذهب . وجاء إلى الثانى وقال له : يا بنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فقال : هأنذا ذاهب ، ولم يذهب ، فأى الاثنين نفذ إرادة الأب ؟

— الأول .

— الحق أقولكم إن الخطائين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله ، لأن يحيى جاءكم بالحق فلم تؤمنوا به ، وأما الخطاءون والزوانى فقد آمنوا به . وأنتم بعد أن رأيتم الحق لم تؤمنوا به .

وساد صمت قليل ، ثم قال :

— اسمعوا مثلا آخر . غرس رب بيت كرما ، وأحاطه بسياج ، وحفر فيه

معصرة ، وبنى برجا ، وسلمه إلى كرامين وسافر ، ولما قرب وقت الحصاد أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ ثماره ، فأخذ الكرامون عبيده ، جلدوا بعضا ، وقتلوا بعضا ، ورجموا بعضا ، فأرسل عبيدا آخرين ، ففعلوا بهم كذلك ، ثم جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟

— يهلكهم ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين ، يعطونه الحصاد فى أوقاته .

فاستشهد بما جاء فى المزامير :

— أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون صار حجر الزاوية ؛ لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل ثماره[1] .

وضاق الفريسيون به ذرعا ، فالجموع تتكاثف حوله ، وتهتم بأمره ، وهم يبغون أن يقبضوا عليه ، ويتخلصوا منه ، ولكنهم يخشون الجماهير التى تنظر إليه نظرتهم إلى نبى .

واستمر عيسى فى وعظه وضربه الأمثال .

— مثل ملكوت السموات كمثل ملك أقام عرسا لابنه ، وأرسل عبيده يدعون المدعوين إلى العرس ، فأبوا أن يأتوا ، فبعث إليهم عبيدا آخرين ، وقال لهم : قولوا للمدعوين إنى أعددت غدائى ، وذبحت العجول الحنيذة ، وجهزت كل شىء ، تعالوا إلى العرس ، فأبوا وذهب واحد إلى حقله ، وآخر إلى تجارته ، وسب الباقون عبيده وقتلوهم ؛ فلما سمع الملك بذلك غضب ، وأرسل جنوده وقتل أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده : العرس قائم ، وليس هناك مدعوون ، اذهبوا إلى مفارق الطرق ، وادعوا كل من تجدونه . فخرج العبيد وجمعوا الأشرار والصالحين ، فلما دخل الملك لينظر ، رأى رجلا فى غير لباس العرس ، فقال له : يا صاحب ، كيف دخلت إلى هنا ؟ فسكت ، فقال الملك للخدام : شدوا وثاقه ، واطرحوه فى الظلمة . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، كثيرون يدعون ، وقليلون هم الفائزون .

---

(١) جاء فى القرآن : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

كان يذكر لهم أن من يأتى ملكوت الله دون أن يرتدى ثياب التقى ، يلقى فى نار جهنم ، وظل الناس يتطلعون إليه ينتظرون منه المزيد ، فضاق صدر الفريسيين ، فابتعدوا يتناجون ويتشاورون ، يفكرون فى أن يحرجوه ، وبعد تفكير وتدبير ، أرسلوا إليه أحد أعوان هيرودس ، فقال له :

— نعلم أنك صادق ، وأنك تهدى إلى طريق الله بالحق ، لا تخشى فى الله لومة لائم ، فقل لنا : أيجوز أن نعطى جزية لقيصر ؟

ساد المكان صمت كصمت الرموس ، وأرهفت الآذان ، ألقى أعداؤه حبائلهم ينتظرون أن يسقط فيها ، قال :

— لماذا تختبرونى يا مراءون ؟ !

والتفت إلى الملأ وقال :

— أرونى دينارا .

فقدموه له ، فتناوله وقال :

— لمن هذه الصورة والكتابة ؟

— لقيصر .

— أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

أصابهم غم ، كانوا يعلقون آمالا على هذا السؤال ، فجميع اليهود يكرهون أن يؤدوا جزية للوثنيين ، فذلك دليل على أنهم أصبحوا أذلة ، ولم يعودوا شعب الله المختار ، كان أعداؤه يحسبون أنه سيحرم دفع الجزية للرومان ، تعلقا للجماهير ، فيرفعون إلى الحكام الأقوياء نبأ ثورته على السلطان ، ويوقعون بينه وبين هيرودس العداوة والبغضاء ، وهيرودس سفاك للدماء ، لا يغفر لمن يهين صديقه قيصر العظيم ، ولكن إقراره بدفع الجزية نقض غزلهم ، وما أقربها التماسا للعافية ، فما أقصر أيامه على الأرض ، ولكن لأنه لم يرسل مشرعا ، ينظم قوانين التوريث ، ويحدد العلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، ويسن القوانين ، بل أرسل بشيرا باقتراب ملكوت الله ، الذى ستكون فيه شريعة الله هى القانون السماوى السائد فى دنيا الناس .

٤٢

« فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ،
وإن كثيرا من الناس لفاسقون » . (قرآن كريم)

الهيكل فى فحمة الليل يتلألأ بالأنوار ، فيبدو كعمود من نور هابط من السماء ، وعيسى وحواريوه على سفح جبل الزيتون يتمددون ، حتى إذا غفلت أعين المدينة ، ومشى السكرى إلى جفونها ، انسلوا فى خفة إلى بيت نيقوديموس ، فهو يعد لهم وليمة سرا قبل حلول العيد .

كان نيقوديموس ثالث أعضاء السنهدرين ، سمع عيسى لما وعظ فى الهيكل أول مرة ، فتفتح له قلبه ، فذهب إليه متسترا بالليل وقابله ، وأصغى إليه ، ولم ينصرف من عنده حتى صدقه وآمن به ، ولكنه لم يعلن إيمانه على الملأ ، بل كتمه فى صدره خشية الناس .

وكان عيسى ، كلما وفد إلى أورشليم ، يذهب لمقابلته فى سواد الليل ، يتناجيان ويتحدثان فى الدين ، حتى إذا رق النقاب الأسود ، وفضحت الشمس أنوار السرج ، جلس نيقوديموس إلى أعضاء السنهدرين يتشاورون فيما يفعلون ، ليتخلصوا من ذلك الذى جاء يستل منهم النفوذ ، فإذا ما أحكموا خطتهم أشار عليهم بما يدع للرسول فرصة الإفلات مما يدبرون .

أنار الضوء المنبعث من الهيكل سفح الجبل ، كان عيسى وسمعان ويوحنا ويعقوب — أحب تلاميذه إلى قلبه — يتسامرون ، وكان الباقون يستلقون على العشب ، يتطلعون إلى السماء ، واستلقى يهوذا الأسخريوطى وحده ، بعيدا عن الجميع .

انعكس على وجهه ما كان يجرى فى صدره . بان فيه قلق وحيرة واضطراب ، إنه غريق لا يدرى ما يفعل ، تتجاذبه تيارات ، تطفو به إلى السطح حينا ، ثم تغوص به إلى القرار السحيق .

الأفكار تتزاحم فى رأسه ، والأحساسات تتدفق فوارة فى جوفه ، والشك يعذبه ويضنيه حتى ليكاد يقف مفزوعا يصرخ فى الفضاء ، معلنا الآراء العنيفة التى تأكل صدره وتطحنه وتقسو عليه ، فيئن أنينا مكتوما يزيد ثورة نفسه ، ويمزق قلبه كسكين .

راح يفكر فى ذلك الجالس بين تلاميذه فى هدوء ، وأخذ يسأل نفسه : من هو ؟ أجاء لسعادتنا ، ليخلص أنفسنا من آلامها ، أم جاء ليعذبنا ويضنى أرواحنا ، ويلقى فى صدورنا بذور الشك القاسية ؟ أجاء يخرج بنى إسرائيل من الظلام إلى النور ، ثم يقودنا نحن — تلاميذه الذين ضحينا بكل شىء فى سبيله — من النور إلى الظلام البغيض ؟ من هو ؟ لست أدرى ، فالقلق يحيرنى ، والشك يكاد يقتلنى ، أهو المسيح ؟ فإن كان المسيح فأين ذلك الملك الدائم إلى الأبد الذى يأتى به المسيح ؟ هاهى ذى الأيام تمر ، ولا أمل ولا بصيص من نور ، إنه يلقى المواعظ ويضرب الأمثال ، والجموع تحشر زمرا ، ثم لا شىء غير الإصغاء ثم الانصراف ، دون أن ينفذ إلى القلوب الإيمان والتصديق ! إذا كان هو المسيح فأين ملكه ؟ سألوه عن دفع الجزية لقيصر فأقر دفعها ، فمتى يبدأ مناوأة السلطان ، ويسود سلطانه على الجميع ؟ انتظر . . انتظر . . انتظر . عيل صبرى ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، تبددت آلامنا سدى ، وذهبت آمالنا شعاعا .

انتظر . . . انتظر . . . انتظر ، أما لهذا الانتظار من آخر ؟ الوثنيون يسخرون بالله وهو صامت . لماذا لا ينزل عليهم كسفا من السماء ؟ لماذا لا يقسو فى مهاجمته إلا على الكتبة والفريسيين ، لماذا يدعنا فى حيرة ؟ يقول إنه ما جاء لينقض الناموس ، بل جاء ليكمله ، ثم يقول مرة أخرى إن الخمر الجديدة لاتوضع فى زقاق عتيقة . لست أدرى ماذا يبغى بنا ، إنى حائر . . قلق .

إذا اتفقت مواعظه مع الكتبة والفريسيين اطمأن قلبى ، وإذا عارضت آراؤه آراءهم فيا للقلق الذى يساورنى ، ماذا دهانى ، تقوض عش الأمل الذى بنيته فى صدرى ، فصار جوفى خرابا ينعق فيه البوم .

وأراد أن يتخلص من ذلك الكابوس ، فرفع رأسه ونظر ، تخيل إليه أن الأضواء تخفت ، وأن الظلام يمد رداءه ، فيحجب كل شىء ، حتى الهيكل السابح فى النور ، بدا لعينيه سوادا ، ففزع ، فقد رانت على عينيه دكنة قلبه .

وحاول أن يطرد الأفكار التى كانت تلح عليه فى عناد ، يريد أن يركن إلى الهدوء ، ولكن هيهات ، نجوم السماء توحى إليه بأفكار ، وزئير الرياح ينقلب فى أذنيه اعتراضات . تآمر الكون عليه ، وراح يشد أزر نفسه الساخطة ، خيل إليه أن الريح تصرخ ؛ فليأت ملكوتك ؟ فليأت ملكوتك،فأخذ يفكر فى ذلك الملكوت برغمه ، أين ذلك الملكوت ؟ ومتى يأتى ؟ نبتهل إلى الله فى كل صلاة أن يبعثه . ولم يستجب الله الدعاء ، لماذا لا يحدثنا عن ذلك الملكوت ؟ إن كل ما قاله عن ذلك الملكوت أنه كلام الله ، لماذا يتركنا فى حيرة ؟ إننى قلق .. إننى حائر ، الشك يخزنى وخزا ما أقساه !

ورنت فى أذنه أصوات : ينبغى أن يرفع ابن الإنسان ، من هو ابن الإنسان هذا ؟ لم يحر جوابا ، بل تحدث عن النور والظلام ، والسائرين فى النور والظلام ، وتركنا حيارى . من هو ابن الإنسان ؟ من هو ابن الإنسان ؟ لا أدرى ، لا أدرى إلا أن القلق يقتلنى ، والشك يخز قلبى بأصابعه الباردة .

إننى غريق استسلم لليأس ، ولكن لماذا ذلك الاستسلام ؟ ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت أنا يهوذا الاسخريوطى حوارى الرسول ، الذى أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى ؟ فعلت فعلة منكرة ، اتفقت مع أعدائه على أن أسلمه ، أنا يهوذا الأسخريوطى يسلم نبيه ؟ لا . لن يكون ذلك ، لن يسلم يهوذا الأسخريوطى نبيه .

ما هذا القلق ؟ ما هذه الحيرة ؟ يا للشك القاسى المرير ، أريد أن أهدأ . . أن أستريح ، رأسى يكاد أن ينفجر ، قلبى يتمزق ، أنفاسى تضيق ، ليتنى أموت ، أموت وأستريح .

وقام وركع ورفع وجهه إلى السماء ، وانهمرت دموعه ، وأحس أنها تنبع من فؤاده ، وقال فى حرارة صادقة :

— أبانا الذى فى السماء ، لماذا اخترتنى لهذه التجربة ، أبتهل إليك أن تنير طريقى ، إننى أخبط فى الظلام ، لا أدرى أين أسير ، إننى قلق . معذب . مضنى ، فأعد يا رب الهدوء إلى قلبى ، والصفاء إلى نفسى ، واهدنى سواء السبيل .

يا رب رحمتك ، فلئن لم ترحمنى لأكونن من الهالكين .

وخر ساجدا تمتزج دموعه بالتراب .

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم . ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى » .

(قرآن كريم)

الهيكل يموج بالجموع ، ووقف الناس حلقات يتحدثون ، الصدوقيون فى ثيابهم الغالية ، وفى أصابعهم الخواتم ، وعلى رءوسهم العمائم على هيئة أهرام ، وعلى شفاههم ابتسامات ساخرة ، كانوا يتحدثون عن هزيمة الفريسيين أمام معلم الناصرة ، قال لهم : ادفعوا الجزية : ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فلم يعترضوا ، لأنهم لو اعترضوا عليه لفضحوا أنفسهم ، وأعلنوا على الملأ عدم ولائهم للامبراطور ، ولم يعترضوا لأن علماءهم يقولون : « قانون الدولة شريعة » ، فلم يكن أمامهم إلا تجرع الهزيمة صامتين .

وراح الفريسيون يتحدثون ، فيبدون حيرتهم ، فهم لا يدرون من هو ، ولا من أين جاء ؟ كلما سألوه سؤالا ليحرجوه ، رد كيدهم إلى نحورهم ، وأجابهم جوابا مفحما ، فلا يملكون إلا الصمت والحيرة ، إنه يحفظ الناموس ، ويستشهد به ، وما تعلم فى مدارس الربيين ، فعلمه عجيب يحيرهم ، ولولا الكبرياء ، لاعترفوا أن ذلك العلم من عند الله رب العالمين .

وتحدث الناس عنه فى خيبة أمل ، جاءت الفرصة ليكسب قلوبهم ، ولكنه تركها تفوت ، لو قال : لايجوز أن ندفع جزية لقيصر ، لدوت حناجرهم فى الهيكل تهتف له ، ولأقروا جميعا بزعامته ، إنهم أبناء الله ، شعبه المختار ، فلا يليق أن يأتوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لو أنه شق عصا الطاعة لأيدوه ، فهم يريدون من يخلصهم من قوانين الرومان ، ويعيدهم إلى ناموس الله ، ولكنه لم يفعل ، بل ثبت الخزى والعار ، أعطوا ما لقيصر لقيصر ؛ أهذا قول يقوله

رسول ؟ أكان موسى يقول ذلك لو وجه إليه نفس السؤال ؟ أين يهوذا الجليلى ، الذى أنزل النسر الرومانى عن الهيكل ، ليقود ثورتهم ، بدل ذلك النبى الجليلى ، الذى يهادن أعداء البلاد ؟

تلفت الصدوقيون إرصادا لمقدمه ، كانوا يترقبون حضوره ، ليسخروا منه ومن الفريسيين ، إنه يؤمن بالبعث بعد الموت ، ويشاركه فى ذلك الإيمان الفريسيون ، ولكنهم ما كانوا يصدقون أن الأموات يحيون . فما أشار الناموس إلى ذلك الموضوع . أعدوا سؤالا يوجهونه إليه عن البعث ، سؤالا يقطر سخرية وزراية ، سيجعلونه ومن لف لفه من الفريسيين أضحوكة الجميع .

وأقبل عيسى ، فارتسمت الابتسامات فى وجوه الصدوقيين ، وتريثوا ، حتى إذا قام يدعو الناس ، وخفت الجموع إليه ، اقتربوا منه فى خيلاء ، وقالوا :

— قال موسى : إن مات امرؤ ولم يعقب ، تزوج أخوه امرأته ، لينجب لأخيه نسلا ، فإذا كان هناك سبعة أخوة ، وتزوج الأول امرأة ومات عنها دون أن يعقب ، فتزوجها الثانى فمات دون أن يعقب ، فتزوجها الثالث فالرابع حتى تزوجت جميع الأخوة ثم ماتت ، فإذا قامت القيامة ، فمن من أزواجها السبعة تتزوج ؟

لمعت عيون الصدوقيين سخرية ، وترقب الفريسيون قوله ، فيا طالما أفحمهم الصدوقيون بمثل هذه الأسئلة المعقدة ، فهى وإن كانت تبدو سخيفة تافهة ، إلا أنها أسئلة قائمة تنتظر ردا ، وأرهفت الجماهير آذانها فى شغف ، وتطلعت إليه تنتظر قوله .

لم يطرق ليفكر ، ولم تظهر فى وجهه الحيرة ، بل قال فى هدوء :

— تضلون ، لأنكم لا تعرفون الكتب ولا قوة الله . فى الآخرة لا يزوجون ولا يتزوجون ، بل يهيمون كملائكة الله فى السماء .

أما البعث ، أفما قرأتم ما قيل لكم على لسان الله القائل : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق وإله يعقوب ، ليس الله إله أموات بل إله أحياء .

تذكر الناس ما قاله الله لموسى على الجبل : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، إنه إله هؤلاء الأنبياء الأحياء عنده ، هذا مكتوب فى الناموس ، وهذا دليل على الآخرة ، فإذا كانوا لم يفطنوا إليه ، فليس الذنب ذنب الناموس ، بل عيب عيونهم المغلقة .

وفرح الفريسيون ، فها هو ذا يسوق الدليل الذى يؤيدهم من الناموس ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل ، حتى غطت أصوات الاعتراض المنبعثة من الصدوقيين الكافرين باليوم الآخر .

ودنا فريسى منه وسأله :

— ما أعظم وصية فى الناموس ؟

— إن أول كل الوصايا هى: اسمع ياإسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد . وحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى . والثانية هى : حب قريبك كنفسك . ليس هناك وصية أخرى أعظم من هاتين .

— نطقت صدقا . لأن الله واحد لا آخر سواه ، ومحبته من كل القلب ، ومن كل الفم ، ومن كل النفس ، وكل القدرة . ومحبة الغير كالنفس هى أفضل من كل الذبائح والقرابين .

فرنا عيسى إلى الفريسى فى عطف ، وقال له :

— لست بعيدا عن ملكوت الله .

ونظر إلى الجمع وقال :

— بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء .

هاتان الوصيتان هما ركنا كل دين ؛ الدعوة إلى الله وحده لا شريك له ، فما جاء رسول إلا ليدعو قومه إلى الله الواحد القهار ، لا يشرك معه إلها آخر ، والدعوة إلى المحبة والخير ، إلى أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه .

إنها الدعوة الخالدة ، دعوة نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والنبيين ، ودعوة عيسى المسيح ، ودعوة من جاء يبشر به ، ويدعو فى صلاته أن تأتى أيامه ، أيام الملكوت المرتقب .

وانصرف عيسى ، وجلس أمام خزانة الصدقات وحواريوه حوله ، وأقبل الناس يلقون النقود ، فراح الأغنياء يضعون فى زهو مبالغ كبيرة ، وجاءت امرأة فقيرة ، ووضعت فى هدوء فلسين ، فالتفت إلى تلاميذه وقال :

— هذه الفقيرة ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة ، لأن الجميع ألقوا من فضولهم ، أما هذه فقد ألقت من عوزها ، ألقت كل ما عندها .

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربى .
« قرآن كريم »

انطلقوا صامتين ، وإن كان كل منهم مشغولا بأفكاره ، عيسى حزين لتلك العداوة وذلك العناد البادى من الفريسيين ، حاربوه فى اليهودية ، وحاربوه فى الجليل . حتى من مدينة كفر ناحوم أخرجوه ، كانوا يتظاهرون أنهم على استعداد ليصدقوه ، لو أتاهم بآية من الله ، لتطمئن قلوبهم ، ولكنهم ما كانوا يصدقونه ولو انفتحت فى السماء أبواب ، وهبطت عليهم منها الملائكة المكرمين ، فقد كان كل ما يرمون إليه أن يشككوا الناس فيه .

ذهب إليهم وهو يطمع فى أن يؤمنوا به ، قبل أن يتوفاه الله ، ولكنهم لجوا فى العداوة والنكران ، رفضوه وبالغوا فى الرفض ، حتى تقطعت خيوط الأمل ، فقام يصفعهم برأيه فيهم ، ويغلق خلفه الباب . كان ثائرا كبركان ، حتى إن الجماهير حدقوا فيه مذهولين ، فما كان الذى ينفث تلك الحمم عيسى الوديع ، بل يحيى الثائر قام من الأموات .

وسار حواريوه ترن فى آذانهم كلماته ، فيأخذون فى التفكير ، فما حدث اليوم فى الهيكل هو فراق ما بينه وبينهم ، لن يكون هناك مجال للتوفيق ، كان تقريعه للفريسيين قاسيا ، ولولا جموع الحجاج ، لهجموا عليه وقتلوه ، راح يصرخ فيهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون » . « ويل لكم أيها القادة العميان » هتك رياءهم أمام الناس ، وتركهم فى الهيكل عظاما نخرة .

وخرجوا مطرقين ، والتفت أحد تلاميذه إلى الهيكل ، والشمس ترسل أشعتها إليه ، فتنعكس ذهبا وهاجا ، كان منظرا يملأ النفس روعة ، فأراد أن يسرى عن نبيه ، فقال له :

— انظر ، يا لهذه الحجارة وهذه الأبنية !

فقال له عيسى وقد اكفهر وجهه :

— أترى هذه الأبنية العظيمة ! ستنقض ، ولن يبقى حجر على حجر .

وعض يهوذا على نواجذه ، ورفع يده إلى شعره يجذبه فى حنق ، فما بال كلمات عيسى تقطر فى هذه الأيام مرارة ؟ أجاء إلى بنى إسرائيل بالأمل ، أم جاءهم بالنقمة والعذاب ؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصب عليه لعنته ؟ إذا كان الفريسيون والكتبة رفضوه ، فقد ثار فى وجوههم وألقمهم أكثر من حجر ؟ وسقط يهوذا فريسة للشك والقلق والحيرة .

وراحوا يرقون جبل الزيتون ، وعلى سفحه جلسوا ، عيسى فى إطراقه الحزين والشمس فى الغروب ، والشفق أحمر ، ولكن كل شىء فى عينيه ليل سرمد ، انقضت أيام رسالته ، وما أقل الذين آمنوا به ، وما أندر من فهموه .

ودنا منه بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس ، وسألوه عن القيامة ، ومتى هى ؟ فقال لهم :

— إذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب ، فلا ترتاعوا ، فهذا لابد أن يكون ، ولكن ذلك ليس المنتهى ، فستقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وتقع زلازل ومجاعات واضطرابات . هذه هى مبدأ الأوجاع .

انظروا إلى نفوسكم ، سيسلمونكم إلى المجالس ، وتجلدون فى المجامع ، وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجل شهادة لهم ، وينبغى أن يكرز (يعظ) ببشارة الملكوت فى جميع الأمم ، فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تهتموا من قبل بما تتكلمون به ، بل تكلموا بما يوحى إليكم ، لأنكم لستم المتكلمين بل الروح القدس .

سيسلم الأخ أخاه إلى الموت ، والأب ولده ، ويقوم الأبناء على آبائهم يقتلونهم ، وسيكرهونكم من أجلى ، ولكن من يصبر فهذا هو الفائز .

فمتى نظرتم رجفة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس ، فليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال ، ولا ينزل من على السطح ليأخذ من بيته شيئا ، ولا يرجع من فى الحقل ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام .

إن قال لكم أحد هودا المسيح هنا ، أو هوذا هناك فلا تصدقوه ، فسيقوم مسيحون كذابون ، وأنبياء كذابون ، يأتون بآيات وعجائب ليضلوا المختارين أيضا ، لو أمكن ، فانتظروا . هأنا قد سبقت وأخبرتكم بكل شيء .

تظلم الشمس بعد ذلك الضيق ، ويمحى آية القمر ، وتهوى النجوم ، وتتزعزع قوات السماء(١) ، أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، علمها عند الله .

انظروا واسهروا وصلوا ، لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت ، اسهروا لأنكم لا تعلمون متى يأتى رب البيت ، أمساء أم صباحا ؟ أم يأتى بغتة فيجدكم نياما . ما أقوله لكم أقوله للجميع : اسهروا .

انفعلوا جميعا للحديث ، أهو حديث وداع ، أهو إنذاره الأخير ، وراحوا جميعا يفكرون ، فما كان لهم إلا التفكير ، وهاجت وساوس يهوذا ، وثارت نفسه ، مابال عيسى يتحدث عن قيام الأبناء على الآباء ، وحلد حواريه فى المجامع ، ما بال بشاراته انقلبت حزنا ورعبا ؟ أين ملك المسيح الذى سيدوم إلى الأبد ؟ ومتى هو ذلك اليوم الذى تظلم فيه الشمس ، وتتساقط من السماء النجوم ؟ إنه يحس كأنما صار ريشة تعابثها الرياح . لماذا يعذبهم بأحاديثه المغلفة بالغموض ؟ لماذا لاينير لهم الطريق ، إنه يخبط فى الظلام ، لا يجد من يهديه .

يا رب ، قليل من النور ؛ انتشر فى كهف صدره ظلام ثقيل ، فران على البقية الباقية فى قلبه من الإيمان والتصديق ، الشك يخزه ويعذبه ، أقلعت الطمأنينة ، وتركته للقلق والاضطراب ، ليته يستطيع أن يكفر به ويستريح .

---

(١) ذكر بعد ذلك فى الأناجيل : « لايمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله » ولما كان ذلك الجيل قد مضى ولم تتحقق النبوءة ، ولما كنت لا أعتقد أن نبيا يخبر خبرا ثم لايصدق ؛ حذفت النبوءة ، واعتبرتها زائدة ، وقد فعل مثل ذلك تولستوى فى إنجيله الذى نسقه من الأناجيل ، فقد حذف كل ما ظنه زائدا .

ألفت كتب كثيرة لإزالة الاعتراضات التى قامت حول هذه النبوءة . ولم تصل هذه الكتب إلى شيء ، بل زادت الأمر تعقيدا .

« ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .
(قرآن كريم)

قاعة واسعة مدت فيها الموائد ، وجلس حولها الكتبة والفريسيون : أعداء الأمس ، وحلفاء اليوم ، ألفت بينهم المشاركة فى بغض عيسى ، ذلك الخطر المترجح فوق رءوسهم . سخر منهم فى المجمع أمام الوفود ، وسخريته قاسية مريرة ، أمضى من السيف .

كلماته التى ألقاها فى وجههم ترن فى آذانهم ، فتفجر المقت فى أجوافهم ، وتجعل دماء الحقد تتدفق فوارة فى عروقهم ، كانت كلماته جمرات من نار أحرقت نفوسهم ، وتركت كبرياءهم رمادا .

تقريعه لهم لا يزال يرن فى جنبات الهيكل ، وقد حفر فى أذهان الملأ ، وسيصبح قصة إذا ما انقضى العيد وعاد الناس إلى ولاياتهم . فى الجليل وفى اليهودية وفى الأردن وفى مصر وفى سورية وفى بابل وفى اليونان ، سيرددون سخريته بهم « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فاحفظوا كل ما يقولون لكم وافعلوه ، ولكن لا تعملوا حسب ما يفعلون ، فهم يقولون ولا يفعلون . . . يعملون كل أعمالهم لوجه الناس ، يعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تطوفون البر والبحر لتهدوا واحدا ، ومتى هديتموه قدتموه إلى الجحيم » .

كانت سهام تهكمه فتاكة ، كفيلة بأن تهدم أمة ، فلو أنهم صبروا عليه حتى يوم العيد ، لقام بين الجموع يرشقهم بسهام نقده ، ويركبهم بسخريته ، فتضيع هيبتهم ، ويهون على الناس أمرهم . الأرض تميد تحت أقدامهم ، فإذا لم يثبتوها بدمائه ، انشقت وبلعتهم ، وإنه لأيسر عليهم أن يقتلوه من أن يزول سلطانهم .

لما التأم جمعهم ، راحوا يتباحثون ، كان قتله رأى الجميع ، ولكنهم اختلفوا فى التنفيذ ، إذا تركوه حتى انقضاء العيد أفسد عليهم الناس ، وإذا قتلوه فى العيد ، فقد تثور الجموع ، فالجماهير متقلبة ، ترضى اليوم وتغضب غدا ، وتبرم أمرا وسرعان ما تنقضه ، وتزهق روحا ثم تبكى على الشهيد . فمن يدرى إذا ما قتلوه أن يعلن الثورة من لم يؤمنوا به !

كان الكتبة والفريسيون يتدبرون ، وكان يهوذا الأسخريوطى منطلقا بقامته الطويلة وشعره الأسود ، وعينيه القلقتين فى شوارع أورشليم ، يكاد ينفجر من الحنق ، فقد حدث اليوم ما أشعل فى نفسه الثورة ، فتأججت قوية عاتية ، حتى فاقت كل ما سبقتها من ثورات .

ثار يوم سكبت مريم المجدلية قارورة نادرة من الطيب لتدهن بها قدميه ، ولم يرشدها — وهو الرسول المتقشف — إلى طريق الخير ، إلى أنها لو تصدقت بثمنها لكان ذلك أذكى وأطيب . وحنق لما رآه يتوعد — وهو رسول الرحمة — الهيكل المقدس ، كان يهوذا يحب الهيكل ، فهو أمل بنى إسرائيل ، فحرك غضبه أن يرى سيده يصب عليه اللعنة .

ولكن ما حدث اليوم فجر مرجل غضبه ، وأجج نار قلقه ، فعيسى استقر فى بيت عنيا ، وراح يمضى يومه فى بيت مريم ، ركن إلى الهدوء ولن يخرج إلى الهيكل ، يدعو الناس إلى ربه ، كأنما غسل يديه من رسالته .

ليته يخرج ويثور فى وجوه الجموع الجاحدة الكافرة ، ليته يأتى هنا بآية ، كتلك الآيات التى أتى بها فى الجليل ، ليته يفعل شيئا بدل ذلك الهدوء البغيض ، فيهوذا من كل قلبه يتمنى أن يقوم عيسى بعمل يدعم رسالته ، يمحو طبقات الشك التى تراكمت فى جوفه ، حتى كادت تخنق ما فى فؤاده من إيمان وتصديق .

ولمحه أترابه ، فيهوذا من اليهود ، وليس كباقى الحواريين من الجليل ، فخفوا إليه ، وراحوا يسخرون من معلمه ، ومن تعاليمه ، ومن الملكوت الذى يبشر به ، فأحس كأن سخريتهم خناجر تمزق قلبه ، وتزيد نار غضبه اندلاعا .

وقفزت إلى رأسه فكرة ، إذا كان عيسى قد ركن إلى الدعة ، أو إذا كان قد استسلم لليأس ، فسيضطره إلى العمل ، سيحرض أعداءه عليه ، سيرشدهم إلى

مقره حتى يعود إلى الكفاح ، والاحتكاك بالأعداء كفيل بإذكاء روح المقاومة فيه .

سيرشدهم إليه ليخرجه من عزلته ، فقد ينتصر عليهم فى العيد ، وتؤمن به الوفود ، فيكون ذلك قبس النور الذى يبدد الليل السرمد ، ويمهد الطريق إلى ملك المسيح الدائم ما دامت الأرض والسماء .

لو آمن الناس به فى العيد ، لانقشعت عن عينى يهوذا الغشاوة . وتبخر الشك القلق الحائر الجوال فى نفسه ، فذلك الإيمان يحيى الأمل فى إمكان تأسيس مملكة المسيح ، التى جاءت بها البشارات .

وقام فى نفسه اعتراض ؛ إنه يسلم سيده إلى أعدائه إذا أرشدهم إليه ، وما كان يجب أن يمسوه بسوء . إنه شك فيه ، وانتابه قلق ، ولكن ذلك ما كان ليدفعه إلى تسليمه .

وكاد يعدل عن تلك الفكرة ، ولكن ذهنه أمده بما يؤيده فيما ذهب إليه . إنه لو أرشدهم إلى عيسى لجدد شباب الدعوة ، فلا خوف عليه منهم ، فيا طالما حاولوا أن يمسكوه . ولكنه كان يجتاز فى وسطهم كالطيف ، فلن يستطيعوا أن يمسوه بسوء .

كان يهوذا يتخبط ، لا يدرى حقيقة عواطفه ، كان يشك فيقلق ويثور ، وكانت تهب عليه نسائم من الإيمان فيثور على ثورته ، فكان قلقا مضطربا ، كل ما يبغيه أن يعيد إلى نفسه الطمأنينة والهدوء .

وانسل يهوذا إلى حيث كان الكتبة والفريسيون مجتمعين ، وقعد بينهم يصغى إلى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجاج إلى دورهم ، ثم ينقضون عليه ويقتلوه ، ولكنه قال لهم إن خير ما يفعلونه أن يقبضوا عليه قبل العيد ، فى مكان خلاء ، بعيدا عن محبيه ، وأعجبتهم الفكرة ، ووافقوا عليها ، وخرج يهوذا ، وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكة المسيح الدائمة ، بداية النور الذى يفضح ظلام قلبه .

٤٦

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

(قرآن كريم)

جلس عيسى صامتا مطرقا ، ولاح فى وجهه حزن ، وراحت مريم المجدلية ترنو إليه ، فتستشعر أسى ، ولكنها ما كانت قادرة على أن تكلمه ، كانت تحترم صمته ، ولا تجرؤ أن تخرجه من أفكاره ، وإن كانت فى قرارة نفسها تحس أنها أفكار حزينة ، مغرقة فى الحزن .

وجلس لعازر والحواريون صامتين ، يترقبون أن يقول عيسى شيئا ، فشمس عيد الفصح تدرج لتحتل كبد السماء ، وأحس عيسى أن عيونهم مصوبة إليه ، فرفع رأسه وقال لبطرس ويوحنا :

— اذهبا وأعدا لنا الفصح[1] لنأكل .

— أين تريد أن نعده ؟

إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرة ماء . اتبعاه إلى البيت حيث يدخل ، وقولا لرب البيت : يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى ؟ سيريكما علية كبيرة مفروشة ، فأعداه هناك .

وخرج بطرس ويعقوب ، وغادرا بيت عنيا ، ودرجا فى طرقات جبل الزيتون فلاح لهما الهيكل يتألق فى الشمس كالذهب ، وانطلقا إلى أورشليم ، والشمس عالية فى السماء ، ولا ظل لشىء على الأرض ، فقد كان الوقت ظهرا .

ولمحا رجلا يحمل جرة ماء ، وما أندر أن يحمل رجل جرة ، فذلك عمل النساء ، فانطلقا فى أثره حتى إذا دخل بيتا دخلاه ، وحدثا صاحبه ، فإذا به صديق من أصدقاء المسيح ، وعرفا مكان الاجتماع ، ثم ذهبا إلى الهيكل ليقدما النحائر .

---

(١) فى الأناجيل اضطراب حول هذا اليوم ، حتى إنه لا يمكن الجزم أكان هذا العشاء فصحا حقيقيا أم ما يشبه الفصح !

أخذت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، وقرعت طبول الهيكل الفضية إيذانا ببدء النحر ، فتدفق اليهود يسوقون ذبائحهم أمامهم ، وغص الرواق بالاسرائيليين ، ووقف على الدرج الكهنة اللاويون يقرعون الطبول ، إعلانا للمدينة المقدسة أن ذبائح الفصح تذبح ، وراح الحجاج يصعدون الدرج اثنين اثنين . ويقدمون قرابينهم لتنحر ، ويتلقى كاهن دماءها فى فلجانة ذهبية ، وتنتقل الفلجانة من كاهن لكاهن حتى تصل إلى الكاهن الأكبر ، الواقف أمام المذبح المقدس ، فيلق بالدم فيه .

وذبح بطرس ويوحنا الذبائح ، وعادا إلى مكان الاجتماع ، يعدان الفطير ، وحمل الفصح ، وانتظرا وفود المسيح وإخوانهم .

وغابت الشمس وراء جبل الزيتون ، وخرج عيسى وحواريوه من بيت عنيا ، وذهبوا إلى المدينة المقدسة ، كانت شوارعها غاصة بالجماهير ، فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه أحد ، كانوا يهرعون إليه إذا قام فى الهيكل يدعوهم إلى الله ، أما إذا سار بينهم فما كانوا يميزونه من آلاف الجليليين الغادين الرائحين فى المدينة .

دلفوا إلى مكان الاجتماع ، فإذا موائد الفصح مدت ، وإذا الأرائك صفت ، فذهبوا يتكئون . فحاول كل من الحواريين أن يجلس إلى جوار المسيح ، وارتفعت بينهم المشادات ، كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من زميله ، فزاد ذلك الشقاق فى حزبه ، فحواريوه لم يفهموه ، ولم تؤثر فيهم تعاليمه .

جاءته يوما سالومى أم يعقوب ويوحنا ، تلتمس منه أن يسمح لابنيها أن يجلسا معه فى ملكوته ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، كانت تحسب أن ملكوته عالما كائنا فوق السحاب ، فأرادت لابنيها السلطان ، وما جاءته من تلقاء نفسها ، بل دفعها إلى ذلك أحب حواريه إليه ، وهاهم أولاء فى ساعاته الأخيرة يتنافسون ، كأنما يتنازعون ميراث ملك أو سلطان .

وأراد أن يضع حدا لنزاعهم ، فقال لهم :

— اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أمضى .

فصمتوا ، وأخذوا يأكلون ، ثم تناول كأسا وقال :

— خذوا هذه واقتسموها بينكم ، لأنى أقول لكم إنى لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتى ملكوت الله .

وفرغوا من الطعام ، وقام عيسى يغسل أيديهم[1] ، فتعاظموا ذلك ، وتكارهوه ، وقال بطرس فى إنكار :

— أنت تغسل يدى ؟ ! أبدا .

— لا تعلم الآن ماذا أصنع . ولكن ستفهم فيما بعد .

— لن تغسل يدى أبدا .

— ألا من رد على شيئا الليلة مما أصنع فليس منى ، ولا أنا منه .

فقال بطرس :

— هاك يدى ورجلى ورأسى .

فلما فرغ من ذلك ، قال لهم :

— أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام ، وغسلت أيديكم بيدى ، فليكن لكم بى أسوة ، فإنكم ترون أنى خيركم ، فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسى لكم .

الحق الحق أقول لكم : إنه ليس عبد أعظم من سيده ، ولا رسول أعظم من مرسله .

الحق الحق أقول لكم : الذى يقبل من أرسله يقبلنى ، والذى يقبلنى يقبل الذى أرسلنى . وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

— أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى ، ستكونون معى فى ملكوت الله ، تأكلون وتشربون على مائدتى ، وتجلسون على كراسى ، تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر .

اطمأن يهوذا إلى أفكاره التى احتلت رأسه ، فهاهو ذا المسيح يضمن له الجنة ، ويعده بكرسى يدين سبطا من أسباط بنى إسرائيل . فلو كانت تلك الأفكار جرة شريرة ، لحرمه من ملكوت الله ، فقوى ذلك القول عزمه ، فاستأذن من المسيح فى أن يذهب لقضاء حاجة ، فقال له عيسى :

— ما أنت فاعله افعله سريعا .

فخرج يهوذا وانطلق إلى الهيكل ، ليخبر أعداء المسيح عن مكانه ، ليخرجه من عزلته ، لينفث فيه روح المقاومة والجلاد ، ليجدد شباب الدعوة . انطلق وهو يحس فى أعماقه أن المسيح يبارك خطواته .

---

(١) ذكر فى الأناجيل أنه قام يغسل لهم أرجلهم ، وأنه خلع ثيابه واتزر بالمنشفة .

« وإذ قال عيسى ابن مريم ، يا بنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين »
(قرآن كريم)

كان الحزن مخيما على جو الاجتماع الأخير ، عيسى يعظهم ويحدثهم عن موته ، وعن القادم بعده ، وهم فى حيرة لا يفهمون ، راح يقول لهم :

— لا تضطرب قلوبكم ، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى ، فى بيت الله منازل كثيرة ، قلت لكم : إنى ذاهب لأعد لكم مكانا ، فإن مضيت وأعددت لكم مكانا ، آتى وآخذكم إلى ، فحيث أكون تكونون ، وحيث أذهب تعلمون الطريق .

فقال له توما :

— يا سيد ، لا نعلم أين تذهب ، فكيف نعرف الطريق ؟

— أنا هو الطريق والحق والحياة . لا يأتى أحد إلى الله إلا بى . لو كنتم عرفتمونى لعرفتم الله أيضا .

قال له فيلبس :

— يا سيد أرنا الله وكفانا .

— الذى رآنى فقد رأى الله ، والكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ، ولكن يوحيه الله إلى .

إنى ذاهب إلى الله ، فإن كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصايای ، وأنا أطلب من الله فيعطيكم (فراقليط)[1] آخر يمكث معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى

(١) فراقليط لفظة يونانية ترجمتها جمعية التوراة الأمريكية (بالمعزى) ، وترجمها الكتاب المسلمون (بأحمد) ووضح الأب عبد الواحد داود الأشورى العراقى فى كتابه (الإنجيل والصليب) ، الكلمات اليونانية التى فى التوراة والإنجيل بمعنى أحمد وإسلام .

لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه ، لأنه ماكث معكم ويكون فيكم .

الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى ، بل لله الذى أرسلنى ، بهذا كلمتكم وأنا معكم ، وأما (الفراقليط) الروح القدس الذى سيرسله الله ، فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم بكل ما قلت لكم .

قلت لكم : أنا ذاهب ثم أعود إليكم ، فلو كنتم تحبوننى كنتم تفرحون ، لأنى ذاهب إلى الله ، والله أعظم منى .

فقال له سمعان بطرس :

— يا معلم ، إنى مستعد أن أمضى معك إلى الموت(١) .

فنظر عيسى إليه فى إشفاق ، وقال له :

— أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

وحدث هرج فى المكان ، حتى فى لحظاته الأخيرة يختلفون ، فقال لهم :

— قوموا ننطلق من ههنا .

فقاموا وخرجوا إلى المدينة المحتفلة بالعيد ، كان القمر يرسل أشعته الفضية ، فيكسى المدينة العتيقة ثوبا قشيبا ، وتلألأ الهيكل فى الفضاء مزهوا ، وساروا حتى إذا بلغوا جبل الزيتون ، راحوا يصلون خاشعين ، ويبتهلون إلى الله .

أحببت ، لأن الله يسمع تضرعاتى ،

لأنه أمال أذنه إلى

فأدعوه مدة حياتى ،

اكتنفتنى حبال الموت ،

أصابتنى شدائد الهاوية

كابدت ضيقا وحزنا .

وباسم الرب دعوت .

آه يارب . نج نفسى .

---

(١) ذكر فى إنجيل لوقا : إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن . وقد حذفت « السجن » لأن الحديث حديث وداع ، ويدور حول الموت .

وجلسوا على سفح الجبل ، وراح يوصيهم :

— هذه وصيتى ، أن يحب بعضكم بعضا ، كما أحببتكم . ليس هناك حب أعظم من أن يضع المرء نفسه لأجل أحبائه . أنتم أحبائى إن فعلتم ما أوصيكم به . بلغتكم كل ما أوحى الله إلى ، أوصيكم أن يحب بعضكم بعضا .

اذكروا الكلام الذى قلته لكم ، ليس عبد أعظم من سيده ، إن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم ، وإن كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم ، ولكنهم يضطهدونكم من أجلى ، لأنهم لا يعرفون الذى أرسلنى .

لو لم أكن قد جئت ودعوتكم إلى الله ، ما كانت لهم خطية . أما الآن فلا عذر لهم ، الذى يبغضنى يبغض الله ، لو لم أكن قد أتيت لهم بآيات من الله ما كانت لهم خطية ، أما الآن فقد رأوا آيات ربى ، وكفروا بالله ورسوله .

ومتى جاء (الفراقليط) الذى سيرسله الله ، روح الحق الذى من عند الله ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا ، لأنكم معى من الابتداء[1] .

قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا ، سيخرجونكم من الجامع ، بل تأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله[2] ، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الله ولا عرفونى ؛ كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى قلت لكم ، ولم أقل لكم من البداية لأنى كنت معكم .

أما الآن . فأنى ماض إلى الذى أرسلنى . ولا يسألنى أحد منكم أين تمضى ، ملأ الحزن قلوبكم ، لأنى قلت لكم هذا ولكن أقول لكم : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم (الفراقليط) ، ولكن إن ذهبت أرسله

---

(١) لم يشهد أن عيسى رسول الله إلا القرآن والحواريون والموحدون الأوائل .

(٢) فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد اجتمع مؤتمر نيقية ، وكان مكونا من ألف راهب ، لحل مشكلات الدين ، والفصل فيها . حاول « آريوس » رئيس الموحدين البرهنة على أن المسيح « عبد الله » وحاول « أناتاثيوس » الشماس السكندرى أن يبرهن (التثليث) وكان متأثرا بالديانة المصرية القديمة . اعترف بعبودية المسيح ثلثا المؤتمرين ، ولكن قسطنطين ، وكان قد تنصر وكان حديث عهد بالوثنية انضم إلى الأقلية الداعية إلى التثليث ، وقتل الموحدين ، وهو يحسب أنه يؤدى خدمة لله . وأحرقت جميع الكتب الداعية إلى التوحيد ، ولم تبق إلا الكتب التى أقرها مؤتمر نيقية .

إليكم . لى أمور كثيرة لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق . لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمعه يتكلم به[1] .

بعد قليل لا تبصرونى ، ثم بعد قليل أيضا ترونى ، لأنى ذاهب إلى الله .

فراح تلاميذه يتهامسون :

— ما هو هذا الذى يقول لنا ، بعد قليل لا تبصرونى ، ثم بعد قليل أيضا ترونى ، لأني ذاهب إلى الله ؟ ما هو هذا القليل الذى يقول عنه ، لسنا نعلم بماذا يتكلم ؟

وفطن المسيح إلى حيرتهم ، فقال لهم :

— أعن هذا تتساءلون فيما بينكم ، لأنى قلت : بعد قليل لا تبصرونى ، ثم بعد قليل أيضا ترونى ؟ الحق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون ، والعالم يفرح . ثم أنتم ستفرحون ؛ سيتحول حزنكم إلى فرح .

لم يفهموا مرمى حديثه ، سيفرح الناس لما يرون على الصليب رجلا يحسبونه المسيح ، وسيحزنون هم ويبكون ، ولكن حينما يعرفون أن الذى صلب كان غيره ، سيتحول حزنهم إلى فرح شديد .

واستأنف حديثه ، وقال لهم فيما قال :

— هوذا تأتى ساعة ، وقد أتت ، الآن تتفرقون فيها ، كل واحد إلى خاصته وتتركونى وحدى ، وأنا لست وحدى لأن الله معى ، قد كلمتكم بهذا ليكون لكم سلام ، سيكون لكم ضيق فى العالم ، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

ورفع عيسى عينيه إلى السماء وقال :

— يارب ، قد أتت الساعة ، كتبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

يارب ! هذه هى الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الإله الحقيق وحدك ، وعيسى المسيح الذى أرسلته[2] .

---

(١) قال الله تعالى فى القرآن مخاطبا النبى محمدا (ص) « واتبع مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

(٢) هذا النص جاء فى إنجيل يوحنا ويشبه قول المسلمين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله .

الآن علموا أن كل ما أعطيتنى هو من عندك . لأن الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم ، وهم قبلوا وعلموا يقينا أنى خرجت من عندك ، وآمنوا أنك أنت الذى أرسلتنى . يارب ، لم يعرفك العالم ، أما أنا فقد عرفتك ، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتنى .

ولف الحزن جبل الزيتون بغلالة سوداء ، لم يقو ضوء القمر أن يفضحها . فقام عيسى وسار صوب وادى قدرون ، وسار تلاميذه مطرقين صامتين ، وصوته يرن فى آذانهم :

— أنا قد غلبت العالم .

obeikandl.com

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين »
(قرآن كريم)

« تآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما . الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزىء بهم » مزامير [٢ : ٢ — ٤]

أشجار الزيتون الضخمة تحجب ضوء القمر عن وادى قدرون ، فيلف المكان ظلام دامس ، والسكون عميق يبعث فى النفوس رهبة ، وعيسى وحواريوه ينسابون كأطياف ، وإن كانت خطواتهم ثقيلة حزينة ، فعيسى يحس أن أيامه على الأرض انقضت ، بعد أن أوحى الله إليه أنه متوفيه ورافعه إليه ، والحواريون يستعيدون أقواله ويفكرون فيها ، ويمعنون فى الفكر ، فلا يهتدون إلى شىء . « خرجت من عندالله ، وأيضا أترك العالم وأذهب إلى الله » « أنا معكم زمانا يسيرا ، ثم أمضى إلى الذى أرسلنى . ستطلبوننى ولا تجدوننى ، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا » ماذا يقصد بهذا ؟ وكيف لا يستطيعون أن يذهبوا حيث يكون هو ؟ وكيف يذهب إلى الله ؟ أقوال غامضة لم تقدر عقولهم على كشفها .

وابتعدوا عن أسوار المدينة العتيقة ، وهم يفكرون فى أقواله : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » كيف يشكون فيه وقد آمنوا به وصدقوه ، إن إيمانهم به عميق ، فهم يؤمنون أنه رسول الله ، فلن يشكوا فيه أبدا .

ودخلوا ضيعة جثسيمانى ، وكانت ليوسف الرامى ، وهو صديق من أصدقائه ، وكان ينفرد فيها بحوارييه كلما جاءوا إلى أورشليم . كان القمر يرسل أشعته ، فيبدو العشب أخضر زاهيا ، والضوء يتخلل أشجار الزيتون ، فتتبعثر فى ظلها دنانير فضية ، كانت ليلة رائعة ولولا الحزن المنبعث فى أجوافهم ، والرهبة المسيطرة عليهم ، لكانت ليلة موحية بالأفكار والأمثال .

والتفت إلى حوارييه ، وقال بصوت حزين :

— اجلسوا ههنا حتى أمضى وأصلى هناك .

وانطلق وأخذ معه بطرس وابنى زبدى يعقوب ويوحنا ، حتى إذا ابتعد عن باقى حوارييه ، ظهر فى وجهه الأسى ، وجزع من الموت . فالتفت إلى أحب تلاميذه إليه وقال :

— نفسى حزينة حتى الموت . امكثوا ههنا واسهروا معى .

وجلس بطرس ويعقوب ويوحنا ، وتقدم خطوات ليصلى لله ، وما مست أجسام أحب حوارييه إليه الأرض حتى راحوا فى سبات .

وخر عيسى ساجدا ، وراح يدعو الله :

— إلهى ، إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس . ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت .

وظل فى صلاته وابتهالاته ودمعه سروب ، ثم قام وذهب إلى تلاميذه الذين دعاهم ليسهروا معه ، فألفاهم نياما ، فجعل يوقظهم ويقول :

— سبحان الله ، أما تصبرون لى ليلة واحدة . اسهروا وصلوا ، أما الروح فنشيط ، وأما الجسد فضعيف .

وجلس معهم قليلا ، فأحس رغبة فى الصلاة ، فقام وتركهم ، وما خلا بنفسه يدعو الله حتى عادوا للنوم .

وخر ساجدا ، وراح يدعو الله :

— إلهى : كتبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

واستمر فى دعائه ، ثم جاءهم فوجدهم نياما ، فأيقظهم ، فقالوا له :

— والله ما ندرى ما لنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر ، وما نطيق الليلة سمرا ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه .

فقال فى أسى :

— يذهب الراعى ، وتتفرق الغنم .

وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعاءه ، حتى ثقلت جفونهم فناموا ، وظل فى خشوعه ، فأرهفت حواسه ، ومس أذنيه صوت خافت أخذ يتضح ، إنه وقع أقدام مقتربة ، فقام ينظر فإذا أضواء مصابيح ومشاعل ، وغمر الضوء المكان ، فهب الحواريون مرعوبين .

وتقدم الجنود الرومانيون ، يحملون سيوفهم ، وحولهم خدام من عند رؤساء الكهنة والفريسيين ، فتقدم المسيح منهم ، وقال لهم :

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصرى(١) .

لم يكونوا يعرفونه ، أرسلوا ليقبضوا على رجل لم يروه قبل ليلتهم ، فقال لهم عيسى :

— إنى أنا هو .

خفق قلب يهوذا فى جوفه ، ترى أيقبضون عليه ؟ وينقضى ملك المسيح ، ويظل هو فى شكه وقلقه ، أم يمر من بينهم دون أن يلقوا عليه الأيادى ، ويخرج من استسلامه ويأسه ، ويستأنف جهاده وكفاحه ، وفى ذلك تجديد شباب الدعوة ، التى لم تتفتح براعمها ؟ !

رجع الجنود إلى الوراء ، وسقطوا على الأرض ، فانشرح صدر يهوذا ، إنه يحس فى تلك اللحظة ذلك الظلام الذى تجمع فى صدره ينقشع ، وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها .

نظر عيسى إلى الجنود وهم ينهضون ، وقال لهم فى تحد :

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصرى .

— قلت لكم إنى أنا هو . فإن كنتم تطلبوننى ، فدعوا هؤلاء يذهبون .

وشهر بطرس سيفا ، وضرب عبد رئيس الكهنة ، فقطع أذنه ، ونظر عيسى فوجد أنصاره أهون من أن يحموه ، فقال لبطرس :

— اجعل سيفك فى غمده .

فوضع بطرس السيف فى قرابه ، واتسعت عيون التلاميذ رعبا ، فقال لهم عيسى :

— اذهبوا .

---

(١) اعتمدت رواية يوحنا — وإن كانت تختلف عن روايات متى ولوقا ومرقص — لأنه كان فى مكان قريب من عيسى .

فانطلقوا فرارا لا يلوون على شيء . وتركوا رسولهم الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، تحت أشجار الزيتون يحيط به جنود رومانيون غلاظ ، مدججون بالسلاح ، وبقى يهوذا يترقب ، خافق القلب مرعوبا . فلو أن الرومانيين ألقوا القبض على عيسى ، لقتل يهوذا الشك والقلق .

وتقدم عيسى خطوات ، فرجع الجنود إلى الخلف وسقطوا على الأرض ، وانطلق عيسى من بينهم دون أن يروه ، وذهب ليختفى ، ويتحقق قوله لتلاميذه : « بعد قليل لا تبصرونى ، ثم بعد قليل أيضا ترونى » .

أحس يهوذا نورا ينسكب فى جوفه ، وهزته موجة من الفرح ، عاد إلى الحوارى الذى أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى إيمانه الكامل . وغسلت روحه ، وتخلصت من شوائب الشك ، كما يتخلص الثوب من أدرانه إذا غسل بالماء .

وقام الجنود الرومانيون الغلاظ حانقين ، ونظروا فلم يجدوا إلا يهوذا واقفا فى الظلام وحده ، فهجموا عليه وأمسكوه يحسبونه عيسى ، وأراد يهوذا أن يقاومهم وأن يصرخ بهم أنهم أخطئوه ، ولكنهم انهالوا عليه بالسباب ، وأوسعوه ضربا ، ثم شدوا وثاقه ، فتيقن أن الله أنزل به ذلك البلاء ، ليجازيه على شكه الذى نبت فى جوفه ، بعد أن أوحى إليه الإيمان ، فلزم الصمت ، وعزم على أن لا ينبس بكلمة ، وأن يتحمل التجربة القاسية ليتطهر ، ويستحق أن يجلس مع المسيح فى مملكة الله ، ويدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر ، كما قال له المسيح .

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون » . (قرآن كريم)

أضواء المشاعل تتراقص ، فالهواء يعبث بها ، فتضطرب الأنوار الساقطة على الوجوه ، فتبدو السحن غريبة ، وأصدر قائد الجنود أوامره بالسير ، فساروا ويهوذا فى وسطهم بقامته الطويلة ، مطرقا ، كل من يراه يحسبه عيسى ، وسار على البعد بطرس يرصد ما يفعلونه بمن حسبه سيده ، الذى تركه أحب الناس إليه فى أيدى أعدائه ، وولوا فرارا .

غادروا الضيعة ، وانطلقوا فى وادى قدرون ؛ لا يسمع إلا وقع أقدامهم ، وقد استسلم يهوذا لقضاء الله ، ولم يرتجف ولم يحزن : بل لفته طمأنينة ، بعد انقشاع ضباب الشك الذى تلبد حول إيمانه وتصديقه .

سيصبر يهوذا[1] حتى الموت ، ليكفر عن الوساوس التى نبتت حينا فى جوفه ، فما كان له أن يتزعزع ، وقد شرح الله صدره للإيمان ، استكان لضعفه ، وترك الشيطان يمسه ، فحق عليه أن يتحمل العذاب ليتطهر ، ويستحق أن يجلس مع المسيح فى مملكة الله ، ورن فى أذنيه قول المسيح : « الحق أقول لكم : إنكم أنتم الذى تبعتمونى فى التجديد ، متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده ، تجلسون أنتم أيضا على اثنى عشر كرسيا ، تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر » فأحس يهوذا كأن قوة علوية تثبته ، فهو أحد الاثنى عشر الموعودين المبشرين بالمجد والعظمة ، وما كان لمثله أن يتردى فى الظلام .

---

(١) كتب نقاد الغرب ينقدون الاختلافات الكبيرة فى « محاكمة المسيح وموته وقيامته » الواردة فى الأناجيل . وترجع الاختلافات إلى أن متى ولوقا ومرقس ويوحنا لم يعاينوا شيئا منها بل تلقفوا أخبارها من أفواه العامة واستمدوا بعض المعلومات من مخيلاتهم .

مسه طائف من الشيطان ، ولما كان من المؤمنين تذكر ، فانجابت الغشاوة عن عينيه ، فإذا هو مبصر ، فقرر أن يتحمل عن سيده العذاب والاضطهاد .

كان الليل قد انتصف ، وكانت المدينة المقدسة غارقة فى ضوء القمر ، وأنوار الهيكل تنفذ من الكوات كإشعاعات قطعة من الماس ، والجنود الرومانيون ويهوذا يدرجون فى طرقات أورشليم التى سادها الصمت العميق .

ودلفوا إلى الهيكل ، وساروا إلى بيت رئيس الكهنة ، وسمحت لهم المرأة الواقفة عند الباب بالدخول ، وأقبل بطرس الذى كان على البعد يقتفى آثارهم ، وأراد أن يدخل ، فرمقته المرأة بنظرة فاحصة ، ثم قالت :

— ألست أنت أيضا من تلاميذ هذا الإنسان ؟

فاضطرب بطرس وقال :

— لا لست من تلاميذه .

ساق الجنود الرومانيون يهوذا إلى غرفة واسعة ، تضيئها المشاعل ، وقد جلس فى نصف دائرة فريسيون وكتبة ، ورأس الاجتماع شيخ كبير ، أبيض الشعر . هو حنان ، صهر رئيس الكهنة قيافا ، وساد الاجتماع قلق ؛ كانوا يخشون فى أعماقهم أن ينزل عليهم غضب من السماء ، وإن أخفوا ذلك وتظاهروا بالعبوس والتقطيب .

أرادوا أن ينتهوا من محاكمته سريعا ، وأن يصدروا حكمهم بموته ، ثم يفروا من ذلك القلق السارى فى المكان ، فقال له حنان :

— من هم تلاميذك ؟ وماهى تعاليمك ؟

فصمت يهوذا ولم يحر جوابا ، فصاح به حنان :

— تكلم .

ولكن يهوذا لم يحرك ساكنا ، فتقدم أحد الخدام ، ولطم يهوذا لطمة قوية ، وقال له :

— جاوب رئيس الكهنة .

وبقى يهوذا ساكنا لاينبس بكلمة ، وراح حنان يلقى عليه أسئلته ، ويهوذا غارق فى الصمت .

ودخل بطرس إلى الردهة الطويلة ، كانت الليلة شديدة البرودة ، فأوقد الجنود الرومانيون نارا يصطلونها ، فاقترب بطرس من النار ، ووقف ينعم بالدفء ، إذ وقف هناك فى القاعة القريبة من يحسبه سيده ، يحاكم أمام أعدائه ، ويحاسب حسابا عسيرا :

ورنا أحد الجنود إلى بطرس مليا ، إنه هو ذلك التلميذ الذى رفع سيفه ، وقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة ، فاقترب منه ، وقال له :

— ألست أنت أيضا من تلاميذه ؟

فاضطرب بطرس وقال :

— لا لست من تلاميذه .

واقترب منه خادم من خدام رئيس الكهنة ، وقال له :

— ألم أرك معه فى البستان ؟

— لا ، إنى لا أعرفه .

وانتهز بطرس فرصة تشاغلهم عنه بالنار التى كانوا يذكونها ، فانسل هاربا ، مغادرا الهيكل ، لينحو بنفسه .

لم يتكلم يهوذا ، فضاق به حنان ذرعا ، وأمر أن يقودوه إلى قيافا رئيس الكهنوت ، ليرى رأيه فيه ، فانطلقوا به فى جوف الليل ، حتى إذا وقف أمام قيافا ، ظل فى صمته العميق .

كان قيافا يرى أنه خير للأمة أن يموت واحد من أن تقوم بسببه حرب أهلية بين بنى إسرائيل ، كانت غايته أن يقتله ويستريح ، فراح يسأله وهو مطرق ، مستمسك بالصمت ، فأحس ضيقا ، وأراد أن ينتهى منه ، فأرسل يستدعى — وهو رئيس الكهنوت — شهود زور يشهدون عليه ، فلم يجد ، وأخيرا أقبل شاهدان وقالا :

— هذا قال إنى أقدر أن أنقض هيكل الله ، وفى ثلاثة أيام أبنيه .

فقال له قيافا :

— أما تجيب بشىء ؟ ما رأيك فيما يشهد به هذان عليك .

لو كان المقبوض عليه عيسى ، لقال إنه قال ذلك ، فما كان لنبى أن يكفر بأقواله ، ولكنه كان يهوذا ؛ لم يشأ أن يكذب فى لحظاته الأخيرة ، فظل ساكتا لا ينطق بكلمة . نفد صبر رئيس الكهنة ، فقال له :

— أستحلفك بالله أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟

لم يشأ يهوذا أن يكذب ، فقال له :

— أنت تقول ذلك .

ثم صمت قليلا وقال فى حماسة من يؤمن بكل كلمة ينطق بها :

— من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة ، وآتيا على سحاب السماء .

فمزق رئيس الكهنة ثيابه ، فما أضاء ذلك القول شيئا . إنه قول يقوله أى مؤمن بالمسيح ، وأراد قيافا أن ينهى هذه المحاكمة ، فقال :

— لقد كفر فما حاجتنا إلى شهود ، ها قد سمعتم كفره .

والتفت إلى الفريسيين والكتبة والصدوقيين ، وقال لهم :

— ماذا ترون فيه ؟

وهل كان يرى أعداء المسيح غير موته ، فقالوا :

— إنه مستوجب الموت .

حكموا على يهوذا بالقتل ، وهم يحسبون أنه المسيح ، ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، وابتسموا فى راحة ، ولكن « الساكن فى السماء يضحك ، الرب يستهزئ بهم » .

وانقضى الليل ، وصاح الديك ، فتذكر بطرس قول عيسى له : إنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك ، فهام على وجهه يبكى وينتحب ، حتى كادت كبده تتصدع من البكاء .

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »(١) . (قرآن كريم)

خرج إلى الردهة بعد أن قرر المجتمعون استحقاقه للقتل ، فقام إليه الخدم والجنود يبصقون فى وجهه ، ويلطمونه ويصفعونه ، ويركلونه ، ويسددون اللكمات إلى وجهه ، ويضحكون مستهزئين ، ويهوذا يتحمل إهاناتهم فى صبر عجيب ، كان يخفف من آلامه أنه يتلقى الاضطهاد عن سيده الذى هداه إلى النور .

وساقوه إلى غرفة يحبسونه حتى طلوع النهار ، وانعقاد السنهدرين ، فما كانت تجرى المحاكمات القانونية إلا فى وضح النهار ، وأدخلوه ودخلوا وأغلقوا الباب خلفهم ، وأخذوا يصفعونه ساخرين ، ثم قفزت إلى أذهانهم فكرة يقطعون بها الوقت حتى طلوع النهار ، فحجبوا عينيه ، وتقـــدم إليه واحد منهم ، ولطمه . وقالوا له هازئين :

— تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

وجلجلت ضحكاتهم المقيتة تمزق السكون ، واستمروا فى عبثهم وقسوتهم ، ويهوذا صابر ، فمهما اشتدت آلام الجسد ، فهى أهون من عذاب الروح .

وانقضى الليل ، وأشرقت الشمس ، وانعقد السنهدرين ، من الفريسيين الذين هتك المسيح رياءهم ، ومن الصدوقيين المتحجرفين الكافرين بيوم الدين ، ورأس المجتمعين قيافا ، رئيس الكهنة المتظاهر بالتقوى ، الضالع مع الهيروديين

---

(١) قال سلسوس من علماء القرن الثانى للميلاد ، ونقل عن أكهارن من علماء ألمانيا « بدل النصارى أناجيلهم ثلاث مرات أو أربع مرات ، بل أكثر من هذا تبديلا ، كأنما مضامينها بدلت » .

فى الفسق والفساد ، وكان بينهم نيقوديموس ، ثالث أعضاء المجلس ، الذى آمن بعيسى وأخفى إيمانه .

كان نيقوديموس مضطربا لايقوى على أن يرفع عينه ، كان يفكر فى إنقاذ من آمن به ، وكان يخشى أن تفضحه خفقات قلبه ، لذلك راح يعبث بأصابعه ، يحاول أن يوارى ما به .

وجىء بيهوذا ، ومثل أمام أعضاء السنهدرين ، وقد غير الاضطهاد هيئته ، وما وقعت عينا نيقوديموس عليه حتى أحس يدا تعصر قلبه ، وانقبض ، كانت آثار التعذيب قاسية ، فاستشعر كأن خنجرا يخز فؤاده ، وطأطأ بصره حتى لا تظهر على وجهه انفعالات نفسه .

وقال له قيافا :

— إن كنت أنت المسيح فقل لنا .

ماذا يقول لهم يهوذا ؟ إذا قال لهم إنه المسيح كذب ، وإن قال لهم إنه يهوذا لم يصدقوه ، فقال لهم فى سخرية :

— إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبونى ولا تطلقونى .

وصمت قليلا ، وحسب أن الله رفع عيسى ، فقال :

— منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله .

فصاح قيافا :

— ما حاجتنا إلى شهود ، سمعنا اعترافه .

وأمر بإخراجه ، وراح أعضاء السنهدرين يتشاورون ، لم يقل شيئا يستحق عليه القتل ، لم يدع الألوهية ، فلو أنه ادعاها لما كانوا فى حاجة إلى التفكير فى تهمة تغير صدر بيلاطس عليه ، إنهم يريدون أن يتخلصوا منه ومن تأليب الشعب عليهم . هذه هى المسألة .

وفكروا فيما يتهمونه به ، إنه عمل فى السبت وخرق الناموس وهذا يستوجب القتل ، ولكنه أثبت فى كل مرة أنه كان يعمل الخير فى السبت ، وأخمهم وألقمهم أكثر من حجر ، واتهموه أنه ادعى أنه إله ، فأثبت لهم أنه استعار التشبيه من مزامير داود ، وأنه لم يقصد به الألوهية ، بل الاختيار والاصطفاء ، كان هدفهم

قتله ، فليقولوا لبيلاطس إنه يدعو الناس إلى الثورة ، وإلى الامتناع عن دفع الجزية ، فلو أنهم رفعوا إليه ذلك لوافق على قتله .

خرج يهوذا إلى الجنود الغلاظ ، فعادوا يبصقون فى وجهه ، ويسبونه ، ويصفعونه ويلطمونه ، وانضم إليهم بعض الفريسيين والصدوقيين ينتقمون لسهام السخرية المريرة التى رشقها عيسى فى أبدانهم .

وقام رؤساء السنهدرين ، وانطلقوا إلى قصر بيلاطس الهائل ، وكان قريبا من الهيكل ، ويهوذا مشدود وثاقه ، وحوله الجنود الرومانيون ، ودلفوا إلى القصر العظيم ، واستأذن قيافا رئيس الكهنوت فى الدخول على الحاكم ، فلما أذن له ، قال :

— جئنا بعيسى ، ذلك الذى أضل كل إسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة ، من الجليل حتى أورشليم ، ولم يكتف بدعواه ، بل راح يفسد الأمة ، ويحرض الناس على الامتناع عن دفع الجزية لقيصر ، زاعما أنه المسيح ملك اليهود . كان بيلاطس يحب عيسى ، سمع بآياته وتعاليمه ، فمال إليه قلبه ، وإن كتم ذلك عمن حوله ، فطلب أن يدخلوه ، فلما دخل يهوذا انفرد به ، وقال له :

— سلمك الكهنة وشيوخ الشعب إلى يدى ، فقل الحق لأقيم العدل ، لأنى قادر على أن أطلقك ، وقادر على الأمر بقتلك .

فقال يهوذا :

— إذا أمرت بقتلى ترتكب ظلما كبيرا ، لأنك تقتل بريئا .

واستمر بيلاطس يحاور يهوذا وهو يحسبه عيسى ، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، وقال :

— أية شكاية تقدمونها على هذا الإنسان ؟

— لو لم يكن خطيرا ما دفعنا به إليك .

وراحوا يكيلون إليه التهم ، ويهوذا صامت لا ينبس بكلمة ، حتى تعجب كانت اتهاماتهم تقطر عداوة ، وإن كانت بعيدة عن الحق ، فلم يجد فيها بيلاطس الوالى ، ما يستجوب القتل .

لم يطمئن ضمير بيلاطس إلى تأييد حكم السنهدرين ، فظن إلى أنهم يريدون

قتله غيرة منه ، كانوا مرائين . ففضحهم أمام الشعب الغافل . ولو تركوه يسعى فى الأرض لفض الناس من حولهم .

وفطن رؤساء الكهنة أن بيلاطس يفكر فى إطلاقه ، فقالوا له :

— إذا تركت هذا الجليلى فلست محبا لقيصر ، كل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر .

فلما سمع بيلاطس لفظة الجليلى ، قفزت إلى رأسه فكرة ، فقال :

— هل الرجل جليلى ؟

— نعم .

— أرسلوه إلى هيرودس[1] ، فهو من رعاياه ، ليرى فيه رأيه .

وخرج الكهنة وشيوخ إسرائيل ويهوذا والجنود الرومانيون ، وانطلقوا إلى هيرودس ، فقد كان فى أورشليم فى العيد ، وتنفس بيلاطس الصعداء ، حسب أنه استراح من الحكم فى هذه القضية ، التى لا يستريح ضميره إذا بت فيها بما يرضى أعضاء السنهدرين وشيوخ إسرائيل ، الواغلين فى العداوة والبغضاء .

---

(١) ذكر خبر إرساله إلى هيرودس فى إنجيل يوحنا فقط . ولم تتفق رواية مع أخرى فى الأناجيل الأربعة بشأن هذه المحاكمات وهذا دليل ظاهر على أنهم تلقفوا أخبارها من أفواه العامة .

« أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله »
(قرآن كريم)

خرجت الشمس من أكمامها ، وأرسلت أشعتها إلى أورشليم التى لم تغمض لها عين طوال الليل ، كان أهلها يحتفلون بالعيد ، ورجال الدين فيها من فريسيين وصدوقيين وناموسيين يحيكون مؤامرتهم ، ليقتلوا عدوهم ، مكروا ومكر الله ، ففر عيسى من أعدائه ، وسقط يهوذا فى أيديهم ، ليظهر الاضطهاد نفسه من أدران الشك التى رسبت فى جوفه ، فما كان له أن يشك بعد أن شرح الله صدره للايمان ، وليتحقق قول المسيح : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » .

شبه[1] لهم ، فلم يعرفوه ، وراحوا يحاكمونه وهو صامت ، إذا تكلم يكشف سيده أو ينطق كذبا ، فلاذ بالسكوت ، فما كان له أن يكذب وهو فى تطهيره ، ليتحقق وعد المسيح له بأنه من تلاميذه الذين سيجلسون معه فى ملك الله .

سار رجال السنهدرين وجنود الرومانيين ويهوذا بينهم ، ولمحته الجماهير التى كانت تخف إليه ، فأسرع الرجال والنساء يسبونه ، ويبصقون فى وجهه ، ويؤذونه وهو مطرق ساكن ، وارتفع صوت يقول :

— إنه رجل صالح ، لا يستحق هذا .

فزمجرت الأصوات ، وارتفعت الاعترافات :

— إنه أضلنا ، لو كان نبيا لأيد رسالته بالآيات .

(١) ذكر « جاى وفرير » مؤلفا كتاب « أصول الطب الشرعى » حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهدا لمعرفة شخص يدعى « مارتن جير » فجزم ٤٠ منهم أنه هو هو ، وقال خمسون أنه غيره ، والباقون ترددوا جدا ، ولم يمكنهم أن يبدوا رأيا ، واتضح أن هذا الشخص غير مارتن ، بعد أن عاش مع زوجة مارتن وأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات .

— وافق على أن ندفع الجزية لقيصر . وما كان لنبي أن يرشد قومه إلى وضع نير الرق فى أعناقهم .

— أين هذا الذى يدعى النبوة من يهوذا الجليلى ، الذى ثار ليحررنا من الرومانيين ، فما كان لأبناء الله أن يكونوا تحت حكم الوثنيين عبدة الأوثان .

— يا قوم ، إنه رجل صالح يدعو إلى الله .

وثار فى وجهه الناس . فصمت وانسل بعيدا ، قبل أن يبطشوا به .

وبلغ رجال السنهدرين قصر هيرودس أنتيباس ، كان الجنود الرومانيون يغدون ويروحون أمامه وفى أيديهم الرماح ، كانوا يقومون بالحراسة ، فوالى الجليل وفد إلى أورشليم فى العيد ، يقدم القرابين إلى الهيكل إرضاء لرعاياه اليهود . فهو حريص على أن يظهر أمامهم فى مسوح الرهبان . وإن كانوا يتهامسون بأحاديث الليالى الصاخبة الماجنة التى يقضيها فى قلعة ماكيروس .

جلس هيرودس يستقبل الصباح ، وأرخى لخياله العنان ؛ سمع وهو فى أورشليم بالعداوة القائمة بين بنى الناصرة ورجال الدين ، فتحركت مخاوفه ، فأوهامه تلح عليه أن ذلك النبي ما هو إلا يحيى ، قام من الأموات يثأر لقومه ، إن شبح يحيى يطارده ويؤرقه ويصرخ به فى سكون الليل ، فيطير من عينيه السهاد ، بلغ سمعه همس الناس أن الله نصر جيوش الحارث والد زوجته التى فرت منه لما تزوج من هيروديا ، على جيوشه ، انتقاما لدماء نبيه الزكية . فزاد ذلك فى مخاوفه ، وبات فى قلقه يترقب ساعة الانتقام .

ودخل عليه حاجبه ، وقال له إن رؤساء السنهدرين يلتمسون مقابلته ، فأذن لهم بالدخول ، وهو يعجب ، فما كانوا يفدون إليه فى العيد ، فلطالما جاء قبل ذلك حاجا إلى أورشليم ، ولطالما ساق أمامه الهدى ، وذبحه فى المذبح قربانا إلى يهود إله إسرائيل ، ولم يخفوا لاستقباله ، وإن كانوا يسارعون إلى بيلاطس ممثل الرومانيين .

أقبل قيافا ورئيس الصدوقيين ورئيس الفريسيين ، وقالوا :

— جاء من الجليل من يزعم أنه نبي ، وراح يفسد الناس ، ويغريهم بعدم دفع الضرائب إلى قيصر ، وقد حاكمه السنهدرين ، وأصدر حكمه بقتله ، ولما كان من رعاياكم ، فقد أرسلنا الوالى إليكم .

خفق قلب هيرودس ، كان يطمع فى أن يرى عيسى ، ليقضى على وساوسه التى تقلقه ، ولكن عيسى رفض أن يذهب إلى ذلك الثعلب فى قصره ، وها هى ذى الفرصة قد سنحت ليراه ويحدثه ، ويطلب منه أن يأتى بآية من آياته ، وإنها لتسلية فى العيد ، أن يشاهد هيرودس الآيات !

وجىء بيهوذا مشدودا وثاقه ، فرماه هيرودس بنظرة سريعة فاحصة ، فسكنت الطمأنينة قلبه ، لم تكن فى وجهه صرامة يحيى ، فملامحه لا توحى بما كانت توحى به ملامح النبى الخشن من رهبة ، كانت نظرة من يحيى تزلزل هيرودس ، وتذيب جبروته .

وقف يهوذا خافض الرأس ، وإن كانت السكينة تعشش فى فؤاده ، وهيرودس يديم إليه النظر ، ويصغى إلى الفريسيين والصدوقيين الذين كانت الاتهامات تتدفق من أفواههم تقطر عداوة ومقتا .

وقال هيرودس للماثل أمامه :

— ما تقول أنت ؟

لم يحر يهوذا جوابا ، وسلم أمره لله ، وترقب قضاء الله فى صبر عجيب ، فقد أضىء أمامه الطريق ، ووضح السبيل . قال له هيرودس :

زعمت أنك رسول الله ، فإن أردت أن يصدقوك فأت بآية إنا منتظرون .

لم يفتح يهوذا فمه ، ولم ينطق حرفا ، وانقشعت مخاوف هيردوس ، وعاد إلى طبعه ، فراح يسخر من يهوذا ، وبعث إلى رجال بلاطه يشاركونه فى الزراية بالرجل ، والتهكم عليه ، فقد وجدوا فيه مادة لعبثهم البغيض .

وصاح صائح :

— إنه مجنون .

وجلجلت ضحكات الزراية والاستخفاف ، وأراد هيرودس أن يرفه عن بلاطه فى العيد ، فأمر بإلباس الرجل ثياب المجانين !

أخذ الجنود يهوذا ، يصفعونه ويلطمونه ويخزونه بأطراف حرابهم . وهيرودس ورجاله يقهقهون ، كأنما سلب منهم كل شعور ، حتى رجال الدين ، أعضاء السنهدرين شاركوهم فى الهذر المقيت .

وجيء بيهوذا وقد ألبس ثوبا أبيض لامعا ، فرنت قهقهات العابثين ، وتطايرت فى القصر ألفاظ الاستخفاف والمجون ، وارتسمت ابتسامات عريضة فى وجوه الفريسيين المتزمتين ، ولم يروا فيما يجرى أمامهم فى العيد خرقا للناموس ، يستأهل العبوس والتقطيب .

أين عيسى ليسخر من رياهم ، ويمرغ كبرياءهم فى الأوحال أمام ذلك الوالى الغليظ القلب ؟ أين عيسى ليصفعهم بقوارعه ، ويجعلهم ينكمشون فى الأركان ؟ أين ذلك الذى دمغهم بالعار على مر الزمان ؟ إنه لم يكن هناك فى ذلك القصر العابث ، بل كان هناك يهوذا الغارق فى صمته ، التائب من ذنبه ، يتحمل ذلك الاضطهاد ، ليتم له التطهير .

كانت الجفوة قائمة بين بيلاطس وهيرودس ، كان كل منهما ينتظر عقب أن عين حاكما على ولايته ، أن يبدأ صاحبه بزيارته ، ولكن لما لم تتم تلك الزورة تغيرت النفوس ، ولكن بدأ اليوم انجياب تلك السحابة ، أرسل بيلاطس إلى هيرودس ذلك الجليلى ، ليرى أمره فيه ، فرأى هيرودس أن يرد له مجاملته ، بأن يعيد له الرجل يتصرف فيه ، فأمر أعضاء السنهدرين أن يعودوا إلى بيلاطس ، وكتب له :

— أقم العدل فى بيت إسرائيل .

٥٢

« لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين »

(قرآن كريم)

كانت كلوديا بروكيولا ، زوجة بيلاطس الحاكم الرومانى فى أورشليم ، فى شرفة القصر تشاهد المدينة المقدسة فى عيد الفصح ، الرجال فى ثياب الصلاة ينطلقون إلى الهيكل ، والنساء فى الثياب الزاهية الجديدة ، أسدلن على وجوههن نقبا كثيفة ، والأطفال ينطلقون مرحين ، فى أيديهم قطع من فطير الفصح .

نظرت كلوديا صوب القصر القريب ، النازل به هيرودس حاكم الجليل ، فلمحت على البعد السنهدرين من فريسيين وصدوقيين يسوقون أمامهم فريستهم ، وحوله الجنود ، تحلقهم جمهرة من خدام الهيكل واللاويين والمتطفلين ، فخفق قلب كلوديا فى شدة ، وأحست انقباضا ، لم يحكم هيرودس فى أمره ، بل أعاده إلى زوجها ليتصرف فيه .

رأت كلوديا فى نومها حلما حول ذلك الرجل ، حلما أفزعها وأقلقها ، حلما أوحى إليها فيه ، أن ذلك الرجل برىء لا يستحق القتل ، وقد تألمت فى نومها من تلك الرؤيا ، ولما استيقظت ظلت منقبضة ، وحاولت أن ترفه عن نفسها بالتطلع إلى الناس فى العيد ، ولـكن رؤيتها لذلك الجمع جددت قلقها ، فبعثت إلى زوجها :

ـــ إياك وهذا البار ، فقد تألمت فى الحلم كثيرا من أجله .

فكر بيلاطس فى أمر ذلك النبى الجديد ، إن تعاليمه لا تغضب الرومانيين ، تدعو إلى حب الأعداء ، ودفع الجزية ، وإعطاء ما لقيصر لقيصر ، لا تثبت روح التمرد والثورة ، بل روح الاستكانة والخضوع .

إذا اتهم بأنه ملك اليهود ، فقد أعلن أن مملكته ليست مملكة أرضية ، إن

هى إلا مملكة سماوية ، وما كان بذلك ينافس طيبروس أو أحفاده فى سلطانهم . ما قاده رؤساء الكهنة إليه إلا ليكون أداة تنفيذ لمآربهم ، يريدون أن يقتلوه ، ليتخلصوا من سخريته .

من أتباعه حتى يفزع بيلاطس منه ؟ حفنة من الصيادين الفقراء ، وبعض النساء المستضعفات ، أهؤلاء هم رعاياه فى مملكته ؟ أهؤلاء هم الذين يثيرهم على طيبروس والإمبراطورية الرومانية ؟ إن هى إلا عداوة محلية بينه وبين الفريسيين المتعجرفين . والصدوقين الرافلين فى الغرور ، ألبسوها ثوب الخيانة العظمى . ليوغروا صدر بيلاطس عليه ، فينفذ فيه حكم الإعدام ، ولكن بيلاطس قد عزم على أن ينقذ الرجل ، ويخلى سبيله .

جرت العادة أن يطلق الشعب فى العيد سراح أحد المسجونين ، وفى يد بيلاطس أسيران ، ذلك الذى جاء به رجال الدين ، وباراباس الثائر سفاك الدماء ، فإذا ما خير الشعب فيمن يطلق لهم سراحه ، فلا شك أن الجماهير ستطلب الإفراج عن النبى الناصرى .

عاد رؤساء السنهدرين إليه برسالة هيرودس ، فطلب الرجل الحائر . فلما دخل يهوذا عليه ، أحس إشفاقا نحوه ، كان مجهدا مكدودا ، وما كان وجهه ينم عن ثورة أو شر ، كان مطرقا فى استسلام ، كأنما ألقى للأقدار مقاليده .

وعاد بيلاطس يحاور ذلك الذى أرسلت إليه كلوديا أنها رأت فى المنام أنه برىء ، فلم يقس عليه ولم يشتد ، ثم خرج إلى الجموع الزاخرة التى حشرت فى ساحة القصر ، وأطل عليهم ، وقال لهم :

— قدمتم إلى هذا الإنسان كمن يفسد الشعب ، وهأنذا قد فحصت عنه قدامكم ، ولم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه ، ولا هيرودس أيضا . لأنى أرسلتكم إليه ، إنه لم يفعل ما يستحق عليه القتل ، فدعوه لى أؤدبه ، وأطلق سراحه .

ما كان هذا يبغى الفريسيون والصدوقيون والكتبة والصرافون وباعة الأغنام والحمام فى الهيكل ، فارتفعت أصواتهم :

— اقتله ، اقتله .

وراح قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يغذون ثورة الشعب ، فراحت الحناجر تهتف بالوالى الرومانى :

— نريد قتله . . نريد قتله .

— لم يفعل مايستوجب القتل . .

— اقتله . اقتله .

وصمت بيلاطس قليلا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التى حركها أعضاء السنهدرين ، واستجاب لها خدام الهيكل ، والجماهير التى تنتقل إليها عدوى الثورة ، أو عدوى الرضا ، دون أن تدرى لماذا ترضى ولماذا تثور !

وخفتت الأصوات ، وبدأ بيلاطس يتكلم ، فتعلقت به العيون ، وأرهفت له الآذان ، قال :

— إننا نطلق لكم فى العيد أسيرا ، فمن تريدون أن نطلق لكم فى هذا العيد ، باراباس أم عيسى الذى يدعى المسيح ؟

فهتف الفريسيون والصدوقيون وتجار الهيكل :

— باراباس .

وانطلقت العدوى إلى الجماهير ، فراحت تردد :

— باراباس . . باراباس .

تضايق بيلاطس ، كان يطمع فى أن يؤيده الشعب ضد أعضاء السنهدرين ، كان ينتظر أن ترتفع الأصوات طالبة إطلاق سراح ذلك الذى لم يرتكب إثما ، من كان كل ذنبه أن حسده رجال الدين ، فإذا بالجماهير ببغاوات تردد ما تلقن .

وأراد أن يثير حماسة الجماهير ، أن يزيل الغشاوة التى أسدلها على العيون الفريسيون والصدوقيون ، فأتى بيهوذا مشدودا وثاقه ، وقال لهم :

— فماذا أفعل بهذا ؟

كان يحسب أن رؤيته تعيد إلى الناس رشدهم ، ولكن خاب ما حسبه ، فقد ارتفعت أصوات الأعداء مجلجلة .

— ليصلب .

وتجاوبت الأصوات وراحت ترن فى القصر :

— ليصلب ، ليصلب .

فقال بيلاطس فى يأس :

— أى شىء فعل ؟

— اصلبه . . اصلبه .

— لم يفعل ما يستوجب الصلب .

— اصلبه . . اصلبه .

— أؤدبه وأطلقه .

— خذ هذا وأطلق لنا باراباس .

— باراباس . . . باراباس .

— اصلبه . . اصلبه .

— نريد باراباس . . باراباس . . باراباس . . باراباس .

— اصلبه . . اصلبه .

رأى بيلاطس الفتنة تتحرك ، غلا مرجل غضب الجماهير ، وما هى إلا إشارة من رجال السنهدرين الحانقين ، حتى يندلع لهيب الثورة ، فقال لهم :

— خذوه أنتم فاصلبوه ، فإنى لا أجد ما آخذه به .

فصرخ رجال السنهدرين :

— لنا ناموس ، وحسب ناموسنا هو يستحق الموت ، لأنه جعل نفسه ابن الله . يا للرياء ، إنهم يدعون أنفسهم شعب الله المختار ، أبناء الله ، وقد حاولوا أن يتهموه بالمروق لما قال لهم إنه ابن الله ، ولكنه أثبت لهم أنه استعار ذلك من كتبهم ؛ من مزامير داود ، وأنهم جميعا « أبناء العلى يدعون » . أثبت لهم أنه لم يدع الألوهية ، وأثبت لهم أنه ابن الله مثلهم جميعا ، وأنه عبده ورسوله ومصطفاه ، فلماذا يحاولون الآن أن يلصقوا به تهمة سبق أن برءوه منها ؟ وهل كان بيلاطس الرومانى الوثنى يفهم كثيرا أو قليلا فى مثل هذه الأمور ؟ أرادوا أن يوهموه أنه ارتكب إثما كبيرا فى حق ناموسهم ، ليرغموه على التصديق على صلبه ، فما كانوا قادرين على أن يصلبوه ما لم يوافق على ذلك الحاكم الرومانى ، صاحب الكلمة والسلطان ، قال لهم بيلاطس لعلهم يوافقون :

— اجلده ، ثم أطلق سراحه .

— اصلبه ، إنه يستحق القتل حسب ناموسنا .

لم يستطع أن يثنيهم عن عزمهم ، وبدأ الشر يطل بخطمه . فجاء بيلاطس بماء وغسل يديه أمام الجميع . وقال :

— إني برىء من دم هذا البار .

فصاح الكتبة والفريسيون والصدوقيون وتجار الأغنام والحمام والصرافون ، وخدام الهيكل ، والشعب المخدوع :

— دمه علينا وعلى أولادنا .

وخرج باراباس إلى الجماهير ، فانطلقت هتافات الفرح ، وأخذ عسكر بيلاطس يهوذا ، ليعذبوه ويجلدوه قبل أن يصلبوه . وصدق عيسى ، فالناس يفرحون ، وتلاميذه يذرفون الدمع الهتون .

« وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله
وإنا إليه راجعون » (قرآن كريم)

جنود الرومانيين يقودونه إلى جوف القصر . يسخرون منه ، ويبصقون فى وجهه . ويلطمونه ويصفعونه ويضحكون ، كانوا فى أعماقهم يكرهون اليهود . فأتيحت لهم فرصة التنفيس عن البغض المكتوم .

وبدأ جلد يهوذا ، خف جميع جنود القصر ينظرون فى سرور ، كان حدثا جديدا فى حياتهم الرتيبة ، فهرعوا يتسلون منشرحين ، ترن ضحكاتهم مدوية ، كلما عابثه جندى أو لطمه ، أو استخف به أو ركبه بمجونه الطليق .

وخلعت عنه ثيابه ، وشد إلى عمود ، فأصبح ظهره العارى مكشوفا ، وجاء جلاد ، كان وجهه جامدا كأنما نحت من صخر ، وفى يده سوط ذو ثلاث شعب من الجلد ، فى نهاياتها قطع من رصاص ، ورفع الجلاد يده ، وأهوى بالسوط على ظهر يهوذا يمزقه ، فلم ينقبض قلب جندى واحد . بل انبسطت الأسارير .

وانهالت الضربات ، ويهوذا يئن كوحش جريح ، وفاضت التهليلات فى المكان ، تبلدت الإحساسات ، وطغت وحشية البشر ، حتى فاقت ضراوة الحيوان ، وتطايرت السخريات ، وانطلقت التهكمات ، فتلقفها الجنود مسرورين ، كما يتلقف الأطفال هدايا العيد .

تمزق ظهر يهوذا ، ولف سوط على وجهه فقطعه ، وجاءته ضربة على رأسه فراح فى غيوبة ، فلم يعد يحس مما حوله شيئا ، وتم جلده ، فهرع إليه بعض الجنود يقلبونه ، فألفوا أنفاسه تتردد ، فأحسوا رضا ، لا لأنهم أشفقوا عليه أن يموت ، ولا لأنهم جزعوا لموته ، بل لأنهم سيجدون فيه تسليتهم ، حتى يسلموه إلى من يصلبونه .

وصاح صائح :

— صمتا يارفاق ، إنكم بين يدى ملك اليهود .

وقال آخر :

ألبسوه ثياب ملكه وتوجوه .

فأسرع الجنود إليه ، ولفوه فى ثوب قرمزى ، ثم ضفروا إكليلا من الشوك ، وتوجوه به . ووضعوا فى يده قصبة ، رمزا للصولجان ، واصطف الجنود ، وراحوا يمرون أمامه ، وينحنون فى سخرية ، كما تنحنى الرعايا أمام الملك ، ويقولون فى زراية :

— السلام عليك يا ملك اليهود .

ولم يكتفوا بعبثهم القاتل ، بل كانوا يأخذون القصبة من يده ، ويضربونه بها على رأسه ، ويتصايحون فرحين ، كان بينهم كحمل برىء وقع بين براثن وحوش ، أو كفأر صغير تنهشه عشرات القطط .

دار رأس يهوذا ، وفاضت آلامه ، وزادت حتى غاب عن حسه ، فلم يعد يستشعر العذاب ، كانت تدثره غيبوبة رحيمة تفقده الشعور .

واقتيد يهوذا إلى بيلاطس ، حيث كان قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يترقبون فريستهم ، ودخل يهوذا والدم يجرى على وجهه ، وينبثق من ظهره ، يجر رجليه ، يكاد يسقط من الإعياء .

نظر بيلاطس إلى رجال الدين المتنمرين ، إلى حملة الشريعة الذين طمس الله قلوبهم ، وأعماهم الحقد البغيض ، إلى المجرمين الحقيقيين ، الذين لو أصاخ إلى صوت ضميره لدمغهم بالافتراء والكذب ، ولكنه كان يخشى منهم ، فهم القوة المحركة للشعب الأعمى ، إنهم قادرون على أن يرسلوا إلى قيصر فى رومية الوفود ، يلتمسون منه أن يخلعه ، وأن يأتيهم بوال جديد ، ففضل السلامة على أن يلقى سمعه لصوت الضمير ، قال :

— خذوا ملككم واصلبوه .

أحسوا فى صوته رنة زراية ، فقالوا له :

— ليس لنا ملك إلا قيصر .

وقام رؤساء الكهنة وعيونهم تفيض بالقسوة . وانطلقوا وجنود الرومان يدفعون أمامهم يهوذا المحطم ، كان يريد أن يموت ويستريح . لم يعد يخشى الموت ، فبعده العزة والسيادة على أسباط بنى إسرائيل .

وارتفع صوت بيلاطس :

— خذوا هذه . وضعوها على الصليب .

فالتفت قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين ، فوقعت عيونهم على رقعة كتب فيها : « عيسى الناصرى ، ملك اليهود » . فثارت دماؤهم فى عروقهم ، إن ذلك الوالى الرومانى يسخر منهم ، ولا يكف عن سخريته ، فقالوا له :

— لا تكتب « ملك اليهود » ، فذاك قال : أنا ملك اليهود .

فقال لهم بيلاطس :

— ما كتبت قد كتبت .

obeikandl.com

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه [1] لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا » .
(قرآن كريم)

ركب الموت فى طريقه إلى جلجثا : قائد رومانى يعتلى صهوة حصان أبيض ، وثلاثة رجال يحملون صلبانهم ، وحفنة من الجنود الرومانيين حولهم ، وجمع من الناس ينطلقون فى أثرهم ، ليشاهدوا الصلب ، تزجية للوقت فى العيد .

كانوا ثلاثة يئنون تحت ثقل الصليب ، يهوذا ولصين حكم عليهما بالصلب معه ، وكان يهوذا أكثرهم ضعفا . كان مجهدا محطما ، مزقته السياط والمحاكمات ، فى وجهه جروح ، وفى ثوبه دم جف ، فألصق الثوب بالجسم ، وساقاه تتثنيان تحته ، يحس كأنما يكاد يهوى من الإعياء مغشيا عليه .

كانت أورشليم تموج بآلاف الحجاج من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى واليونان . فألقوا نظرة عابرة على موكب الموت ، وعادوا يستأنفون ما كانوا فيه من مرح وحبور ، فما تجشموا عناء السفر جلبا للأحزان ، بل للحج والترفيه .

وفى أثر الموكب الحزين ، سارت نسوة محجبات يذرفن الدموع ، فهن أرق قلبا من الرجال الذين آمنوا به ، فلما أحسوا الخطر انفضوا من حوله ، وقست القلوب . سمعوه فى الهيكل وهللوا له ، فلما دنت الساعة الفاصلة بخنوا عليه حتى بالدموع .

---

(١) ذكر جورج سايل مترجم القرآن إلى الإنجليزية ، فى سورة آل عمران صفحة ٣٨ أن السيرنثيين Cerinthians والكربوكراتيين Carpocratians وهم من أقدم فرق النصارى ، قالوا إن المسيح نفسه لم يصلب ، وإنما صلب واحد آخر من تلاميذه يشبهه شبها تاما .

وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصا آخر صلب بدل المسيح .

دب الوهن فى جسد يهوذا ، فسقط وصليبه فوقه ، ولولا الأنفاس الضعيفة المترددة ، لحسبوه قد مات ، فصرخ به رجال قيافا وحنان أن يقوم ، وأن يحمل صليبه ، ولكنه كان عاجزا عن النهوض .

وأقبل سمعان القيروانى من حقله ، ورأى جمعا ينطلق خارج المدينة : جنودا رومانيين ، وصلبانا ونساء على البعد يبكين ، فذهب يشاهد مايجرى فى الطريق . فلما رآه القائد الرومانى ، قال له ، وهو يشير إلى الصليب الساقط فوق يهوذا :

— احمل هذا .

وذهب سمعان يفعل ما أمر به القائد ، فما كان لامرئ أن يرفض أمرا صدر إليه من قائد رومانى ، ولكن رجال قيافا وحنان اعترضوا على ذلك الأمر ، وقالوا :

— لابد أن يحمل هو صليبه حتى النهاية . هذا هو الناموس .

كان القائد يبغى أن ينتهى من عمله ، فما كان يهمه كثيرا أو قليلا أن تطبق حرفية شريعة لا يؤمن بها ، فلم يلتفت لاعتراضهم ، وحمل سمعان الصليب ، ومال اثنان على يهوذا وعاوناه على النهوض ، وانطلق ركب الموت فى الطريق .

وكان بين النسوة امرأتان ، أحستا فى قلبيهما وقدة نار ، وراحت دموعهما الحارة تجرى ، فلا تريان إلا ما هما فيه من حزن عميق ، كانتا العذراء أم المسيح ، ومريم المجدلية ، التى أخرجها من الظلمات إلى النور ، ولولا تلك الدموع التى غامت بها العيون ، ولولا الحزن الثقيل الذى نزل بهما ، ولولا اليأس الذى ذهب بنفسيهما شعاعا ، لفطنتا إلى أن ذلك المجهد المكدود ، الرازح تحت عبء الصليب غير عيسى الحبيب .

وبلغوا المكان ، وثبتت الصلبان فى الأرض ، وجىء بالرجال الثلاثة ، وخلعوا عنهم ثيابهم ، فأشاحت النسوة بوجوههن ، وقلوبهن منقبضة ، وأحست مريم خناجر تطعنها فى فؤادها ، وعلا النشيج والنحيب .

ورفع الرجال ، وفى وسط أكفهم دقت مسامير لتثبيتهم فى خشب الصلبان فأحست النسوة كأن المطارق تدق قلوبهن ، فتمزق نياط أفئدتهن ، ودقت مسامير أخرى فى الأقدام ، فكادت مريم أم المسيح تنهار ، وكتمت مريم المجدلية صرخة مفزوعة كادت تفر من قلبها المطعون .

وصدق المسيح . كان بنو إسرائيل فى العيد يمرحون ويفرحون ، إذ كانت أمه وأحبابه وأصحابه فى جلجثا فى حزن تخر من ثقله الجبال ، حزن أسدل أغشية قاتمة كثيفة على العيون ، فلم تعد ترى إلا السواد .

وراح الوقت يمر وئيدا بغيضا ، ويهوذا على الصليب يئن من العذاب ، وقد ثبتت فوق رأسه الرقعة التى كتب فيها « عيسى ملك اليهود » ورجال قيافا وحنان يرمقونها فى غيظ شديد ، كانوا يحسون فى تلك اللحظة الرهيبة أن سخرية بيلاطس بهم تلطمهم وتكدر صفو المشهد الذى عملوا له ، وترقبوه طويلا .

وبدأ همس الرجال الذين لم يؤمنوا بعيسى ، فراحوا يقولون :

— خلص آخرين وعجز عن أن يخلص نفسه .

— إن كان هو المسيح ملك إسرائيل ، فلينزل الآن عن الصليب ، لنرى ونؤمن به .

ولو تهتكت الأغشية عن عيونهم ، ولو أرهفت آذانهم ، والتقطت سخرية القدر بهم ، لتيقنوا أن ذلك المصلوب ليس هو ، وأنه خلص آخرين وخلص نفسه ، ولكن كان فى عيونهم عمى ، وفى آذانهم وقر ، وما كان الله يريد لهم الهداية وقلوبهم أعشاش للنفاق والرياء والكفر .

وراح الجنود الرومانيون يسخرون بيهوذا وهو على الصليب ، التقطت آذانهم ما يهمس به أعداؤه ، فقالوا له :

— إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك .

فقال له المصلوبان معه :

— إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا .

ولكنه لم يكن المسيح ، كان يهوذا يتجرع الكأس المريرة ، ليشفى روحه مما علق بها من وساوس وشكوك ، فلم يخلص نفسه ولم يخلصهما .

وغابت الشمس ، وزحف الظلام ، والرجال الثلاثة على الصلبان يتعذبون ، يتفصد منهم العرق ، ويلتقطون أنفاسهم فى جهد ، يئنون من الآلام القاسية المريرة ، وهتف يهوذا فى صوت واه :

— أنا عطشان .

كان هناك إناء ممتلئ خلا ، فغمسوا إسفنجة فيه . ورفعوها إليه ، فلما أخذ يهوذا الخل ، ألقى رأسه على صدره . دب فيه ضعف شديد ، فلم يعد قادرا أن يرفعه . وصدق عيسى : فقد قال فى العشاء الأخير : « وأقول لكم إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا ، إلى ذلك اليوم ، حينما أشربه معكم جديدا فى ملكوت ربى[1] » . فهو لم يشرب الخل على الصليب ، بل شربه يهوذا ، فالخل من نتاج الكرمة ، وما كان لرسول أن يقول كذبا .

وضج يهوذا من آلامه . وتذكر أن الله يعذبه بشكه الذى خالط إيمانه ، فقد على نفسه وصرخ :

— إيلى إيلى لم شبقتنى ؟ [إلهى إلهى لماذا تركتنى] .

لم يقل : أبى . . أبى لم تركتنى ؟ فما كان يهوذا تعود أن يدعو الله « بأبى » ساءه أن يتركه الله يتردى فى الشك حينا ، كانت تجربة قاسية ، دفع ثمنها غاليا صابرا ، وفى لحظاته الأخيرة وهن فصرخ معاتبا ، ولولا سكرات الموت ما نبس بكلمة .

أفزعت تلك الصرخة المدوية فى الظلام الواقفين يترقبون النهاية ، وقال بعضهم:

— إنه ينادى إيليا .

وتحركوا فى فزع ، فقال آخرون :

— انتظروا لنرى هل يأتى إيليا يخلصه .

ومزق الصوت قلوب النساء ، فارتفع فى سكون المكان نشيج ونحيب ، زاد فى قلق أعصاب الخائفين المترقبين حدوث معجزة ، ولكن المعجزة لم تأت ، فما كان صاحب المعجزات هناك .

وصرخ يهوذا صرخة أخرى ، أعقبها صمت مطبق ، فقد أسلم الروح . مات الموتة الأولى ، ولم يذق بعدها الموت ، فقد خلص من أدران الشك ، ليحيا مع المسيح إلى الأبد .

استحق يهوذا أن يكون مع المسيح وحوارييه ، يدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر . كان من المتقين الذين أرسلهم عيسى إلى بنى إسرائيل يبشرون باسمه ، ويدعون الناس إلى ملكوت الله . وكان من الذين أوحى الله إليهم

---

(١) ذكرت فى إنجيل متى : فى ملكوت أبى . وسبق أن قلت إن أبى يقصد بها ربى .

أن آمنوا بى وبرسولى ، وكان من المبشرين بالجنة . مسه طائف من الشيطان ، فلما تذكر إذا هو مبصر ، فقدم نفسه راضيا عن سيده ليتطهر ، فتاب الله عليه ، فقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم .

تضايق رؤساء السنهدرين من الانتظار الطويل ، أرخى الليل سدوله ، ومشى الوصب فى أبدانهم ، بعد السهر فى تدبير مؤامرتهم ، فأرسلوا إلى بيلاطس يستأذنونه فى كسر سيقان المصلوبين ودفنهم ، كانت هذه العادة متبعة لتقصير آلام المصلوبين ، والتخلص منهم ، فقد كان بعضهم يستمر أياما قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، وعاد الرسل من عند بيلاطس بالإذن بذلك ، فأخذ الجنود مطرقة ثقيلة ، وكسروا سيقان اللصين ، وذهبوا إلى يهوذا ، فألفوه قد فارق الحياة .

وأراد أحد الجنود أن يتحقق من موته ، فطعن جنبه بحربة ، ولما رأى رجال الدين أن المصلوب قد انتهى ، غادروا المكان يحسون كأنما انزاح كابوس عن صدورهم ، وانداحت فى أفئدتهم نشوة الظفر ، حسبوا أنهم قتلوا عيسى ، وتخلصوا منه ، وخلا لهم وجه بنى إسرائيل ، يمتصون أموالهم باسم الدين ، فمن ذا الذى يبصرهم بعده أن الله غنى عن عباده ، وأنه لاينال من لحوم الأضحيات ودمائها ، ولكن يناله التقوى منهم ؟ وما دار بخلد أعضاء السنهدرين أن الله سخر منهم ، وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم ، « الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزئ بهم » .

انطلق رجال الدين وقد حقت عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون . وبقى المصلوب فى الظلام بين حفنة من النساء الباكيات النائحات ، وأما حواريو المسيح فقد ولوا الأدبار مفزوعين ، ولو أنهم فهموه ، لما شكوا فيه ، ولتيقنوا أنه لم يصلب ، بل صلب غيره ، فقد قال لهم : « كلكم تشكون فى الليلة » ، و « طوبى لمن لايعثر فى » . ولو أصاخوا لرن فى آذانهم قوله ، مؤكدا نصره على أعدائه من صدوقيين وفريسيين :

— إنى قد غلبت العالم .

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا ليبين لهم الذى اختلفوا فيه »
(قرآن كريم)

انسحب الجنود الرومانيون ورجال السنهدرين وخدمة الهيكل يحملون مشاعلهم فى أيديهم ، وخلفوا المصلوبين فى الظلام الدامس الثقيل ، ومريم المجدلية وأختها مرثا وسالومى أم يعقوب ويوحنا وحفنة من النسوة المؤمنات ، يبكين فى حرارة ، حتى تكاد أكبادهن تتصدع من البكاء ، كان الأمل فى معجزة تنقذ المصلوب يراود أخيلتهن حتى اللحظات الأخيرة ، ولكن لما طعنه الجندى الرومانى بحربته تبخر الأمل ، وجرت دموع اليأس . نفذ القدر ، وحم القضاء ، وأسلم المصلوب الروح . دون أن تنقذه السماء ، فما كان المصلوب رسول الله ، وما كان صاحب المعجزات .

كان يقف على البعد رجلان ، يرصدان مايجرى فى جلجثا ، وفى قلبهما حزن عميق ، كانا نيقوديموس ، ثالث أعضاء السنهدرين ؛ من آمن بالمسيح وكتم إيمانه ، ويوسف الرامى عضو السنهدرين الذى تخلف عن الاجتماع الأخير ، الذى حكم فيه بالقتل على من حسبوه المسيح ، لأن الإيمان عرف طريقه إلى قلبه .

ساد الظلام جلجثا ، فزاد انقباض نفسيهما ، فالرومانيون يخلفون أجساد المصلوبين تنهشها الكلاب ، وتتخطفها طيور السماء ، فعز عليهما وهما من اليهود الذين يحفلون بدفن الموتى فى مقابر فاخرة ، أن يترك جسد من حسبوه المسيح فى الخلاء ، ففكرا فى أن يستأذنا بيلاطس فى مواراته فى التراب .

كان يوسف الرامى أكثر جرأة من نيقوديموس ، فانطلق فى الظلام ، حتى إذا بلغ أورشليم أغذ السير إلى قصر بيلاطس ، لايخشى غضب الوالى الرومانى ، فياطالما غضب على من جاءه يلتمس منه مايريد يوسف أن يلتمسه .

دخل على بيلاطس ، فألفاه فى إيوانه ، فتقدم منه وقال :

— جئت ألتمس يا مولاى الإذن لى بدفن عيسى .

تعجب بيلاطس وقال :

— أمات هكذا سريعا ؟

كان المصلوبون يقاسون عذاب الصلب يوما أو يومين ، أما هذا المصلوب فلم يستغرق بعض يوم ، فلم يصدق بيلاطس ، وبعث إلى قائد المئة يسأله ، فلما أكد له موته ، سمح ليوسف بدفنه .

ذهب يوسف واشترى كتانا ، وذهب نيقوديموس وجلب مئة رطل من مر وعود ، وفى فحمة الليـــل فى جلجثا لاح قبس نور المشعل الذى يحمله نيقوديموس القادم بالطيب ، وما هى إلا لحظات حتى لاح نور آخر يجاهد أن يزحزح طبقات الظلمات ، كان النور المنبعث من مشعل يوسف الرامى ، القادم بالأكفان والتصريح بدفن المصلوب .

هب يوسف ونيقوديموس ينزعان المسامير الطويلة المثبتة لقدميه . وجىء بسلم وارتقاه أحدهما ، وأخذ ينزع المسامير من كفيه ويسند الجسد بكتفه ، وهرعت النسوة يعاونه على إنزال المصلوب ، وحملت الجثة بينهم ، وانطلقوا إلى حديقة قريبة ، كانت ملكا ليوسف الرامى ، وكان بها قبر فاخر أعده يوسف لنفسه .

وذهب يوسف وأحضر ماء ، وراح هو ونيقوديموس يغسلان الجثة ، ويزيلان منها آثار الدم . وتقدمت مريم المجدلية ومرثا وسالومى ، ونزعن عن رأسه تاج الشوك الذى توجه به الرومانيون مستهزئين ، وأخذن يحنطن الجثة بالحنوط الذى جاء به نيقوديموس ، ولما غطى به الجسد ، تقدم يوسف وقبل جبهته ، وتقدم الجميع يقبلونها ، مريم فى نشيج ونحيب ، والنسوة فى بكاء وعويل ، والرجلان صامتان ، وإن كان الحزن يمزق فؤاديهما ، ووقدة من النار تلسع حلقيهما ، والدموع تزيد نفسيهما أسى ولوعة .

وجىء بالكتان وأدرج الجسد فيـه ، وقام يوسف ونيقوديموس يقرآن فى صوت حزين صلاة الموتى ، ولما انتهت الصلاة ، حمل الجسد المدرج فى الأكفان ، ودلى فى قبره ، ووورى بالتراب ، وانصرف الجميع فى جوف الليل البهيم مطرقين .

« بل رفعه الله إليه » .

(قرآن كريم)

نور الفجر لم يبدد بعد ظلام الليل ، وبدأت زقزقة العصافير تعكر السكون المسيطر على حديقة يوسف الرامى ، التى قبر فيها يهوذا ، وأخذ شبح يدنو فى الظلام مطرق الرأس ، كانت مريم المجدلية متشحة بالسواد قادمة فى البكرة ، تذرف على القبر الدموع ، تقدمت فى خطوات ثقيلة ، حتى إذا بلغت القبر ألفت الحجر مرفوعا عنه ، فخفق قلبها ، وانتابتها رهبة ، وراحت تركض تنقب عن الحواريين ، الذين هاموا على وجوههم حذر الموت .

وعادت وفى رفقتها سمعان بطرس ويوحنا ، وقالت لهما :

— أخذوا السيد من القبر ، ولسنا نعلم أين وضعوه[1] .

كانت تحسب أن المصلوب هو المسيح ، فلما سرقت الجثة انتابها هم ثقيل ، وجرت دموعها غيظا ، ونظر يوحنا إلى القبر فوجده خاليا ، ودخل بطرس باندفاعه المعهود ، فلم يجد الجثة فاضطرب ، ودخل يوحنا ، فلما لم يجد شيئا غاص قلبه حزنا ، وبقيا صامتين لحظات ، ثم خرجا مطرقين ، وانصرفا وقد خلفا مريم المجدلية تذرف الدمع الهتون .

فر عيسى فى الليل من الجنود الرومانيين بعد أن ولى حواريوه الأدبار ، ووقع يهوذا فى أيديهم ، فلما صلب وهدأت نفوس أعضاء السنهدرين وأتباعهم ، واطمأنوا إلى أنهم تخلصوا من عدوهم ، خرج عيسى من مخبئه ، وهبط من جبل الزيتون إلى وادى قدرون ، ثم انطلق إلى حديقة يوسف الرامى ، إلى قبر

---

(١) هذه رواية إنجيل يوحنا ، والأناجيل الأخرى متضاربة متناقضة فى هذا الموضوع ويذكر جورج يوست الأمريكى فى قاموس الكتاب المقدس ، أن الجزء الخاص بهذا الموضوع فى إنجيل مرقص لم يكن فى نسخ إنجيل مرقص القديمة ، بل أضيف إليه فيما بعد .

يهودا ، الحوارى الذى دفع حياته ليتطهر من أدران الشك الذى راوده .

لمح عيسى مريم المجدلية مطأطئة الرأس ، وقد انخرطت فى البكاء ، فاقترب منها ، وبلغ أذنيها وقع أقدام ، فالتفتت ، ووقع بصرها عليه ، على عيسى الذى يكاد كبدها ينصدع من البكاء عليه ، ولكنها لم تعرفه[١] ، حتى مريم شكت فيه .

— يا امرأة ، لماذا تبكين ؟ من تطلبين .

وانسكب فى أذنيها صوته ، صوته الذى طالما جلست الساعات تصغى إليه منتشيه ، ولكنها لم تميزه ، لم تميز وجهه ، ولم تميز صوته ، بل حسبته البستانى ، فقالت له فى توسل .

— يا سيد ، إن كنت أنت حملته ، فقل لى أين وضعته وأنا آخذه .

كانت مريم تحسبه البستانى ، حمل الجثة إلى مكان آخر وأخفاها ، حتى مريم المجدلية شبه لها ، مريم التى كانت دارها بصيص الأمل فى الليل السرمد ، الواحة الوارفة فى صحراء دعوته القاسية ، مريم التى أحبته حبا طاهرا سما على كل حب لم تعرفه ولم تعرف صوته ، وحسبته البستانى ، فما أيسر أن يختلط الأمر على رجال السنهدرين الذين لم يروه إلا عرضا ، وعلى بيلاطس وهيرودس اللذين لم يقابلاه أبدا .

وارتفع صوت عيسى مرة ثانية :

— يا مريم .

والتفتت مريم ، وأنعمت النظر ، وهتفت :

— ربونى (أى يا معلم) .

وهرعت إليه ، تمرر يدها فى دهش على وجهه وعلى يديه ، كانت على يقين أنه صلب ، فظنت أن الماثل أمامها روح ، فجعلت تتحسسه ، فقال لها :

— لا تلمسينى ، لأنى لم أصعد بعد إلى ربى[٢] ، ولكن اذهبى إلى إخوتى ، وقولى لهم : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم ، وإلهى وإلهكم .

وهرعت مريم إلى الحواريين فى مرح وفرح ، تخبرهم أنها رأت السيد[٣] ، وأنه أخبرها أنه ذاهب إلى ربه ، وأن الله يرفعه .

---

(١) يوحنا : ٢٠ — ١٤ . (٢) ذكر فى يوحنا ٢٠ : ١٧ أبى .

(٣) فى ترجمة جمعية التوراة الأمريكية « رب » بدل سيد ويلاحظ أن هذه الجمعية تترجم كلمة « مار » اليونانية « برب » إذا كانت عن عيسى صلى الله عليه وسلم ، و « بسيد » إذا كانت عن غيره !

وسار عيسى يتلفت ، لا خوفا من أعدائه ، فقد سخر الله منهم ، بل تلفت المودع للدنيا ، وفيما هو فى سيره ، إذ لمح اثنين من تلاميذه ، فأسرع إليهما ، وانطلق معهما فى الطريق يحادثهما ويحاورهما ولم يعرفاه[1] . ولم يفطنا إلى أنه عيسى ، حتى تلاميذه شبه لهم ، قال لهما :

— ماذا تتطارحان ؟ وما هذا العبوس ؟

فأجابه أحدهما :

— أأنت غريب ؟ لم تعلم ماحدث فى أورشليم فى هذه الأيام ؟

كان يأمل أن يعرفاه . وكان يحب أن يعرف كيف فهم تلاميذه ما جرى من حوادث ، وهم بعيدون عن مجراها ، هائمون على وجوههم حذر الموت ، فقال له:

— ماذا حدث ؟

— حوادث عيسى الناصرى ، الذى كان نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله والشعب ، وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ، وكنا نرجو أن يكون المزمع أن يفدى إسرائيل .

لم يقولا : عيسى الناصرى ابن الله ، ولم يقولا عيسى الناصرى الرب ، بل قالا عيسى الناصرى النبى ، الذى أسلم للكهنة والحكام ، فضايق عيسى أنهم لم يفقهوا شيئا ، ولم يفهموا قوله فى تلك الليلة التى قال لهم فيها : « كلكم تشكون فى هذه الليلة ، و « طوبى لمن لا يعثر فى » . ولكن كلهم شبه لهم فيه ، فقال لهما :

— أيها الغبيان وقصيرا الإيمان .

واقتربوا من القرية التى كان التلميذان منطلقين إليها ، فتظاهر عيسى أنه مستأنف سيره ، فقالا له دون أن يعرفاه :

— امكث معنا ، مال النهار ، ولاحت بشائر الليل .

فدخل معهما ، وجىء بالطعام ، فتناول الخبز ، وباركه وكسره ، وقدمه لهما . ولما انتهى الطعام ، خرج عيسى وتلميذاه فى حيرة لا يدريان أكان هو عيسى أم غيره ؟ !

أرخى الليل سدوله ، فاجتمع الحواريون يتهامسون فى دار بعيدة عن عيون

---

(١) لوقا ٢٤ : ١٣ — ٢٥ .

اليهود . كانوا يذكرون أن مريم رأت المسيح ، وأنه أخبرها أنه صاعد إلى ربه ، وصدق بعضهم ذلك القول ، ورفض بعضهم الآخر أن يصدقه ، حسبوا أن أوهام مريم صورت لها ما قالت ، فقد كانوا جميعا يحسبون أن عيسى صلب وقبر ، ولو دار بخلدهم أنه فر من الجنود الرومانيين ، وأن غيره صلب عنه ، لكان تصديقها يسيرا .

وفيما هم فى حوارهم ، دخل رجل وقام فى وسطهم ، فنظروا إليه ، فخفقت قلوبهم رعبا ، كان عيسى بقامته الطويلة وعينيه السوداوين منتصبا ، وأراد أن يعيد إليهم طمأنينتهم ، فقال لهم فى صوت هادىء :

— سلام لكم .

لم يصدقوا أعينهم ، وحسبوه خيالا ، فهرعوا إليه يتحسسونه ، فلما يتقنوا أنه المسيح ، فرحوا وتحقق قوله لهم : إنه عما قليل لا يرونه ، ثم عما قليل يبصرونه ، وأن العالم يفرح وهم يحزنون ، ثم ينقلب حزنهم فرحا .

وراحوا يتحدثون ، فتيقن أنهم لم يفقهوا شيئا ، فغادرهم وخرج ، وانساب فى سكون الليل وحده ، إنه خارج كما خرج موسى ، خارج على ألا يعود ، ذاهب إلى ربه ليتوفاه ويرفعه إليه .

ذهب عيسى مطرقا ، فلا بنى إسرائيل اصطلحوا ، ولا تلاميذه استطاعوا أن يفهموا أسرار ملكوت الله على الوجه الصحيح ، ذهب ويتردد فى أذنيه قوله : « ولكن متى جاء ابن الإنسان فلعله يجد الإيمان على الأرض » . ذهب ليرفعه الله إليه . ويرسل إليهم « الفراقليط » الذى بشرهم به ليمكث معهم إلى الأبد ، « الفراقليط » روح القدس ليعلمهم كل شىء ويذكرهم بكل ما قاله ، ويشهد له أنه عبد الله ورسوله ، « ويرشدهم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

ذهب ليأتى ذلك الذى « جعله الله عهدا للشعب ونورا للأمم ، ليفتح عيون العمى ، ليخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن ، الجالسين فى الظلمة » ذلك الذى « يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » ومن بشر موسى به ، وقال عنه أشعيا عن لسان الله عز وجل : « هوذا عبدى الذى أعضده ، مختارى

الذى سرت به نفسى ، وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يسمع فى الشارع صوته . . . لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته »

ذهب عيسى وما وضع الحق فى الأرض ، كسره أعداؤه ، أما الآخر عبد الله ومختاره فلا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض ، حتى يسود الدنيا ملكوت الله .

وبلغ عيسى ظلام الليل الثقيل ، ليرفعه الله إلى العزة والمجد والخلود .

---

obeikandl.com